



جامعة أم القرى
قسم اللغة العربية

١٠٠٢٨٠٠

٨١٤



ع. ٢٠٠٤
وزارة التعليم العالي
عهد الدراسات الإسلامية
قسم اللغة العربية

الحب والنور

في شعر المشايخ

البحر المقدم من الطالب: قاسم صلاح الصلاح لنيل درجة البكالوريوس

بإشراف الأستاذ الدكتور: أحمد الشرباصي

١٩٧٨ - ١٩٧٩ م
١٣٩٨ - ١٣٩٩ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحياة العامة في تونس قبل الشاهي

في أواخر القرن الماضي ، بدأ الغرب يسيطر على أجزاء من الوطن العربي ، وكانت تونس بعد الشاهي من بين البلدان العربية التي سقطت في يد الفرنسيين سنة ١٨٨١ م ، ومنذ ذلك الوقت كانت تخضع لحكم مزدوج (حكم الفرنسيين أولا وحكم الباي ثانيا) ، والباي هو الذي ورث الحكم عن أسرته المعروفة باسم الأسرة الحسينية التي ظلت تحكم تونس منذ سنة ١٧٠٥ م الى سنة ١٩٥٦ م ، حيث أعلنت الجمهورية التونسية وتم خلع آخر البايات .

والباي كلفة تركية كانت تطلق على حاكم تونس عندما كانت خاضعة للأتراك ، وهي كلمة تشبه الخديوي في مصر .

ولقد قام تحالف بين أعداء الشعب - الباي وبين الفرنسيين - ولقد استمر هذا التحالف بعد ذلك لأن مصلحة أعداء الشعب واحدة .

ومن المواقف المناوئة للشعب ، أنه أرسل جيشا تونسيا سنة ١٨٨١ م الى الحدود الجزائرية وذلك لمساعدة الجيش الفرنسي ضد الجزائريين ، ولهذا الموقف وأمثاله لم يجد الفرنسيون أي مبرر لتغيير هذا الحكم - ذلك النظام الذي يقف الباي على قمته وقاعدته مما .

وفي الحرب العالمية الأولى أعد باي آخر من بايات تونس جيشا قوامه ستة وخمسين الفا من التونسيين ليحارب في صفوف الفرنسيين ، وقد قتل منهم في الحرب اثنا عشر ألفا ، واستمر بايات تونس في تنازلهم عن حقوق الشعب ، وهي الحقوق التي لم يعترفوا بها في يوم من الأيام ، كل ذلك في سبيل مصالحهم الخاصة ، وخوفا من الاصطدام مع الفرنسيين .

وكان من المظاهر الأخرى لتنازل البايات عن حقوق الشعب أن تم تسجيل أفضل الأراضي الزراعية في تونس باسم المستوطنين الفرنسيين ، كما أصبحت معظم الوظائف في التونسية في يد الفرنسيين فمن بين ثلاثين ألف اداري في تونس بعد الحرب العالمية الأولى كان هناك خمسة وعشرون ألفا على وجه التقريب من الفرنسيين ، في مقابل خمسة آلاف من أبناء تونس .

وفي الميدان الاقتصادي كان اليهود يسيطرون على معظم الصناعات والحرف الصغيرة وخاصة صناعة

الأحذية ، وصناعة النسيج ، وكان يهود تونس يطالبون بأن يطبق عليهم القانون الفرنسي وقواعد الحياة الفرنسية في كل شيء ، حيث كانوا يشعرون بالولاء للمال أولا ، شأن (المزاج اليهودي) و (التاريخ الصلي لليهود في كل أنحاء العالم) ، وفي مختلف مراحل التاريخ ، وكان اليهود يشعرون بالولاء ثانيا لفرنسا ولم يكونوا يشعرون بالولاء لتونس التي ولدوا فيها وعاشوا على خيرها ، فلقد كانت فرنسا في تونس هي السلطة الاستعمارية التي تحمي الاستغلال والمستغلين داخل المجتمع التونسي .

ثم تأتي المأساة الثقافية اذا صح التعبير ، لتمطي الملاح الأخيرة للمحنة التي كانت تعيش فيها

تونس في ظل الاستعمار ، فقد كانت المدارس المختلفة تضم ١٧٪ من أبناء تونس و ٨٧٪ من أبناء

فرنسا وذلك حسب الاحصاء الذي أورده الأستاذ عمر فروخ في كتابه عن الشاهي .

مولد الشابي وظروف الحياة العامة فيها :

في هذا الجو المليء بالظلم والحن، ولد أبو القاسم الشابي وبالتحديد في ٢٤ / فبراير - شباط سنة ١٩٠٩ م. ولكن هذه الفترة لم تكن مظلمة تماما، ولا خالية من أي شعاع من الضوء، فكلما اشتد الظلم والتأخر اللذان يهددان شعبا حيا بالهلاك، بدأت الأفكار الثورية تولد كبذور لعالم جديد، وقوى جديدة تهدف الى انقاذ الشعب من الكارثة وربما اختبأت الأفكار الثورية المتفتحة في الحوار والبيوت الفقيرة وربما استترت بالظلام والتظاهر بالسذاجة واختفت وراء النكتة وخفة الروح، كل ذلك لتتعايل وتتكن من الانطلاق بعد ذلك لتكون اساسا للمستقبل، وربما اختبأت هذه الأفكار القوية الخفية في عقل رجل يلبس العمامة ويتحدث باللغة العربية الفصحى، ويبدو وكأنه رجل دين لاعلاقة له بالدينيا : أي لا علاقة له بالحكام والشعوب، وربما اختبأت هذه الأفكار على "مصطبة" يجلس فوقها ناس يتدارسون - في العلن - أمور الفقه والنحو وما الى ذلك، وهم في حقيقة أمرهم يدرسون معنى الثورة وطريقة الثورة (١) يدرسون "سر الحياة السليمة"، ويفكرون في تفسير الظلم ونشر العدل في المجتمع المظلم، وربما اختبأت هذه الأفكار الثورية على حصيرة جامع يقف الناس فوقها، يتجهون بقلوبهم الى الله، وهم في أعماقهم يشعرون أن الله هو العدل وهو غيب الخبز، وهو الحروف التي حرم الملايين من تعليمها، لأن الله عادل وعليم ومحِب للفقراء .

وهذا ما حدث في تونس، فقد كانت تظهر وسط الظلام أشعة خافتة هنا وهناك، وكانت هذه الأشعة الخافتة هي التي تجذمت وقويت بعد ذلك لتقلب الأمور في تونس وفي كثير من أجزاء الوطن العربي . وكان الشعاع الأول هو بدون شك ذلك الشيخ الفريب الذي كان ينتقل من بلد اسلامي الى بلد آخر " يوزع المسعوط يمينه، ويوزع الثورة يساره " ذلك هو جمال الدين الأفغاني ، الأب للشرعي " لثورة أوائل القرن العشرين " في كل أجزاء الوطن العربي على الرغم أنه بذر بذور هذه الثورات في أواخر القرن التاسع عشر .

لم يذهب الأفغاني الى تونس بنفسه وإنما ذهب اليها بمبادئه وتلاميذه ، وفي سنة ١٨٨٥ م، أي بعد احتلال تونس بأربع سنوات تقريبا ، ذهب الشيخ محمد عبده صديق الأفغاني وتلميذه الى تونس، وكان هذه الرحلة هو الاتصال بالثقفين التونسيين ودفهم الى الثورة على الأوضاع التي كان العالم الاسلامي الغربي يعاني منها في ذلك الحين .

والفكرة التي كان يحملها الشيخ محمد عبده معه، وهي فكرة الأفغاني في الوقت نفسه هي تجديد الاسلام، وربطه بالحياة المصرية، وتخليص الدين من البدع والخرافات، وانعاش الدعوة الى الأخذ بالعلم الحديث، والخروج بالدين من مرحلة " الكهانة " والانعزال عن الحياة في الجوامع والمدارس المختلفة الى مرحلة جديدة حيوية، وبذلك يستطيع العالم الاسلامي أن يمود السبي قوته ويتخلص من الاحتلال الغربي وسيطرة الباطليات في تونس

(١) :- أبو القاسم الشابي - شاعر الحب والثورة - لرجاء النقاش .

أسرة محمد علي في مصر والأتراك في سوريا ولبنان .

ودارت المناقشات الواسعة بين الشيخ محمد عبده ومشايع جامع الزيتونة وهو الجامع الذي كان وما يزال يقوم بدور الأزهر في مصر وكان لهذه المناقشات أثرها الكبير في تونس من الناحية الفكرية والسياسية ولا بد من الإشارة هنا الى ظاهرة رئيسية من الظواهر المهمة والرئيسية في أوائل هذا القرن وهي أن الثائر في معظم الأحوال في الوطن العربي كلسه في تلك المرحلة كان ثائرا دينيا ، وهناك أكثر من سبب لهذه الظاهرة . ففي معظم البلاد العربية كانت الثورة موجهة ضد الغرب مما كان يجعل هذه البلاد تتجه الى فكرة الخلافة الاسلامية ، كرمز للكفاح ضد أوروبا .

فهذه الخلافة من الناحية الشكلية على الأقل - هي التي توحد المسلمين ، وتجعل لهم شخصية قوية في مواجهة الاستعمار الفرنسي خاصة ، والأوروبي عامة ، فقد كان المعنى الأول لهجوم الاستعمار الفرنسي على البلاد العربية ، هو معنى القضاء على المسلمين والحضارة الاسلامية ، مما جعل خروج الثائر من منطف الثقافة الاسلامية أمرا ضروريا وملائما لروح تلك المرحلة ، أي أواخر القرن الماضي وأوائل القرن العشرين ، وحتى الثورة المصرية سنة ١٩١٦م كانت تهدف الى اقامة خلافة اسلامية عربية في وجه الخلافة التركية ، ونستطيع أن نجد قائمة طويلة من الثوار في الوطن العربي في تلك الفترة ، كان الأساس في تكوينهم هو الثقافة الدينية مثل : الأفطاني ، محمد عبده ، والكواكبي ، والنديم ، وعبد العزيز جاويش ، وابن باديس وغيرهم .

كذلك لم يكن للمغرب ثقافة سوى الثقافة الاسلامية ، ولم يعرفوا الثقافة الغربية الا في نطاق محدود ولم تتكون لهم بعد ثقافة جديدة معاصرة ، (١) ولذلك لجأوا الي بيتهم الوحيد الذي يملكونه وهو التراث العربي والاسلامي . . . وكان المغرب بحاجة الى قوة معنوية تسندهم في صراعهم ، ولم يكن لهم قوة معنوية سوى الاسلام ، وقد تجسدت الثقافة العربية وروح الحضارة العربية حتى ذلك الوقت في شيء واحد وهو الاسلام ، وفي تلك المرحلة فقد المغرب كل شيء على التقريب ، فقد كانت أنظمة الحكم متخلفة رجعية ، وكان الاستعمار مرتبكا يقوم على أسس واهية ، ومن هنا لم يكن أمام المغرب أي محاولة لليقظة أو الثورة الا أن يهودوا الى تراثهم الاسلامي القديم ، الذي يستمدون منه قوة وعزما على التقدم والتحريك الى الأمام ، فلقد كان الواقع الذي يعيشون فيه فاسدا لا يحمل أي نوع من أنواع الالهام الحضاري والانساني وهنا نجد ظاهرة جديدة بالملاحظة ، فنزعة الوحدة كانت تشيع في العالم الاسلامي والعربي منه خاصة في ذلك الحين ، وكان الأساس الوحيد الظاهر لهذه الوحدة هو الأساس الاسلامي وقد ظلت البذرة الفكرية للوحدة العربية كما هي ، ولكنها تطورت وفتحت وأصبح أساسها الآن هو الأساس القومي بمعناه المصري ، معنى الاشتراك في التاريخ والمصلحة والمستقبل .

كذلك كانت الأفكار الدينية في القرن العشرين ، متغلغلة في عقول الناس وقلوبهم حتى أصبح من الضروري أن يبدأ كل شيء بهذه العبارة المباركة بسم الله الرحمن الرحيم

(١) - أبو القاسم الشابي - شاعر الحب والثورة - لرجاء النقاش .

كان لابد أن يبدأ كل شئٍ بها حتى الثورة نفسها كان لابد أن تبدأ بهذه العبارة ، وبالفعل بدأت الثورة على يد هؤلاء الدينيين ، وكانت البداية هي الدعوة الى بعث الاسلام وتجديده الثقافة الاسلامية لكي يستطيع العرب أن يتلاءموا مع العصر الحديث ويجدوا قوة تسمح لهم بمواجهة التحدي الوافد اليهم من وراء البحار من الغرب .

وظهر جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وكانت أهدافها ثورية اصلاحية ولكن من خلال الدين ، وقد جدد جمال الدين الأفغاني أهدافه وأهداف الثوار في ذلك العصر في فكرتين رئيسيتين : الفكرة الأولى هي محاربة الخرافات التي انتشرت في حياة الجماهير عقليا وواقميا أما الفكرة الثانية فهي الاهتمام باقامة العقيدة على أساس النزعة العقلية لا النزعة الفيبية وكانت هذه الفكرة الأخيرة تهدف الى القضاء على العداة التقليدية السوروث الذي تراكم خلال أجيال طويلة بين العقل والدين ، وبالتالي بين الحضارة الحديثة وبين العقيدة الاسلامية في صورها المختلفة ، لقد كانت هذه الفكرة الثورية تهدف الى اعادة ايمان المجتمع العربي الاسلامي بالعقل ، وفسح المجال أمامه للابتكار والعمل بمد أن كانت الروح المسيطرة على الحياة هي روح التسليم بالواقع وعدم القدرة على تفسير هذا الواقع باعتباره صورة من صور ارادة عليا لا تقبل المناقشة أو التمرد .

وقد كان من تأثير هذه الحركة الفكرية الجديدة التي قادها جمال الدين الأفغاني ، وحملها معه محمد عبده الى تونس في رحلته الأولى سنة ١٨٨٥ م ثم في رحلته الثانية سنة ١٩٠٣ م ، أن قامت جمعيات فكرية عديدة تدعو الى التجديد والتطور ، وكان أبرز هذه الجمعيات وأكثرها تأثيرا على حياة تونس الفكرية هي " جمعية قداماء الصادقية " التي نادت بالأفكار التحررية الجديدة ، ودعت بقوة الى الأخذ بمبادئ الحضارة المصرية ، وكان الشابي عضوا في هذه الجمعية حيث ألقى بها محاضراته الهامة " عن الخيال الشعري عند العرب " (٢) .

الشعر في تونس في حياة الشابي .

كان الشعر الشائع هو ذلك الوصول الجذور بالمدرسة القديمة في أغراضها وتعاييرها واعتادوا على التزويق في الشعور ، فكان الشعراء طبعه مكررة ، لا يتفرد شاعر منهم بمزية ، ولا يصرّف بخاصة من الخصائص ولا ينكر بمذهب من المذاهب في الحياة ، أو بموقف من المواقف الاجتماعية حفلة من الحفلات ، أو سهرة من السهرات كافية لأن تهزهم ، فتبعت فيهم أصواتا خامدة خافتة كأنها تبعت من وراء القبور ، أما الحياة في محيطها العام الشامل ، أما الفهم الصحيح لرسالة الشعر ، ومكانة الشاعر فذلك شئٍ ظل بعيدا عن فهم أولئك الساعثرين في قافلة الأجيال القديمة التي تضرب على غير هدى ، ولم تكن تونس فقيرة الى المزاج الشاعر ، ولكنها كانت فقيرة الى الشعر الصحيح ، حتى اذا جاء هذا الفريد " أبو القاسم الشابي " ورفع ذكرها في كل مكان ، وجعل من روحها تيارا متدفقا هادرا في محيط الأدب الحديث .

ولم يكن الشعر في تونس مؤهلا للمشاركة الواعية ، لأن أغلب الشعراء كانوا يعيشون على التقليد ، حتى اذا انطلق هذا الفريد يحمل خصائص الذاتية المتفردة الأصيلة ، رأوا في نبوغه

(١) أبو القاسم الشابي — شاعر الحب والثورة — لرجاء النقاش .

(٢) أبو القاسم الشابي — شاعر الحب والثورة — لرجاء النقاش .

المثفردة الأصلية رأوا في نبوغه خطراً على مجدهم وشهرتهم ففتنواوا لكفاحه ومحاربتة .

وكانت الحركة الأدبية الجديدة متمثلة في شبيبة واعية اطلعت على الأدب الغربي وتابعت نهضة الأدب

العربي الحديث وكانت تنهم في نهم شديد كل ما يصل إليها من ثقافات الغرب والشرق ، وتجد في نفسها استجابة الى الدعوات القائمة في الشرق من العربي ، ضادية بالتجديد ، وكان حتماً أن تجد هذه الدعوات طريقها الى المجتمع المصري ، فهو لا يتجزأ من الكيان العربي ، فاعتنقها الشباب وكانوا ممن دعواتها وأنصارها . فقد راعهم الخمود الأدبي ، والمهم ألا يكون لبلادهم مشاركة واعية في الحاشرة كما كانت لها في الماضي ، فاندفعوا في قوة وعزم الى تصحيح المفاهيم الأدبية ، وكانت مهمة عسيرة فليس من أسسر من النهوض بالتجديد . ومحاولة اصلاح الأدب ، معناها اصلاح الأمة كما يقول العقاد ، نلمس ذلك فيما وجّه من نقداً صائبة الى فنون الأدب ، ويهمننا منها ، بنوع خاص ، الشعر الذي كان يشكو تخلفاً في الروح ، ويمد به عن مجارة التيار العربي في الشرق . (١)

وفي هذا يقول الأستاذ الحليوى : " شعراؤنا كثيرون لاجرم ، ولكن معظم شعرهم مشكوك في قيمته ، متنافس في نفسه وليس يحسر على النقد أن يطلع على زيفه ، ويبرهن على خلوه - الآ القليل - من الاحساس والشعور ، واقفاره من الماطفة والخيال . وليس يعنيه أن يتركه - بمد عرشه على المحك - كوما من الألفاظ والأوزان ، وهشيماً من التقاطيع والتفصيلات .

علم الله أننا لا زلنا بعداء عن الأدب الحيّ القويّ ، الذي يصدر عن القلب ، ويدخل الى القلب ، ويمتزج باللحم والدم ، ويهزّ النفس هزاً ويدقها ، وهما نحن أولاء ، تشتاق قلوبنا للشعر الصادق الحيّ ، فلا نظفر به الآ في دواوين معلومة للشعراء الأقدمين ، وهما نحن أولاء ، تتوق نفوسنا الى الشعر الوطني الحماشي ، فنستعيره من شعراء الشرق الذين خاضوا بحره ، وصارعوا موجة المتلاطم ، حين رماهم القدر بالنكبات والأرزاء ، وساق اليهم عادي الدهر ، الأحداث الهائلة والخطوب الجسام ، فقاوموا المحتلين ، وتغنّوا بالحرية ، وحلموا بالوحدة العربية " (٢) .

ولعل أفدح ما كان يشكوه الشعر حين ذاك ، ضعف الايمان به كقضية فنية ، يستحق الحياة من أجلها ، والتفرغ لها كما يتفرغ المابيد المتصوف لعبادة ربه .

تلك هي طريق النبوغ ويهنا يقول الشابي : (٣)

" . . الحقيقة أنهم ما زالوا يعيدون عن الحياة في فنهم ، حياة رفيعة سامية ، والاندماج

فيه بكل ما لهم من روح وحس وتفكير وخيال ، حتى ينطبع شعر كل واحد منهم بطابعه الذي لا يشاركه فيه غيره ، وما برحوا ينظرون اليه ككافلة من نوافل النفس ، لا ضرورة

(١) - الشابي وجبران - خليفه محمد التليسي .

(٢) - الشابي - كتاب البحث - الأستاذ الحليوى .

(٣) - الشابي وجبران - خليفه محمد التليسي .

من ضروراتها، ولهو ساذج يتسلى به المرء في سآئه الوحدة وملل الفراغ، لا جسد صارم يتصل بلعمق أعماق الحياة، ومن ثم كانوا لا ينحسرونه ما يجب ليه (١) من التقدير والاحترام ولا يتحرجون أن يسفّوه إلى صفائر الأشياء وسخافاتهما. وأكاد أجزم أن العربية في شعرها الحديث لم تعرف شاعرا اتخذ من الشعر قضية يعيش من أجلها كما اتخذها الشابي، وذلك سر من أعظم أسرار الشهرة التي يتمتع بها في أدبه، والتي تهبط له مكانا في كل قلب. فقد كان صادق الشعور، صادق التعبير عما يخلج في نفسه، وكان أميناً في حمل الرسالة الأدبية الفنية الرفيعة حتى تضخم إيمانه بها. (٢) وتقول نازك الملائكة:

" وكادت العواطف عنده تصبح رضا ناهشا، فعاشر الشاعر يلهث وأتمعه الشعر حتى قتله، إن الشعر كان هو المثل الأكبر في حياة هذا الشاعر المشتمل، ومن أجله عاشر يتعذب بكل جمال يمر به، وإن كان عذابه لذيذا". (٣) وذلك واضح في كثرة ما ناجى به الشعر الذي أحبه حبا عميقا، وحياة شعرية هي عندي صورة من حياة أهل الخلود.

ويقول من قصيدته " مناجاه" التي تكشف عن مقدار تقديسه للشعر الذي يتحساه في الصباح (٤) لينسى ما تقضى في أمسه الفقود، ويناجيه في المساء ليلهو بحمياه عن ظلام الوجود، وليس يهمه، بعد أن يمر عما في نفسه أن يزدري الناس أفانيه:

فيك ما في الوجود، حبّ بنو الدنيا أم لم يجهو قصيدي
فسواء على الورود أفي الفسدران فاحت أم بين نهدٍ وجيدٍ

=====

=====

=====

=====

=====

=

(١) :- الشابي كعاج الشابي - الأستاذ كرو - ص ٤٨.

(٢) :- الشابي وجبران - خليفه محمد التليسي.

(٣) :- نازك الملائكة - الآساب البيروتية - يوليو سنة ١٩٥٤ م.

(٤) :- الشابي وجبران - خليفه محمد التليسي.

(السبب الأول)

حياة الشابي ومولده :

ولد أبو القاسم الشابي ، كما يقول زين العابدين السنوسي ، يوم الأربعاء الثالث من شهر صفر سنة ١٣٢٧ هـ الموافق الرابع والعشرين من شباط عام ١٩٠٩م (١) في بلدة تَوَزَّر . أما أمين الشابي فإنه اكتفى بذكر العام الميلادي فقط سنة ١٩٠٩م في مقدمة أغاني الحياة " ص ٨ " . أما عامر غنيمه فيرى أن هذا التاريخ عرفي لا يستند الى سجل رسمي أو مصدر موثوق به ، أما الشاعر نفسه فقد رضى بتاريخ نشر في حياته ، وهو التاريخ الذي نشره زين العابدين السنوسي ومصدره مجهول ، أما عمر فروخ فيقول انه سأل أسرة الشاعر عن تاريخ مولد الشاعر فقيل له انه ولد حوالي المولد النبوي سنة ١٣٢٧ هـ ، والمولد النبوي في تلك السنة يوافق يوم ٣ نيسان سنة ١٩٠٩م . وعلى كل حال فإن مولد أبو القاسم كان في عام ١٩٠٩م ما بين ٢٤ شباط و ٣ نيسان ، مع أن أبو القاسم محمد كرويوخ مولد الشابي في آذار سنة ١٩٠٩م (٢) .

لم ينشأ الشابي بمسقط رأسه ، فقد خرج عنه في السنة الأولى من عمره حينما بدأ أبوه الطواف بالآفاق للحاق بالبلدان التي كان يُعِين فيها للقضاء ، ولقد كان لهذا الطواف الذي استمر عشرين عاما أثره على الشابي الضعيف ، إذ أن هذا التنقل حرمه من الاستقرار في مدرسة واحدة ، كما عرّف هذا التنقل ذلك الناشئ الصغير ، النحيف الجسم المديد القامة السريع الانفعال ، على جميع أنواع المناخ في القطر التونسي ، من حر مدينة قابس الساحلية الى برد الجبال المرتفعة ، وكذلك طبع هذا التنقل نفس الشابي الفضة بآثار الحياة الاجتماعية المختلفة الموجودة في القطر التونسي كما غذى خياله المتوثب بالمشاهد الطبيعية الرائعة ، وخبّنت في ذاكرته الواعية تلك الصور المتنافرة في البيئة التونسية الفنية في كثير من مرافقها الطبيعية والمتخلّفة في عدد من انواحي حياتها الحضارية والثقافية ، على أن هسهذه كلها قد علت في تضخم تجربته وتدفق شاعريته فيما بعد . (٣)

دراسته :

بدأ أبوه في تعليمه بادخاله احدى المدارس التقليدية " الكتاتيب " وهو في الخامسة من عمره ، وكان أبوه يحرص بشدة على تحفيظه القرآن ، ولقد حقق الشابي حرص والده فما أن بلغ التاسعة من عمره حتى كان قد أتم حفظ القرآن بكامله حفظا تاما ، ثم أخذ والده يعلمه بنفسه أصول العربية ومبادئ العلوم الأخرى حتى بلغ الحادية عشرة .

- (١) الأدب التونسي " ص ٢٠٨ " ، السنوسي " ص ١١ " .
- (٢) الشابي - حياته وشعره - أبو القاسم محمد كرو .
- (٣) الشابي - شاعر الحب والحياة - عمر فروخ .

وفي ١١/١٠/١٩٢٠ م وهو بعد في الثانية عشرة من عمره ، أرسله والديه إلى العاصمة التونسية حيث تم التحاقه بالكلية الزيتونية ، واستمر يدرس بها العلوم الدينية واللغوية حتى تخرج فيها (١) سنة ١٩٢٨ م نائلاً شهادة التطويب وهي أرفع شهاداتها الممنوحة في ذلك الحين وعلى أثر تخرجه من الزيتونة عام ١٩٢٨ م التحق بمدرسة الحقوق التونسية ، فتخرج منها سنة ١٩٣٠ م وخلال السنوات الثلاث الأخيرة من دراسته ، بذل الشابي نشاطاً أدبياً واجتماعياً كبيراً ، فقاد حركة طلاب الزيتونة التي كانت تهدف إلى إصلاح - مناهج التعليم والإدارة في الكلية ، وترغيبهم عن الدروس وترأس لجنّتهم وسير أعمالها بوطنية أعجب بها الجميع .

موت والده :

لقد تعرض الشابي لأحداث ونكبات هزت كيانه وعكرت صفو حياته ، وكان فسي طلبتها موت والده في الثامن من شهر أيلول " سبتمبر سنة ١٩٢٩ م " وموت والده تغيرت حياته تغيراً تاماً وأحدث ذلك في نفسه صدمة عنيفة هائلة ، طفحت بهبها قسطه في ألم حاد وبأس مرير .

فقد كان أبوه يقوم نحوه بكل حاجاته ، ويوفر له راحته ورفاهيته وهناك ، فإذا بذلك كله ينهار مرة واحدة ، وإذا هو مشغول عن كل ما خلفه والده في الحياة ، من أم ثكلى وأبناء صغار إلى أملاك مبعثرة هنا وهناك ، وفوق ذلك تبعات لا تعد أمام ضميرة وأمام القانون .

مرضه :

وثاني النكبات التي أصابت الشابي هي المرض ، ذلك أن الألم الجارف والبأس العنيف وتلك الأتعاب والمسؤوليات التي خلفها والده ، ما لبثت أن فعلت في جسمه النحيل فملها الخبيث ، فأصيب بدهاء تنخم القلب الذي عانى منه أشد أنواع المرارة وأقسى ضروب العذاب وعرض نفسه على كل طبيب أخصائي بتونس فكانوا جميعاً متفقين على أمرين اثنين مع علاج بالأدوية مستديم :

أولهما : أن يكف عن إرهاق نفسه بالكتابة والقراءة .

وثانيهما : أن يعيش في المناطق الجبلية والطبيعية حيث الغابات والينابيع والوديان والأنهار ، فمضى الشاعر يجوب صيفا وشتاء مناطق تونس الطبيعية الجميلة ذات المصائف الفاتحة والمشاتي الرائعة . فمن بلاد الجريد إلى زفوان ومن عين دراهم إلى المشروحة (١) وقد عاش ثلاث سنوات وحيدا بين أشجارها وأنهارها (٢) يتفنى مع الأطيوار بحبه ويناجي النجوم بأمانيه ويحنو على الورود

(١) تقع في ولاية قسنطينة بالجزائر .

(٢) أبو القاسم محمد كرو - الشابي حياته وشعره .

والأوهار وبطرب لخرير المياه وحقيق الأفضان ، وفي هذه الفترة أخرج الشايبى أجمل
 قملدة الخالدة فى وصف الطبيعة والجمال ، وسحر الوجود وحب الحياة .
 وقد ثار حول مرضه جدل عريض بين المترجمين والدارسين للشايبى ، فمنهم
 من أعلن سهوا أنه مات مسلولا كما فعلت الشاعرة : نازك الملائكة فى بحث لها
 " الشعر والموت " (١) . وأبو القاسم محمد بدرى فى كتابه الشاعران المتشابهان
 " الشايبى والتيجانى " ص ١٦ ، وعبدالسميع المصرى فى مجلة الرسالة الجديدة (٢)
 والشيخ محمد الفاضل بن عاشور فى كتابه الحركة الأدبية والفكرية فى تونس (٣) ،
 ولقد سبق هؤلاء جميعا فى اعتقادهم هنا الأستاذ محمد فهى فى كتابه " الروائع
 لشعراء الجيل " اذا قدم مجموعة من قصائد الشايبى بكلمة موجزة ذكر فيها أن
 الشايبى مات مسلولا .

أما أبو القاسم محمد كروفقد قدم وثائق تثبت أن الشايبى مرض بالقلب ، ونسبى
 طلبه هذه الوثائق نصوص تركها الشايبى بقلمه تدل بكل وضوح على حقيقة مرضه
 ونوعه وتأثره البارز فى حياته وأدبه ، ثم بحث جيد عن حياة الشايبى قام به الأستاذ
 محمد عامر فديرة مستندا فيه الى مجموعة من الأسانيد والوثائق وقد اطلع أيضا
 على أن بطاقة المستشفى التى مات فيها الشايبى ، كذلك اتصل الدكتور محمد فريد
 غازى (٤) بطبيب الشايبى الخاص الدكتور محمود العاطرى واستمد منه معلومات مهمة
 ونشبت هنا أهم ما جاء فى البحثين .

أولا : بحث الدكتور محمد فريد غازى :

يقول غازى : " العناصر الأولى التى نجدتها تبرهن عند الشايبى على مرضه موجسودة
 فى يومياته قبل كل شئ ، ثم نجد أهداء متنوعه فى شعره . وصفحات يومياته التى كتبها
 دون تصنع وبون صنعة أدبية ، بل هى فىض من روحه واندفاع من قريحته ، هى الكنز
 الثمين وهى تكشف لك أن طور نبوغ الشايبى الذى أذهب به من سنة ١٩٢٩م الى
 سنة ١٧٣٤م ، أى خمس سنوات كان فى نفس الوقت ، طور مرضه الذى دام هو أيضا
 من خمس سنوات ، وستكون حياته فى نفس الوقت ، حياة الرجل المريض ، وحياة الشاعر
 الخصب وسيكون فى المجتمع العليل الناهقة .
 وهكذا ترى فى وضوح العلاقة البينة بين مرضه وبين عبقريته ولكن ما مرضه هذا
 ياترى ؟ .

اننا صدقنا أطباءه - وخاصة الحكيم العاطرى - قلنا ان الشايبى كان يألم من
 " ضيق الأذينة القلبية " أى أن دوران دمه الرئوى لم يكمن كافيا . ولو تعمقت
 طبيا فى مرضه هذا لعلمت أن " ضيق الأذينة القلبية " هو ضيق أو تعب يصيب

(١) مجلة الآداب - لبنان . ص ٢٤ ع ٧ ص ٥ - ١٩٥٤/٧/٨م

(٢) القاهرة ع ١١ ص ٤٥ - ١٩٥٥/٢/٤م

(٣) منشورات جامعة الدول العربية - القاهرة ١٩٥٦م ص (١٧٨ - ١٨٠)

(٤) دكتور فى الآداب ، كثير الاهتمام بالشايبى الدراسات الاشتراكية .

مدخل الأذنينه ، وتجعل سيلان الدم في الشرايين من الأذينة اليسرى نجسو المهينة اليسرى سيلانا صعبا أو ممترها . وتقول لنا كتب الطب أن هذا المرض كثيرا ما يكون وراثيا .

وهيق القلب هذا كثيرا ما ينشأ عن برد يصيب الأعصاب والمفاصل وهو يظهر في الأقلب عند الأطفال والشبان ، ما بين العاشرة والثلاثين وخاصة عند الأحداث على وشك البلوغ .

كان الشابي ضعيف البنية ، نشأ متقلبا ولربما أصابه هذا الضيق وهو لم يزل صغير السن ضاق قلبه وضاق رثته ، فلم يعد يتنفس تنفسا عاليا ، أضف الى هذا تعب مستترا يصيب البدن وينهكه دون أن يقوم الجسد بأى عمل . ولكن أهم ما في المرض ، أنه يغير نفسية المريض وهو أمر مهم جدا اذا كان المريض كاتباً أو شاعراً أو أدبياً أو رساما أو موسيقارا أو نحاتا أو مخرجا مسرحيا أو سينمائيا أي انا كان فنانا حقيقيا .

كان الضيق القلبي اذا هو الضربة الأولى التي أصابت روحه ، فمنعه أطباؤه من الجري واللعب بالكرة ، ومن السباحة ، فاذا أراد أن يقفل لاعبا مع رفاقه أو أن يسبح مع أصدقائه في أمواج البحر صيفا أو أن يتسلق " الجبل المكمل بالصنوبر والصخور " كما يقول في الجنة الضائعة ، وجد نفسه محروما من ذلك . هكذا قرر الطبيب وهكذا قامت في حياته النفسانية الحواجز تسد طريقه وتطفى " بالسواد آفاقه . هكذا تدخل عليه نفسية هي نفسية المريض تلون نفسه باليأس والأسى والتجربم فاذا به كما قال " الشقي الذي ضاقت به رقعة الفضاء المترامي " ، فيحس احساسا مؤلما أنه غريب عن هذه الدنيا .

وأجدد بنا أن نضفي لشعور الشباب المريض مرضه (١)

" أشعر اليوم بفتور في بدني ، وتوعك في مزاجي لا أدري مأثاه ، وأحس بكآبسة صيقة ، تستحوذ على مشاعري ، وتقبض على قلبي وتجعلني أكره الكتب والأسفار والمحابر والأقلام .

لا أريد أن أذكر أكثر ما ذكرت لأنني أرى النوم يغالبنني ، والاعياء يدافمنني الى للناس " .

لقد كان للشابي ادراك الرجل الواعي بصييته ، فقد جاء في يومياته (٢) :

" اعتزمت الذهاب الى حديقة البلفيدير صحبة رفيق لي ، فبريت القلم وأعددت القرطاس وتأهطت كتابا عسى أن تحدثني . نفسي من أفكار ، أو يفيض به القلب من عواطف ، لأنني لا أعلم متى تطفى على الخواطر ، وتزحم على الذكرى وتتهال على الأفكار انهيمالا . قرب نظرة

(١) يوميات يوم الثلاثاء - ١٤ جانفي .

(٢) يوميات يوم الخميس ١٦ جانفي .



..... فخرجنا جميعا ، وطلتنا نسير سوية ، ولما وصلنا مفترق الطرق انطلقنا الى الكوفة الى أين نذهب . فقلنا الى البليدير . فلزموا علينا أن نرافقهم الى أين يذهبون فقلنا : وما هي النهاية ؟ فقال أحدهم : انها مقهاق بعيدة عن صخب المدينة وضوضائها ، قريبة من البرية ، مكتنفة بالأشجار الجبلية والمشاهد المسبية . فاستهوانى الوصف ورافقهم وما هي الا سلعة حتى كنا نسير بين المزارع التي تداعب الشمس أعشابها ، وكانت مشاهد كثيرة متباينة :

ها هنا صبية يلعبون بين الحثول ، وهناك طائفة من الشبان الزيتونى والمدرسي يرتاهون فى الهواء الطلق ، والسهل الجميل . ومن لى بأن أكون مثلهم ؟ ولكن أنى لى ذلك ، والطبيب يحذر على ذلك لأن بقلبي ضمفا.. آه ! يا قلىبى ! أنت مبعث آلامى ، ومستودع أحزاني ، وأنت ظلمة الأسى التي تطفى على حياتى الممنوية والخارجية .

هذه حالة نفسية صاحب الشايبى منذ سنة ١٩٣٠ م كما اننا اكتشفناه فى يومياتهم . وعلينا أن نتابع أثرها ، بما يقوله لنا علماء النفس ، لئلا نرى مع هنرى كلود أن " الأسى الناتج عن ضيق القلب ، يثير فى المريض قلقا مستمرا - ينتهى دائما بالشعور بتمتع عام يجعل المريض يقبض بنفسه بعيدا عن الوسط الذى يحيط به " وهذا القلق النفسى الدائم وهذه الأزمة ، نجدها قبل كل شئ فى يومياته ، وفى شعره فنحن كثيرا مانجد كلمة القلب أو " يا قلىبى " فى عناوين قصائده نجد " الى قلىبى التائه " و " أكثرت يا قلىبى " فاذا تروم ؟ " و " قال للاله " و " قلب الشاعر " وليس كلمة القلب رمزا جميلا فقط ورمزا ابداعيا وحسب بل هى أيضا تعبير نفسانى - نظمه لا شعوريا غالبا - عن مرضى الشاعر . وان نحن نشك أن تكون القصائد التي ذكرناها ، ملامح صادقة لمرضه ، فلا يشك الشايبى من أن قصيدة " الأبد الصغير " وقصيدة " نشيد الجبار " وهكذا غنى برو شيوس بمستوحيتي من مرضه .

هذا ويذكر أبو القاسم محمد كروفى كتابه الشايبى أنيه أعلن فى جريدة الصباح التونسية عدد ١٩٥٥/٩/٢٣ م مقالا عن مرض الشايبى جاء فيه :

..... ان الثابت من جميع الوثائق والأخبار المسجلة أن الشايبى كان مصابا بمرض القلب ، وهذا يؤكد لنا كثرة توجع الشايبى من قلبه ، وتفنيه به ، وجعله عنوانا لقصائد كثيرة ، منها " قلب الشاعر " و " قلب الأم " و " الأبد الصغير " و " قال قلىبى للإله " و " طأتم القلب " و " أغنية الأم " .

هذا ونقدم فقرات من رسالة بحث بها الشايبى الى صديقه الأستاذ محمد الحلوى وفيها يتحدث عن مرض قلبه حديثا بنفى جميع المزاعم والظنون حول مرضه . وهذا نصها :
..... لقد اشتد الضعف على قلىبى فى هاته المدة الأخيرة ما أوجب معه الطبيب على حرمانى من الأعمال الفكرية ، لافرق بين مطالعة أو تحضير أو كتابة

لا تألم يا صديقي لأخيك ، فان قلبي هو منبع الآسى في هذا العالم ومن يدري ؟ لعل له سيكون منهما
لمثل هاتيه الآلام في عالم آخر . ان قلبي يا صديقي هو منبع الآسى هاتيه النفس التائهة
الصعذية ، وهذا الجسد المعنى المنهوك ، وما دمت أحمل بين جنبي هذا القلب الكسير وما
دامت الحياة تهتد منه ولا ترحم ، فانني أشقى الناس بل أشقى أبنائها .

ويقول له من رسالة أخرى أوردها أبو القاسم محمد كرو في كتابه الشابي جاء فيها :

.. أنا في ساحة تمصف بها الهموم وتنمقد من فوقها الأحزان ، وتخر عليها أمواج الدموع ،

ان استمعت الى نفسي لم ألق إلا الأسى يهكي ، أو أصخت الى قلبي لم أسمع إلا النحيب ، أو

قلبت طرفي فيما حولي لم أهر إلا ظلمات تتدجى من فوقها ظلمات . . . ان قلبي الراج
بهموم البشر لأضعف من أن يضطلع بكل ما في هذه الدنيا من مصائب .

ولعل القول الفصل في موضوع مرض الشابي يرجع الى تقرير المستشفى التي مات فيها

وينقلها أبو القاسم كرو عن الأستاذ عامر غدیره ، الذي قدم لها بتفاصيل مدققة عن

مرض الشابي ، يقول غدیره :

.. وفي نفس المدة - بين سنة ١٩٢٨م و ١٩٣٠م - يقوم مشكل آخر يربطه كثير من الأبياء

بالمشكل السابق وهذا المشكل لا يقل عن الأول صعوبة وأهمية وهو مشكل الطلة

التي مات فيها الشابي منها ، غير أن البحث العلمي سيمكننا في هذه البرة من التفت

في القضية بالقول الفصل كما سترآه بمد حين .

نحن نعلم أن المشكل مصاب ، يشكو علقته في أثناء كل ذلك ، ويختلف الى

الأطباء ، ونحن نعلم أيضا أنه انتهى من دراسته الزيتونية والحقوقية ولم

يحاول الارتزاق بشهادته ثم أننا نعلم أنه يكتب كثيرا في سنة ١٩٣٠م ، وسنة

١٩٣١م ، وأنه يستقر بالشابية ويقضي صيف سنة ١٩٣٢م مع أخيه الصغير الأمين بعين دراهم

ثم هو يعود الى توزر ويرتحل في صيف ١٩٣٣م الى المشروحة من أرض الجزائر ، ثم يذهب الى تونس

ويلتحق منها بمسقط رأسه ، وهو في هذه المدة يشرع في عمل ديوانه ممانا .

ويقضي أبو القاسم الشتاء بتوزر ، وفي شهر رمضان سنة ١٣٥٢هـ (أو آخر كانون الأول سنة ١٩٣٣م وأوائل

كانون الثاني سنة ١٩٣٤م) يعاوده المرض بصفة ألم وأشد من ذي قبل ، فيلازم الفراش مدة ، ويبر الشتاء

وبرده ويأتي ربيع جديد فيذهب أبو القاسم الى الحامة طالبا الراحة والشفاء من داءه المجهول ، وفي

أثناء ذلك يظهر بصفة غير واضحة بمدينة طبرق . فيتحدث الى الزعيم السياسي صفر ويكتب

قصيدته المشهورة :

إذا الشعب يوما أراد الحياة . . . فلا بد أن يستجيب القدر

ثم هو ينحدر من توزر الى تونس يوم (٢٦ / ٨ / ١٩٣٤م) وينزل أولا ببعض فنادق العاصمة ثم يستقر في

سبتير بضاحية الأريانة . أقول يستقر وفي الحقيقة نجده في نفس تلك الضائفة مورا

بحمام الأنف مع الميدين مازيغ والسنوسي .

ويمر شهر سبتمبر وتتابع الأيام والناس يتساءلون عن علته : أداه السل أم مرض القلب ؟ ونحن كما ذكرنا سابقا - لنحقق بصفة واضحة علمية علته أبي القاسم وظروف وفاته - أن نذهب الى المستشفى الذي ذكر لنا أنه مات به ، وأن نفتش عن ملفه ان كان له ملف .

وقصدنا المستشفى ويسمى مستشفى الحبيب ثامر فانا نصير بالاطالنية * كان المستشفى في ذلك العهد يسمى مستشفى الظليان * يخص الشابي وهذا تمريره .
* أبو القاسم الشابي تحت عدد ٢٥٦٧ .

المصر : ٢٦ سنة * ذلك أنه يحسب حسابا هجريا من ١٣٢٧ هـ الى ١٣٥٣ هـ الدين : الاسلام .
الحالة : متزوج .
السكن : الاربانة .

تاريخ دخول المستشفى : ٣ من أكتوبر * تشرين الأول * سنة ١٩٣٤ م .
الفحص الطبي : مرض القلب .

تاريخ الوفاة : ٩ من أكتوبر * تشرين الأول * سنة ١٩٣٤ م . (١) .
ويضيف أبو القاسم محمد كرو في كتابه آثار الشابي وصداه : في الشرق ، أن وفاة الشابي كانت يوم الاثنين بتاريخ ٩/١٠/١٩٣٤ م ، وكان بجواره لحظة وفاته شقيقه ، وقيل لم يكن معه أحد . وفي التالي نقل جثمانه الى مسقط رأسه حيث دفن ببلدة الشابية حيث رأى النور أول مرة .

وفي عام ١٩٤٦ م تبرع الأديباء التونسيون ببناء ضريح له ، واحاطته بسياج ، وقيد على ذلك " روضة الشابي " وكتبت لوحة من رخام على قبرة عليها تاريخ الميلاد والوفاة وبميتان من الشمع ، وجعلت لوحة أخرى في يمين باب الروضة . وقد احتفل الأديباء التونسيون بتدشين روضة الشابي ، فأقاموا حول قبره مهرجانا أديبيا كان الأول من نوعه . (٢) .

هذا ويتفق عمر فروخ مع أبو القاسم كرو في التاريخ المحدد ليوم وفاة الشابي ودفنه كما يتفق معه أيضا أن الشابي كان مريضا في القلب كما ثبت له من أطباء الشابي التونسيين والفرنسيين . (٣) .

ومن هنا نلاحظ أنه ثبت باليقين أن الشابي كان مريضا بالقلب وليس بالسل كما ذكر بعض الباحثين .

-
- (١) الشابي حياته وشعره - أبو القاسم محمد كرو .
 - (٢) آثار الشابي وصداه في الشرق - أبو القاسم محمد كرو .
 - (٣) الشابي - شاعر الحب والحياة - عمر فروخ .

زواج الشابي :

كان والد الشابي قد رغب إليه في أن يتزوج ، فلم يجد أبو القاسم الشابي للتوفيق بين رغبة والده وبين مقتضيات حالته الصحية ، بدأ من أن يستشير طبيها في ذلك ، وذهب الشابي برفقة صديقه زين العابدين السنوسي لا استشارة الدكتور محمود الماطري وهو من نطس الأطباء في تونس ، ولكن لم يكن قد مضى عليه في ممارسة الطب يومذاك سوى عامين ، وبسط الدكتور الماطري للشابي حالة مرضه وحقيقة ذلك العرض ، كما ذكر له أيضا أن هنالك حالات كثيرة سببت آراء كبار الأطباء في مرض القلب .

فبر أن الدكتور الماطري حذر الشابي على كل حال من عواقب الاجهاد الفكري والبدني وبناء على أمر الدكتور الماطري واثالا لرغبة والده عزم الشابي على الزواج ، وعقد قرانه ولكن يبدو أن حياته الزوجية لم تبدأ قبل عام ١٩٣٠ م .

والده :

كان رب البيت الذي ولد فيه الشابي الشيخ محمد بن بلقاسم الشابي ، ولقد ولد محمد الشابي عام ١٢٩٦ هـ * ١٨٧٦ م * وفي عام ١٣١٩ هـ * ١٩٠١ م * ذهب الى مصر وهو في الثانية والعشرين من عمره ، ليتلقى العلم في الجامع الأزهر ، ثم انه التحق بعد عودته من الأزهر ، بجامع الزيتونة ، حيث درس عامين ونال في نهايتها اجازة التطويح وهي شهادة نهاية الدروس في الزيتونة ، وذلك في عام ١٣٢٨ هـ * ١٩١٠ م * ويبدو أن الشيخ محمد الشابي كان قد تزوج على أثر رجوعه من مصر ثم رزق ابنه البكر أبا القاسم الشابي قبل أن ينال شهادة التطويح .

قضى الشيخ محمد الشابي حياته المسلكية في القضاء بالآفاق ، ففي عام ١٣٢٨ هـ * ١٩١٠ م * عين قاضيا في سليانة ثم في قفصة في العام التالي ، ثم في قابس * ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م * ثم في جبال ناله * ١٣٣٥ هـ - ١٩١٧ م * ثم في مجاز الباب * ١٣٣٧ هـ - ١٩١٨ م * ثم في رأس الجبل * ١٣٤٣ هـ - ١٩٢٤ م * . ثم انه نقل الى بلدة زغوان عام * ١٣٤٥ هـ - ١٩٢٧ م * . ومن الراجح أن يكون الشيخ محمد الشابي قد حمل معه أسرته ، وفيها بكرة أبو القاسم ، وهو يتنقل بين هذه البلدان . ويبدو أن الشابي الكبير قد بقى في زغوان الى صفر من عام ١٣٤٨ هـ * وأواخر تموز - يوليو ١٩٢٩ م * ، حينما مرض مرضه الأخير ورغب في الرجوع الى توزر ، ولم يعش الشيخ محمد الشابي طويلا بعد رجوعه الى توزر ، فقد توفي في الثامن من أيلول سبتمبر عام ١٩٢٩ م الموافق الثالث من ربيع الثاني عام ١٣٤٨ هـ .

كان الشيخ محمد الشابي رجلا صالحا يقضى يومه بين المحكمة والمسجد وفي المنزل حيث يهايط أهله ، فنشأ أبو القاسم في سنى تكوينه الفكري والخلقي ، في كنف رعايته الصالحة يقتبس من علمه وآدابه . وكان رحمه الله صادق التقى نقي العقيدة لا يخشى في الحق لومة لائم ، وكانت له غيرة على شئون المسلمين والاسلام ، تتفعل بما كان جرى آنذاك من أحداث بالشرق العربي وطرابلس الغرب أو بلاد الريف .

كانت أسرة الشيخ الشابي على شئ من اليسار من ثروة مورثة ومن راتبه كقاضى ، على أن هذا اليسار يوصف على ثلاث مراتب أكثرها اعتدالا قول محمد الحليوى (١) :
 " المعروف أن أسرة الشابي كانت أسرة ميسورة الميشر ، وكان لها بعض الفلآت فى الجريد وبعض الأراضى بجهة مجاز الباب على ما أعتقد " .

أما السيد محمد الفاضل بن عاشور فانه يتوسع فى الكلام عن هذا اليسار فيقول : (٢)
 " عاشر ، أبو القاسم الشابي فى بيئة عائلية مطمئنة محافظة نضم عليها لا تعرف البؤس ولا الحرمان " .

أما زين العابدين السنوسى فقال :

" ترعرع الشابي فى كف والده ، أسعد الولدان طفولة وأرغد هم صبي ، تعد أمامه الكماليات وتبسط له أسباب السعادة من حيث لا يحتسب " .

والسنوسى هنا يناقش قولاً آخر له يصف فيه الحال التى كان عليها الشابي فى أيام دراسته فى الزيتونة اذا يقول :

" وفوق ذلك فانى أعرفه وهو طالب يسكن بهت مدرسته ، وهو لا يأكل الا البقول

الحبوب بينما رفاقه يكرعون وينهشون شهى الشواء " . (٣) .

وخلاصة الرأى أن الشابي عاش فى أسرة ميسورة الحال رغيدة الميشر ربما كان ذلك من الأسباب التى منعت من طلب الميشر فى وظائف الدولة .

بيئة الشابي :

لِلْمَالِ الْعَرَبِيِّ جَنَاحَانِ يَتْرَامِي طَرْفَاهُمَا ، وَلَكِنْ يَشُدُّ بَيْنَهُمَا أَوَاصِرٌ مِنَ النِّسْبِ وَاللِّفَةِ وَالِدِينِ وَالتَّارِيخِ ، وَمَا زَالَ الْوَطْنُ الْعَرَبِيُّ مِنْذُ فَجَرِ الْإِسْلَامِ وَحَدَّةِ ثِقَافِيَّةِ تَقْوَمُ عَلَى وَحْدَةٍ الْعَقِيدَةِ وَاللِّفَةِ الْمَرْبِيَّةِ الْفَصْحَى ، أَمَا اخْتِلَافُ اللَّفَاتِ كَثِيرًا أَوْ قَلِيلًا ، وَالتَّقْسِيمُ السِّيَاسَى وَتَبَايُنُ الْأَحْوَالِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّذِي طَرَأَ عَلَى الْمَالِ الْعَرَبِيِّ فِي غُضُونِ تَارِيخِنَا الطَّوِيلِ وَمَا تَخَلَّلَهُ مِنَ الْمَآسَى وَالْكَوَارِثِ ، فَانْهَآ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَتَّالَ مِنْ وَحْدَةِ الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ الْمُسْتَسْكَةِ بِالْعُرْوَةِ الْوَثْقَى : وَحَدَّةِ الْعَقِيدَةِ ، وَوَحْدَةِ الدِّينِ .

والمغرب هو الجناح الأيسر من العالم العربى ، كان وما يزال أشد حرصا على هذه الوحدة ، من الناحية العلية من صِوهِ المشرق ، ومع دخول المغرب فى الاسلام عكست العربية الفصحى فى المغرب ، فزاد ذلك فى شد أواصر الوحدة بين أقطاره . وكان من نتائج ذلك رسوخ الاعتقاد بين المصارفة بأن البربر اخوان العرب هاجروا من مساكنهم من اليمن ، فى شبه جزيرة العرب كما هاجرت جميع الشعوب المنتشرة فى الوطن العربى من شبه جزيرة العرب نفسها .

(١) مجلة الفكر - ماى - ١٩٦٠ م - ص ١٩ .

(٢) الحركة الأدبية - ١٩٧٨ .

(٣) الشابي - شاعر الحب الحياة - عمر فروخ .

وأن التاريخ يعلننا أن المفارقة لم ينسوا هذه الأواصر قط ، ولم يرسم حُـبـ المشرق من قلوبهم ، فكانوا دائما يهفون الى المشرق ويتشبهون به في كل مظهر : في الأدب والثقافة والأحوال الاجتماعية ، فالخلال الحمينة التي ولدت في المشرق لا تزال راسخة الأصول في المغرب واضحة المعالم ظاهرة في كل بقعة . أما المشرق فقد مرت عليه أحياناً من الدهر نسي فيها المغرب وجهل أحواله وغفل عن حقيقة اللحمة بينهما وتعليل ذلك يبدو سهلاً : ان المغرب ظل أصفى نسباً وأبقى لغة وأقل خضوعاً حقيقياً للاستعمار ان المشرق ناء في النسب بأمشاج من الفرس والروم والنهط والفرنجه والترک ، فانتشرت فيه شعوبية جامحة في عدد من ألوار تاريخه . وكذلك اتسعت المستويات السياسية والدينية في المشرق ، ثم خلفت وراءها رواسبزعت المشرق كله بالأقلية الدينية والمذهبية وبالجماعات التي بدأت طوائف دينية ثم انقلبت الى وحدات اجتماعية مستقلة تشوه وحدة المشرق ، وتفرق جهود المشاركة في كثير من ميادين الحياة .

ومع أن المغرب قد خضع لمثل ما خضع له المشرق زمناً طويلاً ، فانه عاد ، منذ أواخر القرن الرابع الهجرى " ومطلع القرن الحادى عشر الميلادى " الى صفائه الأول : الى قطري مغربى مسلم لا يقال فيه بربرى ولا يقال فيه عسرى ، وزالت المذاهب من المغرب فلم يبق الا المذهب المالكى . على أن ثمت الى اليوم جماعة صغيرة من الاباضية الخوارج ونفسراً قليلين على المذهب الحنفى ، لا يغيرون شيئاً من صورة المغرب ، ولا نجد لسهم رأياً يخالف رأى الجماعة في السياسة والحياة . وفي العصر الحديث زاد عدد الفرنجة في المغرب عن طريق الاستعمار الأوروبى ، ولكن هؤلاء الفرنجة ظلوا الى اليوم غرباء عن المغرب لا يعدون في المفارقة : لا يحيون حياة المفارقة ولا يحيا المفارقة حياتهم الا نفراً قليلين استمالهم العالم الغربى يعيشون اليوم في المدن الساحلية ، ولكن عندما جاء الاستقلال قل عدد الفرنجة في القطر المغربى والقطر التونسى كثيراً ، وكذلك قل نفوذ المفارقة الذين تعودوا في أيام الاستعمار أن يحيوا حياة الغربيين ، في أعمالهم وبيوتهم وعواطفهم أحياناً .

والمغرب هو الزاوية الشمالية من قارة افريقيا ، وعلى هذا تبلغ مساحته ثلاثة ملايين ونصف مليون كيلومتر مربع . من أجل ذلك كان العرب اذا ذكروا هذا البسيط المتراعى قالوا : المغرب الأدنى علماً على ما يقرب منه من المشرق ، وقاعدته القيروان أو قالوا المغرب الأقصى علماً على ما بعد منه من المشرق . فالمغرب الأتى : هو الجانب الشرقى من المغرب وهو ما يعرف بالقطر التونسى ، والمغرب الأقصى هو الجانب الغربى ويعرف بالقطر المغربى " المغرب " فقط . ومع ذلك ظلت هاتان التسميتان قاصرتين عن الدلالة الدقيقة فنشأ اسم المغرب الأوسط ، منذ زمن بعيد ليبدل على الجزء الذى لا يقدر من المغرب الأدى ولا في المغرب الأقصى ، وهو الذى نسميه اليوم القطر الجزائرى أو " الجزائر "

والشابي الذي ندرسه من المغرب الأدنى من القطر التونسي . وتبلغ مساحة الجمهورية التونسية مائة وعشرين ألف كيلو مترا مربعا تنقسم ثلاثة أقسام : قسما شمالا غربيا تنتهي فيه سلطة جبال الأطلس ، وهي السلسلة التي تخترق المغرب كله من أقصاه الى أدناه ، ولذلك كانت هذه المنطقة من القطر التونسي باردة مرتفعة تكثر فيها المصائف وكانت ذات مراعي كثيرة خصبة ثم قسما ساحليا على شاطئ من الخصب في شماله ، أما جنوبه فصحراوي ، ثم قسما جنوبيا داخليا يتألف من سهول عظيمة ومراعي واسعة وواحات نخيل . وتقع جنوب هذه الواحات من النخيل صحراء افريقيا الكبرى . (١)

وفي هذا القسم الجنوبي من القطر التونسي الذي يدعى بلاد الجريد * بلاد النخيل بحيرة واسعة تدعى شط الجريد . وعلى الجانب الشمالي الغربي من هذه البحيرة تقع بلدة توزر . وتوزر بلدة قديمة مشهورة فيها نخيل كثير حولها أرياض واسعة وهي أكثر بلاد افريقيا تروا وشربها من ثلاثة أنهار ، ولا يعلم مثل أترنجها (٢) جلالا وحلاوة وعظما * ومن غواحي توزر الشابية (٣) ويبدو أنها كانت معروفة ومزدهرة فقد أنسجت للقرنين الماشر والحادي عشر للهجرة * السادس عشر والسابع عشر للميلاد * نفرا من رجال القلم ورجال السيف . وعلى مقربة من توزر شمالا ببلية اسمها الحامة أو الحمه على الأصح والحمه هي العين الحارة يستشفى بها الأعداء والمرضى ، وفي بلاد العرب حاتم كثيرة يهبط منها هنا حمه توزر أو حاتم توزر ، وكذلك نجد الى غرب توزر ، على الشاطئ الغربي من بحيرة شط الجريد قرية اسمها تقبوس .

أما تاريخ تونس الحديث ، فهو مأساة من تلك المآسي التي ما زالت تحل بالمغرب والمسلمين منذ خروج العرب من الأندلس في مفتح العصور الحديثة . لما كان السلطان سليم الأول العثماني يفتح بلاد المشرق ، كانت الدولة الحفصية في تونس قد آلت الى الضعف ، ففكر العثمانيون بفتح المغرب وفرضوا عليه حمايتهم مدة من الزمن . وأخيرا استخلصوا الأتراك المغرب عام ٩٨١ هـ " ١٥٧٢ م " فزال الاستعمار الأسباني عن تونس ، وانقرضت الدولة الحفصية .

ولم يحكم الأتراك تونس حكما مباشرا بل كانوا يُنصِّبون علميها ولاءه ، عرفوا في تاريخ تونس باسم الدايات ، وكان العمال الذين يتولون جمع الأموال يُلقبون بالبايات . وفي عام ١٠٤١ هـ " نحو ١٦٣٠ م " استطاع مراد باي أن يستبد بشئون البلاد ، ثم كتب الى الباب العالي في الأستانة بطلب لقب باشا ، فاستطاع الحصول على هذا اللقب . ومنذ ذلك الحين أصبحت تونس تحت حكم البايات ، ثم ظلت تونس يتولاها باي بعد آخر حتى عام ١١١٧ هـ " ١٧٠٥ م " حينما استطاع حسين باي الأكبر بن علي أن يجعل ولاية تونس وراثية في عقبه . فنشأت الأسرة الحسينية التي ظل أفرادها يتماقنون على عرش تونس باسم " باي " أيها الى أن تبذلت تونس بالملكية حكما جمهوريا عام ١٢٥٦ م .

كان الحكم العثماني على تونس دائما اسما ، وخصوصا بعد عام ١١١٧ هـ حينما أصبح الحكم وراثيا في الأسرة الحسينية ، على أن تونس ظلت دائما في ولائها للعثمانيين فساعدتهم

(١) الأترنج " بنم التاء والراء وسكون النون " أنواع اللبمون كالبرتقال والحمض .

(٢) يقول السنوسي " ص ١١ " : بلدة الشابة * كذا " حدوم مدينة توزر . ولكنه يقول في أماكن الشابية ولا يبعد أن تكون الشابة هي الصيغة الأصلية .

(٣) راجع خلاصة تاريخ تونس ص ٦

باسطولها البحري في حربهم مع روسيا عام ١١٨٥ هـ " ١٧٧١ م " وفي القضاء على ثورة اليونان عام ١٢٣٧ هـ " ١٨٢١ م " كما اشتركت تونس بحربها مع نوارين الى جانب العثمانيين ضد اليونان عام ١٢٤٢ هـ " ١٨٢٧ م " وفي القرم ضد روسيا عام ١٢٧٠ - ١٢٧٢ هـ " ١٨٥٤ - ١٨٥٧ م " .

ووافق طمع فرنسا بشمال افريقيا اضطرابات مختلفة في شمال افريقيا ، فاستطاعت فرنسا أن تحتل الجزائر نهائيا عام ١٢٥٣ هـ " ١٨٣٧ م " وتونس عام ١٢٩٩ هـ " ١٨٨١ م " . والاستعمار شرٌّ كره وظلم ، ألا أن لكل نوع من الاستعمار خصائصه من الشر والظلم ، فالاستعمار الفرنسي يقوم على افقار البلاد التي يستعمرها وعركها متأخرة عن ركب الحضارة ثم هو يمالئ جميع الضحايا في البلاد التي يستعمرها ، ويقهر أهل البلاد سياسيا واقتصاديا واجتماعيا . والاستعمار يكره الاسلام كرها شديدا ، ذلك لأن الاسلام دين يوحى بالعزة والكرامة ويأبى الخضوع ، ولذلك رأينا جميع المستعمرين مجتمعين على اضطهاد المسلمين في كل صقع نزله . أما سياسة فرنسا لشمال افريقيا فكانت بالفأخذ القوية ، ذلك لأن شمال افريقيا قريبة من فرنسا وترهد فرنسا أن تجعل من ممتلكاتها في ذلك الصقع مدعى حيويا لها ، وجزء تابع لها سياسيا واداريا واقتصاديا .

أما الجو الذي عاش فيه الشاهي وشهده فيمكن أن نسرد منه مايلي :

(١) كان مجلس الشورى الذي يشرف على توزيع ميزانية الدولة قاصرا على الفرنسيين ، ولم يشترك فيه التونسيون الا نحو عام ١٩٠٦ م .

(٢) حاول المجلس البلدي أن يجمع يده على مقبرة الزلاج الاسلامية " التي تشرف على تونس من الجهة الشمالية الغربية " ، ولما حاول التونسيون منع ذلك قابلهم الفرنسيون باطلاق النار ثم باعتقال عدد كبير منهم وحكموا على بعضهم بالاعدام .

(٣) اشترك في الحرب العالمية الأولى خمس وستون ألفا من التونسيين في الجيوش الفرنسية قتل منهم اثنا عشر ألفا .

(٤) في عام ١٩٣٤ م عمت الضائقة المالية ، فتظاهر التونسيون وطلبوا بالاصلاحات التي يمكن أن تنعش بلادهم فقابلهم رجال الأمن بالسلاح فجرح عدد كبير من المتظاهرين وقتل فريق آخر وقد أعلنت السلطات الفرنسية الأحكام العرفية في تونس وعطلت الصحف العربية ونسفت رؤساء حزب الدستور . ولكن المظاهرات لم تخف بل اشتد بعضها حتى تحول الى معارك دموية ، كما اتفق في مدينة بئررت في شهر كانون الثاني من عام ١٩٣٨ م .

(٥) سجلت أفضل الأراضي الزراعية باسم الدولة ثم وزعت على الفرنسيين المستوطنين في تونس وكانت الضرائب التي تجمع من الوطنيين يوزع معظمها على الفرنسيين لمساعدتهم على استثمار البلاد .

(٦) أي يشرف على الادارة التونسية نحو ثلاثين ألف موظف ثلاثة أرباعهم من الفرنسيين

(٧) أما نسبة الأطفال التونسيين الذين كانوا يذهبون الى المدارس فتبلغ نحو ١٢ ٪ مقابل ٨٧ ٪ من الأطفال الفرنسيين .

٨) ظلت آمال التونسيين تملو وتتخفى وتتقلب بحسب الحكومات الفرنسية بباريس . وفى عام ١٩٣٨ م استمد حزب الدستور التونسى لصراع واسع النطاق مع السلطات الفرنسية كان من نتائجه أن زج بحوالى ألف مواطن وطنى فى السجن . ثم ان السلطة الفرنسية أعلنت حالة الحصار على تونس ، تلك الحالة التى استمرت مدة طويلة بعد ذلك . (١)

وفى العام التالى نشبت الحرب العالمية الثانية ثم مرت بويلاتها على تونس . وأخيرا ففض لتونس أن تخرج عن الاستعمار الفرنسى وتتبع باستقلالها . ولكن لا جدوى من استعراض شئ من مآسى الحرب العالمية الثانية ولا من نعم الاستقلال ، لأن تلك المآسى وهذه النعم قد جاءت كلها بعد أن فارق أبو القاسم دنيانا .

آثار الشابى :

لقد ذكرت المصادر المختلفة آثار الشابى ، فمنها ما اكتفى بالاشارة اليها كما فعلت . نعمات أحمد فؤاد فى كتابها شعب وشاعر ومن هذه المصادر ما أفاض فى بسطها وشرحها ، ولعل خير هذه المصادر هو كتاب أبو القاسم محمد كرو* آثار الشابى وصداه فى الشرق* والآثار التى ذكرها نوردها مرتبة كما يلى :

(١) أغاني الحياة :

ديوان شعر ، طبعة أولى ، مطبعة مصر ، القاهرة * ١٩٥٥ م * ١٩٦ ص ، قياس ٢٤ ر ٢ × ١٦ ر ٦ . قدم له شقيق الشاعر : الأستاذ محمد الأمين الشابى . وقد تعرض الديوان لدراسة ونقد كثير ومن الذين نقدوه :

١ - البشير العريى فى :

١ - الشابى فى أغاني الحياة : كتاب* ذكرى الشابى وأحمد أمين* مطبعة الشمال تونس ١٩٥٦ م ، وهو كتاب حوى عدة دراسات بقلم أدباء تونسيين أقيمت فى احتفال أقيم احتفاءً بظهور الديوان . ص ٢٦ - ٣٠ .

٢ - مطالعات أغاني الحياة - الفكر ص ٤٤١ ص ٦٤ * ١ - ٥٦ *

ب - رضوان ابراهيم :

١ - أغاني الحياة : الحج . ص ١٠ ج ١ ص ٢١ - ٢٥ * ١٣ - ١ - ١٩٥٦ *

٢ - الخيال الشعرى عند العرب :

محاورة ألقاها الشاعر تحت اشراف النادي الأدبى التاسع لجمعية قداما* خريجي المدرسة الصادقية بتونس ، وكان القاؤها فى قاعة الجمعية الخلدونية يوم ٣٠ شعبان ١٣٤٧ هـ - ١٩٢٩ م (٢) .

وقد طبع الكتاب فى نفس السنة ، مطبعة العرب - تونس ، بلا تاريخ ، ١٤١ ص حجم ١٣ × ١٨ ر ٧٥ . وقد أهدى الشابى كتابه الى والده ، وقدّم الكتاب ناشره السيد زين الدين العابدين السنوسى .

(١) الشابى - شاعر الحب والحياة - عمر فروخ عن القية التونسية ، الخطاب الثالث

ص ٢ - ٤ .

(٢) هذا التاريخ ذكره كما يقول أبو القاسم محمد كرو* - الأستاذ محمد صالح المهيدى فى مجلة =

أثار الكتاب ضجة كبيرة في تونس منذ ألقى بشكل محاضرة ، ثم بعد طبعة وانتشاره ، وقد ذهب معظم النقاد الى معارضة الشابي فيما ذهب اليه من أن الشعر المرهق لم يسم إلى الآفاق التي ارتفع اليها الشعر الأوربي . وكانت أكثر الكتابات مشحونة بالزراية والتحايل والاستقصاء . ولعل خير ما كتب في هذا الموضوع هو ما نشته فيما يلي كما يقول " أبو القاسم محمد كرو " .

(١) محمد الحليوي :

حول كتاب الخيال الشعري عند العرب مقالتان مطولتان في مجلة العالم الأدبي مجلد ١٩٣٠ . وقد أعاد الكاتب نشرهما مع كتابات أخرى عن الشابي في كتاب " مع الشابي " تونس ١٩٥٥ م سلسلة " كتاب البحث " (٢) ص ٦ - ٣٤ . ثم أعاد اذاعتها بشكل محاضرة ألقى في الذكرى الخمسين لميلاد الشابي ، الذي نظمتها دار الجمعيات الثقافية في تونس ١٩٥٦/١١ م .

(٢) مختار الوكيل :

الخيال الشعري عند العرب : أبوللو - م ١ ع ٧ ص ٨٣٣ " ١٩٣٣/٣ م "

(٣) أبو القاسم الشابي رد على نقد أقال رد فيه الشابي على نقد الوكيل السابق : أبوللو م ١ ع ١٠ ص ١١٧٢ " ١٩٣٣/٦ م " . ونفس المقال نقلته جريدة الزيتونة ، عدد خاص بالشابي بتاريخ ١١/٢/١٩٥٤ م .

(٤) مصطفى خريف :

فكرته في الخيال الشعري عند العرب : الأسبوع عدد خاص بالشابي رقم ٣١١ - " .

١٦٥٢/١١/٢٤ م . ص ٩ .

(٥) محمد الصالح المهدي :

الخيال الشعري عند العرب : الندوة عدد خاص بالشابي س ١ ع ١٠ ص ١٧ " ١٠/٢٠ م .

١٩٥٣ م .

(٦) محمد الفاضل بن عاشور :

الحركة الأدبية والفكرية في تونس : منشورات جامعة الدول العربية القاهرة ١٩٥٦ م ص

١٦٠ - ١٦١ .

(٧) مجلة الحديث :

٢٠٣/٤ (٢)

(٨) محيي الدين القليبي :

(أ) النقد والتأليف عندنا - مجلة العالم الأدبي س ١ ع ١ " ١٩٣٠ م "

(ب) الخيال الشعري عند العرب - العالم الأدبي س ١ ع ٣ - ١٩٣٠ م .

(ج) تونس س ١ ع ٢ ص ٣٦ " ١٩٣٦/١٢ م " وهو مرجع عندنا . وقد ذكر شقيق الشاعر في تقديم المديوان " أبي معاصر عام ١٩٣٧ م وطبع المحاضرة عام ١٩٢٨ م وذكر الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في كتابه الحركة الأدبية في تونس ص ١٦٠ أن المحاضرة أقيمت في نوفمبر ١٩٢٦ م (١) كانت وفاة والده يوم ١٩/٨/١٩٢٨ م (٢) ذكر هذا المرجع الاستاذ داغر في مصادر الدراسة الأدبية .

٥ :- الزمان

س ١ ع ٧ بتاريخ (٣٠ / ٧ / ١٩٢٩ م) .

١٠ :- مجلة منيرفا : - ٧ م ص ٣٨٦ (أكتوبر / سنة ١٩٢٩ م)
مقالات ودراسات

=====

١ :- النفس التائهة: النهضة الأدبية بتاريخ (١٦ / ٢ / ١٩٢٧ م)

٢ :- اليقظة الاسلامية الحاضرة : الزمان سنة ١٩٢٩ م .

٣ :- الشمر ما يجب أن يفهم منه وما هو مقياسها الصحيح : العالم الأدبي س ١ ع ٢٤ سنة ١٩٣٠ م .

٤ :- أيها القلب: العالم الأدبي س ١ ع ٧ سنة ١٩٣٠ م .

أغنية الألم :- العالم الأدبي س ١ ع ٧ سنة ١٩٣٠ م .

٦ :- صفحات دامية من حياة الشاعر : العالم الأدبي س ٣ ع ٦٤ سنة ١٩٣٠ م (١)

٧ :- روح ثائرة : العالم الأدبي س ٣ ع ٨٤ بتاريخ ٣٠ / ٤ / ١٩٣٢ م .

٨ :- بقظة الاحساس وأثرها في الجماعة : العالم الأدبي س ٣ ع ٦٤ بتاريخ ١١ / ٤ / ١٩٣٢ م .

٩ :- تعليق على مقال الشاعر في تونس: الزمان بتاريخ شهر ١٠ / ١٩٣٢ م .

١٠ :- الشعر والشاعر عندنا : العالم الأدبي س ٣ ع ٢٨٤ بتاريخ ٢٤ / ١٠ / ١٩٣٢ م .

١١ :- رد على نقد : مقال رد فيه على نقد مختار الوكيل لكتابه (الخيال الشعري عند العرب)

أبولووم ١٠ ع ١٠٤ ص ١١٧٢ بتاريخ شهر ٦ / ١٩٣٣ م .

الأدب العربي في العصر الحاضر: دراسة قام بها ديوان الينبوع لأبي شادي : ط ١ القاهرة (١ / ١)

١٩٣٤ م .

١٣ :- لموصية الشمر : الزمان س ٦ ع ٢٤٤٤ بتاريخ ٤ / ٩ / ١٩٣٤ م .

١٤ :- الفنون والنفس العربية : الباحثة سلسلة أولى س ١٤ ص ١٠ بتاريخ شهر ١ / ١٩٣٨ م .

رسائل الشابي

كان الشابي يرسل عددا من أدباء وشعراء تونس والبلاد العربية : وقد ذكر أبو القاسم محمد كرو في

كتابه آثار الشابي وصداه ما يلي :

محمد الحليوي - تونس :

يحفظ هذا الأدب بمجموعة من رسائل الشابي لا تقل عن خمسين رسالة - وقد نشر بعضها في المجلات

والصحف التونسية ، و الأمر ما لم ينشرها مجموعة في كتاب .

(١) :- المقالات ((٤ ، ٥ ، ٦)) ذكر الأستاذ الحليوي أنها مقتطفة من يوميات الشابي

نشرها في حياته وذكر غيره أن رقم ((٦)) فصل من كتاب له بهذا العنوان .

٢ :- محمد البشروشي - تونس

أديب جهير عاش مدة بعد الشابي وقد توفي سنة ١٩٤٥ م ، ولا يعلم أحد مصير رسائل الشابي اليه

٣ :- مصطفى خريف - تونس

شاعر تونسي جهير وأديب لامع قيل أن لديه مجموعة من رسائل الشابي غير أنه لم ينشر منها سوى رسالتين .

٤ :- محمد صالح المهيدى - تونس

كاتب تونسي معاصر للشابي كان صديقا للشاعر وغير بعيد أن تكون له بعض رسائله الأدبية لأن الشابي يشير في رسائله لمصطفى خريف الى ما يدل على وجود مراسلات بينهما .

٥ :- أحمد زكي أبو شادي - مصر

شاعر وعالم مصري شهير ، كانت بينه وبين الشابي صلات أدبية وثيقة والى أبي شادي يمدى الفضل في انتشار وذيوع شعر الشابي في الشرق ، وقد كان أبو شادي يحتفظ بمجموعة من رسائل الشابي اليه غير أنها ضاعت أثناء هجرته الى أمريكا عام ١٩٤٦ م .

٦ :- ابراهيم ناجي - مصر .

شاعر وطبيب مصري معروف ويقول أبو القاسم محمد كرو أن شقيق ابراهيم ناجي لم يشر على شيء من آثار الشابي في مخططات أخيه وكان الأستاذ محمد صالح المهيدى قد أشار الى وجود مراسلات بين الشابي وناجي .

٧ :- الدكتور علي ناصر - حلب .

شاعر سوري ذكر المهيدى أن الشابي كان يرسله .

٨ :- عبد العزيز عتيق - مصر .

شاعر مصري يذكر طه عبد الباقي سرواز في كتابه أبو القاسم الشابي - شاعر الشباب والحرية" ص ٩٧ / أن الشابي وعتيق كانا يتبادلان الرسائل الأدبية :

رسائله المنشورة

=====

نشر بعض الأدباء التونسيين جملة من رسائل الشابي اليهم وفيما يلي تفصيل ما نشره مع أماكن

النشر .

١ :- محمد الحليوى :

١ : نتقا من رسائل الشابي اليه استدل بها في دراسته المطولة عن أدب الشابي

الصلح لم الأدبي ص ٤٤ ((٢٤ / ١٢ / ١٩٣٤ م)) وكتاب الحليوى -

الشابي ص ٦٤ - ١٠١ .

مع أماكن النشر .:

(١) محمد الحليوي :

١ - نتفا من رسائل الشابي اليه استدل بها في دراسته المطولة عن أدب الشابي
العالم الأدبي - س ٤ ع ٢ " ١٩٣٤/١٢/٢٤ م " وكتاب الحليوي - مع
الشابي ص ٦٤ - ١٠١ .

٢ - رسالة مؤرخة بتاريخ ٥/٢/١٣٤٨ هـ . الأفكار س ١ ع ١ " ١٩٣٦/١١ م "

٣ - نتفا من رسائل الشابي اليه استدل بها الحليوي في مقال نشرة عن الشابي
من خلال رسائله . الأفكار - ١ ع ١ ص ١٩ " ١٩٣٦/١١ م .

٤ - رسالة مؤرخة بتاريخ ٢١/٢١/ ذى الحجة عام ١٣٥١ هـ : الندوة س ١ - ١٠ .
" ١٩٥٣/١٠ م " عدد خاص بالشابي .

٥ - رسالة مؤرخة ٢٠ شوال ١٣٤٨ هـ : الزيتونة - عدد خاص بالشابي ٥٤/١١

٦ - رسالة مؤرخة بتاريخ ٨/١٢/١٩٣٣ م : الفكر س ٢ ع ١٤ ص ٥ " ١٩٥٦/١٠ "

٧ - رسالة مؤرخة ١٩/١٢/١٩٣٣ م الفكر سنة ١٩٥٦ م .

٨ - رسالة مؤرخة ٢٦/١٠/١٣٥١ هـ : الفكر س ٤ ع ١٤ ص ٢١ " ١٩٥٨/١٠ م "

(ب) مصطفى خريف :

١ - رسالة مؤرخة ٢٣/١٠/١٩٣٠ م : العالم الادبي س ٤ ع ١٩ " ٣٦/٤/٢٠ "

٢ - رسالة مؤرخة ٢٥/٥/١٣٥٢ هـ : الفكر س ٢ ع ١٤ ص ٢٦ " ١٩٥٦/١٠ م "

يوميات الشابي :

مذكرات يومية ترك الشابي منها مجموعة ، منها تبدأ بيوم ١/١/١٩٣٠ م وتنتهي بيوم

١٢/٢/١٩٣٠ م . وفيها يتحدث الشاعر عن حياته اليومية وأثرها في تفكيره .

ويحكي هذه اليوميات تعد قطعاً أدبية جميلة بأسلوبها وخيالها الفني البديع ، والبعض

الآخر جاء عادياً جداً . وهي بلا شك وثيقة هامة جداً لدراسة وفهم حياة الشابي وأدبه

وخاصة تطوراته النفسية والأدبية والاجتماعية ، ويحتفظ بالنسخة الأصلية لهذه اليوميات صديق

الشابي الأستاذ ابراهيم بورقعه ، الذي نشر جانباً منها في مجلة مكارم الأخلاق ، التي

كانت تصدر بصفاقس ، وهذا تفصيل ما نشره فيها ، وما تم نشره في غيرها :

١ - مكارم الأخلاق :

يومية ٣/١/١٩٣٠ م - ٧ ع ٧ ص ٢٧١ " ١٥ ذى القعدة ١٣٥٥ هـ "

يومية ٧/١/١٩٣٠ م - ١١ ع ١١ ص ٤٤١ " صفر ١٣٥٥ هـ "

يومية ١٣/١/١٩٣٠ م - ٥٤ ص ١٨٧ " ١٥ شوال عام ١٣٥٥ هـ "

يومية ١٨/١/١٩٣٠ م - ٢ ع ١٨ ص ١٨ " ١٥ شعبان عام ١٣٥٥ هـ "

٢ - الأسبوع :

يومية ١/١/١٩٣٠ م - ٣١١ ع ٣١١ بتاريخ ٢٤/١١/١٩٥٢ م

يومية ١٢/١/١٩٣٠ م - ٣١١ ع ٣١١ بتاريخ ٢٤/١١/١٩٥٢ م

٣ - الفکر :

- يومية ١٩٣٠/١/٢٥ م - س ٦٤٥ ص ٣٠ * ١٩٦٠/٣ م
 يومية ١٩٣٠/١/٢٧ م - س ٦٤٥ ص ٣٠ * ١٩٦٠/٣ م
 يومية ١١٣٠/٢/٥ م - س ٣٤٥ ص ٤٤ * ١٩٥٩/١٢ م
 يومية ١١٣٠/٢/٦ م - س ٣٤٥ ص ٤٥ * ١٩٥٩/١٢ م
 يومية ١٩٣٠/٢/٢٣ م - س ٦٤٥ ص ٣٠ * ١٩٦٠/٣ م

٤ - الصباح :

سلسلة من الفقرات المقتطفة من يوميات الشابي وضمنها محمد فريد غازي سلسلة من المقالات المنشورة تحت عنوان "أبو القاسم الشابي من خلال يومياته" . وهي تسع مقالات نشرت تباعا في كل أسبوع ابتداء من عدد ١٠/١٩٠ بتاريخ ١٥/١٠/١٩٥٥ م .

ملاحظات :

١ - الهجرة النبوية : محاضرة ألقاها الشاعر عام ١٣٥١ هـ في نادي الطلاب بتوزر بمناسبة ذكرى الهجرة المحمدية ، فقد نشرت تباعا في مجلة العالم ابتداء من عدد ٦ س ٢ بتاريخ ١٩٣٢/٦/١ م .

٢ - جميل بثينه : محاضرة بأسلوب قصصي أعدت لتلقى في النادي الأدبي عام ١٣٤٨ هـ ، ولكن العرض منعه من القاها .

٣ - شعراء المغرب الأقصى : في عام ١٩٢٩ م ظهر في مراكش كتاب "الأدب العربي في المغرب الأقصى" وقد تناول فيه مؤلفه الأستاذ محمد بن العياش القحاج طائفة من شعراء مراكش المعاصرين بالترجمة والتعريف والمختارات ، وكان الجزء الثاني خاصا بالشعراء الشبان وقد تناول الشابي هذا الجزء بالنقد والتحليل ، وأعد من ذلك دراسة لتلقى في النادي الأدبي تحت عنوان "الأدب المصري في المغرب الأقصى" وكان موعد القاها مساء يوم ١٩٣٠/١/١٣ م .

"... ذهبت أنا والأخ زين المابدين السنوسي والأخ مصطفى خريف مساء اليوم الى النادي الأدبي لالقاء محاضرتي عن كتاب "الأدب العربي في المغرب الأقصى" الذي طلب مني النادي الأدبي أن أبط لهم رأي فيه ، ولكننا لم نجد أحدا هناك ."

كتب أخرى :

١ - في المقبرة : رواية أو قصة على نمط قصر جبران بأسلوب فني عذب ، وخيال شعري فائق ، وقد وصفها من أطلع عليها فقال :

"... وله باع طويل في النثر الشعري ، قرأنا له فيه رواية حسنة بديعة " ناهيك أنها نوع من الاعترافات ، يقصر فيها على لسان بطلها حوادثه وتأثراته النفسية ، وهو نوع عزيز حتى عند الأمم المخترعة في نفسها الروح الروائية (١) .

٢ - السكر : " مسرحية ذات فصلين من نوع الاعتراف ، وهي أصعب أنواع

(١) زين المابدين السنوسي - الأدب التونسي ص ٢٠٧ تونس عام ١٩٢٧ م .

التأليف كما هو معروف عند أدباء المسرح ، وأعرف هذه المسرحية عند أبي القاسم - وكان رحمه الله - كثير الإعجاب بها قرأها علي مرارا ولعلها تكون باقية في آثاره . . . (١) .
تلك هي مخلفات الشابي الأدبية ولا شك من أن له آثارا غير معروفة ولكنها ما تزال سهلة مقبورة عند أهله وأقاربه وأصدقائه ، ولم ينشر منها سوى ما ذكر مفصلا في الصفحة السابقة (٢) .

كفاح الشابي

على الرغم من أن كفاحه كان شاقا وأن عصره كان لا يفهمه ، ولا يقدره فإنه برغم ذلك كله كان شديد الايمان برسالته ، وكانت عزيمته قوية .

ويتبين لنا مدى احتماله للشدائد من رسالة بعث بها الأستاذ الحليوي ردا على رسالة الأخير يشكو اليه فيها ظلم الحياة ومضاضتها قال فيها : " مالنا وشكوى الحميلة ؟ " .

فمن تألم لسم ترحم مضاضته . . . ومن تجلّد لم تهزأ به القمص

فلنشارك الألم ولنصعد بأقدام ثابتة الى جبل الدنيا المقدسة ، جبل الفن والفكر والأحلام :

فالمجد في القمص الرفيعة مالى . . . جبل الحياة بضوءه الخلاب

ولنعرض بأبصارنا عن أشباح الموت والظلام في أعماق الوادي وفي شتاب الجبل ، فان في الذروة العليا موسى الحياة الخالدة ، وفجر الحياة السرمدي .

ولقد انقسم كفاح الشابي قسمين :

١ :- تطبيق آراءه في شعره وفنه وأعماله .

٢ :- الكفاح في سبيل نشر هذا الشعر والدعوة الى التجديد في نثره وشعره .

أما تطبيق آراءه في شعره فخير ما يمثله ما كتبه أديب تونسى معاصر لعهد الشاعر وهو الأستاذ

محمد النبال يقول : انه قرأ للشابي قصيدة في احدى الصحف التونسية فسأل صاحب الصحيفة عن هذا الشاعر الناشئ ، فأجابه : " انه شاب من طلاب جامعة الزيتونة ألقني بمقطوعات المكذبة بمكثتي يرجونشرها ولقد رأيت أن آخذ بخاطره فأنشر له هذه القصيدة " .

ولقد أعجب الأستاذ النبال بالقصيدة فكتب عنها يقرظها وينقدها فاذا به يفاجأ بأبي القاسم الشابي

الشاعر يجيئه ليشكره ويعلن له أنه سرّ جدا باهتمامه به ، ووحده به عليه ،

وعذه القصة ثرينا الى أي حد كافح الشابي في ميادى حياته لنشر شعره ، بل لقد كان يحدث أكثر

من هذا فقد كان الكثيرون من أهل الصحافة لا يفهمون لغة الشابي ولا يدركونها ، ويحدثنا في ذلك الشابي

نفسه ان أنه اجتمع مع اثنين من خلصاء أصحابه من أهل الصحافة فراح أحدهما يدير الحديث حول شعر

فقال : " انه يجب على الشابي أن يخرج شعره من تلك الناحية الواحدة التي يعيثر فيها شعره يقصد الناحية الانسانية .

وقال الآخر : انه يزعم أنه لا يفهم من شعر الشابي ولفته شيئا .

وهنا يعلق الشابي على ذلك فيقول : " اليوم أدركت أنني وحيد في وسط قوم لا يفهمون لغة نفسي " ولكن

ولكن هل كان نتيجة لأن الناس لا يفهمون لغة الشاعر أن ضاع شعر الشابي ومات في مهده ؟ كلا فلقد

استطاع الشابي أن يخرج به بعزيمته الصادقة من حيز الاقليمية الضيق فينشره بمصر بمجلة أهولوثم في بعض

المجلات اللبنانية واذ بشعره قد حاز إعجاب النقاد في المشرق والمغرب واذ بشعره قد تناقلته الصحف

(١) :- محمد بورقمة - مجلة الثريا - س ٧ - ٤١٤ - ع ٤ (٤ / ١٩٥٠ م) .

(٢) :- آثار الشابي وصداه في الشرق - أبو القاسم محمد كرو .

في مصر والشام والمراة وغيرهما ، وانا شهرته قد طبقت الاقاي .

هكذا اذا كان موقف الشعب والفكرين من الشابي : عزلوه عن الحياة ، ووصوه بالاحاد والكفر ، وانا به غريب بين ابناء وطنه وعشيرته قريب بين قوم لا يفهمون لغة نفسه ، وهذا هو ذا يعبر عن ذلك فيقول :
 أنت كالزهرة الجميلة في الغاب ، ولكن ما بين شوك ودود

وهو يرى في الدنيا والحياة نظرات جديدة ومنايع جديدة للحب والحياة ، غير أنه يرى للحياة فتنة وجمالا لا يدركها البصر ولكنه عندما حدث للناس عن ذلك أعرضوا عنه ونفروا منه فانما به يصرخ :
 يا صميم الحياة كم أنا في الدنيا م غريبا شقي مطربة نفسي
 بين قوم لا يفهمون أنا شيد فؤادي ولا ممي نفسي
 ثم اذابه بثوب الى نوح جديد من الأمل الى نوم جديد من الحياة المثالية في ظلال حيث منايع الخير والجمال ومظاهر الحق والاطمئنان .

ولكن كفاح الشابي لم يشع وعما نحن أولا . توى العوم ثورة الشابي ومبادئه وقد تحققت في كل مكان قسي تونس الحرة والأدب العربي وهكذا صدق الله العظيم : (فأما الزهد فيذهب جفا ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) .

ولقد ثار الشابي على هذه الحياة الكئيبة وعلى الروح الجامدة وعلى الجهالة المتأصلة والجمود الأخر وتدرب بها فقال :

أنت يا كاهن الظلام حياة ، تميد الموت أنت روح شقي
 كافر بالحياة والنور لا يصفسي الى الموت قلبه الحجرى
 أنت دنيا يظالمها فق الماضي دليل الكآبة الأبدى
 والشقي الشقي في الأرض شبيب يومه ميت وما فيه حبيبي

وليس من شك أننا نستطيع أن ندرك أنه كان من جند الطليعة الأولى الذين شقوا أول الطريق وكان لهم فضل بناء حجر الأساس وبرغم ما تحلوا من عذاب وأهوال وشقاء كانوا مؤمنين برسالتهم المقدسة وقد حملوا رايهم الى بر الأمان وجابهوا في سبيل ذلك القوا الاستمارة والرجعية الجامدة والأمة التي لا تفهم والدينية التي تؤمن بالدين ككتبة حنطة وأفكار رجعية .

ولقد حمل أبو القاسم الشابي الشاعر المجيد لواء الاصلاح الأدبي وتحرير الأدب العربي من قيود السوال وشارك في جميع الاصلاحات الهامة والاجتماعية والاقتصادية وكان له شرفهنا الوعي الجديد في العالم العربي عامة وفي تونس خاصة .

ولقد بدأت رسالة الشابي كما آمن بها تظهر بوادرها في عالم الحقيقة والواقع بعد أن كانت منذ ربع قرن تقابل بالسخرية والاستهزاء ، وانها اليوم تقابل بالاحترام والتكريم وهما هي ندى رسالته التي قدمها في الحرية للشباب التونسي تقابل بحب وایمان وصدق تلك الرسالة التي قال فيها :

(أن تونس لفي حاجة الى أن تتقدم بخطوات ثابتة في سبيل النور والزهور ، ان تونس لفي حاجة الى أن ترفح رأسها عاليها حتى تشاهد أنوار السماء وشموسها وحتى تقبل شفتها أقوا النجوم ؛) .

لقد أصبح الشابي اليوم في تونس خاصة وفي العالم العربي عامة صورة من صور الثورة السياسية والاجتماعية

والعقلية، وأصبح مظهراً قوياً من مظاهر الثورة النفسية وهما هي : رذية ثورة الشابي قد
أصبحت رمزاً من رموز الثورة والانطلاق، فقد انتصر الشابي وهوميت، لأن شمسه
خالد لا يموت :

إذا الشعب يوماً أراد الحياةً

فلا بد أن يستجيب القدر

ولا بد للشمال أن ينجس

ولا بد للقبر أن ينكسر

=====

الباب الثاني

أضواء على شخصية الشابي وأثرها في شعره

ما لا شك فيه أن الذي خلق شخصية الشابي المجدبة أربعة عوامل واضحة المعالم في حياته وفي أحواله النفسية ثم في اتجاهها هو الفكرى وفي شعره ، وهذه العوامل هي :

- ١ :- مرضه : وعن مرضه نشأ تشاؤمه وشدة انفعاله حيناً بعد حين .
- ٢ :- حاله المادية : وعنهما نشأ غفط أعباء الحياة وتكاليفها عليه فحرمه من كثير من الحرية التي كان يحب أن يتمتع بها .

٣ :- مطالباته : وهي التي طبعت نفسه وشعره بعناصر من الخيال والانفلات والنفمة ثم أدخلت على شعره شيئاً من الجدة والطرافة .

٤ :- جمال بلده تونس في البؤس الاجتماعي والتخلف الثقافي والضعف السياسي ما خلفه الاستعمار الفرنسي .

ولقد أعيقت الى هذه العوامل عبقرية أصيلة وشاعرية فياضة فاذا نحن أمام شخصية فذة ولكنها هائلة مضطربة عاجزة ولكنها طموحة متردة .

كان الشابي ضعيف البنية نحيف الجسم مديد القامة ثم زاده المرض أبان النون تحولاً وضعفاً وكذلك كان ذكياً حاد الذهن سريع الانفعال ، وكان فوق ذلك رضي الخلق بشوشاً قانعاً بما يصل اليه من عرى الحياة الدنيا متواضعا خجولاً كثير التسامح في معاملة أصدقائه وخصومه ، رقيق الطبع لطيف المشعر خافت الصوت عند التحديث قليل التكلف في حياته الخاصة والعامة ، وكانت تملو وجهه مسحة من الكآبة والوجوم على الرغم من المرح الذي كان يحاول اصطناعه في جميع الأحوال والأحيان ، ويروي فروخ قصة عن الحلوي مفادها أن الأخير زار الشابي مرة برفقة مصطفى خريف ، فلقى منه ملاحظة وابتسامة على الرغم من أنه كان في ذلك الحين يمارع الموت ويغالب آلام النزاع ، فقال الحلوي معلقاً على ذلك : " وكان يحتضر ذلك الذي اقتبلنا هاشا باشا حتى جعلنا نُسَرُّ من حالته ونحسب شفاه كأنه أمر محقق ، وما درينا أن الرجل يمارع الموت ويغالب آلام النزاع ، ليقوم بواجب ما طفقتنا وابتناس وحشتنا . "

أولاً :- مرضه :

كان للمرض الذي عاناه أثر واضح في اتجاهه في الحياة العامة وفي الشعر ، وسنجد شعره ملوفاً بالتشاؤم وبالنقمة على الناس وعلى أحوالهم .

إن المرض يمنع صاحبه التمتع بسرور الحياة ويمنعه تبين تلك المسرات ، ومع أنه قد يكون للشخص المريض نظرات متفرقة صائبة في الحياة ، فإنا لا نستطيع أن نقول أن نظراته هذه صورة للحياة لأنها صورة نفسه هو في معراج الحياة ، وكذلك كان شأن الشابي في هذا الأمر .

ثم واجب علينا أن نفرق بين الأشياء التي يقولها الرجل بعقله وبين الأشياء التي يقولها بقلبه ومع الاعتراف بأننا نقوله الرجل بقلبه يكون شعراً جميلاً ، فإنه ليس من الضروري أن يكون صحيحاً أو صواباً ، ونحن في دراسة الشابي إنما نتصفح شعراً ، من أجل ذلك سنمسنى بعنصر

الجمال أكثر ما شعنى بعنصر الصواب .

كان الشاهى منذ أول عمره مريضاً ضعيف البنية ، ولكن علته لم تجرز واضحة ولا بدأ اثرها فى تفكيره وشعره الأدبى فى السنوات الست الاخيره من حياته ، تلك السنوات التى كانت أيضا ذروة انتاجه الادبى .

والعرض عامة ، ومرض الشاهى خاصة ، يغير نفسية المريض تبعاً لمقاييل الداء .

ان مرض الشاهى فى قلبه كان له تأثير سيء على رثته فاعقب ذلك اضطراباً فى التنفس أى حركة الرئتين ، واضطراب حركة الرئتين يؤدى الى اضطراب الدورة الدموية فيتمرض المريض حينئذ لانحطاط فى القوى وتعب مستمر حتى فى الاحياء التى لا يقوم بها فى مجهود طموح . فاذا اضفنا الى ذلك أن الأطباء كانوا قد منعوا الشاهى من القيام بالأعمال التى تورث جهداً جسانياً أو عقلياً : منحوه الجرى والقفز والسباحة ورمى الكرة وتسلق الأشجار والتلال وكل ما يعمده الناشئون من ملامهم — وهو فى الحقيقة فى النشاط الطبيعى لكل انسان — أدركنا ما كان يدخل على نفس الشاهى من أثر ذلك . واقى كثيراً ما كان يستشعره الشاهى من القلق وما كان يدب فى نفسه من السامة والطلل والتشاؤم والنقمة مرده الى مرضه ولا شك فى ذلك . ولم تكن حال الشاهى ، فيما يبدو ، خافية على المحيطين به ، ولا كانت عاقبة ذلك المرض فى الشاهى مجهولة . من أجل ذلك لا نستغرب أن ينفجر الشاهى ، اذا استرق همسات اصدقائه واعدائه على السواء بمثل قوله :

ساعيشُ رغم الداءِ والأعداءِ . . . كالنسر فوق الصخرة الشامِ ! !

وربما خرجت نغمته عن حد الكلام المنظوم ، وتبدى أنفعاله ثورة من المنف . استشهد الدكتور محمد فريد غازى بقطعة من يوميات الشاهى تتصل بليلة من ليالى رمضان من سنة ١٣٤٨ هـ (الخميس بتاريخ ٢٠/٦/١٩٢٠ م) هى :

..... ما شرعت أكتب ، وكلفت ابن عمى الصغير بأن يسخن سحورنا على البابور حتى اضطربت حركاته وتلثم لسانه ، فلم يستطيع أن يبين . فقلت له :

ماذا ؟

— لم أجد البابور !

— انسيته خارج البيت ؟

— كلا ، أدخلته

— وكيف فقد اذن ؟ أسرقته الشياطين ؟ انك نسيتته خارجاً ، يا مجنون !

— كلا — بل أدخلته !

— لا تقل أدخلته ، يا كلباً ! وهل سرقته الجنة ؟ ولو كنت صادقاً اذهب وابحث عنه خارجاً لملك تلقيه .

فخرج الصبى ، وقد أعمى النوم والخوف بصره ، فلم يجد ، فعاد والخيبة تفتش وجهه فسألته :

— هل وجدتته ؟ فقال بانكسار

— كلا ، ولكنى أدخلته ، والله .

— اسكت ، يا كذاب !

وظل صامتا ، وظلمت أفكر . ثم اندفعت عليه ضربا وشتما فى ثورة من الغضب والعنف . ثم أفاق اخو الخليليه فاعطيته حق من الشتم والتقريع . ثم سكت سكوت الفاضل بعد العاصفة وظلمت كذلك حينما

لا خلاف فى أن الشايبى كان متشائما كتيب النفس ، فقد قال هو عن نفسه : " اننى فى كثير من الأحيان تطفى على نفسى كآبة اللال المهم فاصدف عن الكتب ويوصد قلبى عن جمال الوجود " .

وليس بمستغرب ان يشعر الشايبى ، بالإضافة الى هذا ، بجانب من مركب النقص فى نفسه ، فهو يقول عن نفسه أيضا " ان القدر هاته السنة — فيما أرى — لا يريد أن يسلك معى الا مسلك المعاكسه والعناد ، وكيف يكون ، يا صديقى ، حال من يعتمد القدر معاكسته ؟ " .

ويكثر الشايبى فى مثل هذا الكلام : " وما يطيف بهى فى هاته المعاكسات وسخرية القدر بهى " .

ويتبع محمد الحليوى تشاؤم صديقه ثم يحاول أن يجعل ذلك التشاؤم أدوارا فيقول : " كل من يتبع آثار أبى القاسم الشايبى ، عن قرب أو عن بعد ، يعرف أنه من الشعراء المتشائمين . وقد مر تشاؤمه فى ثلاثة أطوار :

أولا : طور التشاؤم القاتم :

وكان الشايبى فى هذا الطور ينحو نحو جبران وينكب على المظالعة " لزوميات المصرى " ولم يكن لتشاؤمه فى هذا الطور سبب غير هذا وهذا التشاؤم الذى لاسب معروفًا له شئ يشارك الشايبى فيه كثير من صغار الشعراء ومقلديهم ، ويختار الحليوى أبياتا من شعر الشايبى تمثل هذا الطور المتقدم من التشاؤم عنده منها (١)

لم أجد فى الحياة نغماً بديماً يسببى سوى سكينه نفسى

ناولتنى الحياة كأساً بهاقاً بالأمانى فما تناولت كأسى ؟

ان فى روضة الحياة لا شوا كآبها مزقت زنايقِ نفسى !

ثانيا : الطور الثانى :

أما تشاؤم الشايبى فى هذا الطور فكان تشاؤماً مصحوباً بالتعليل ، كما يرى محمد الحليوى مع شئ من التساؤل القائم على الحيرة والقلق : مانحن ؟ ما الحياة ؟ ما الموت ؟ من أين جئنا ؟ وإلى أين نذهب ؟ الخ .

ثالثا : الطور التشاؤمى الثالث :

وأما فى هذا الطور ، فيتبدد شئ من غيوم الكتابة عن أعين الشايبى ، وتشرق فى ظلمات حياته

(١) ديوان ٤٦ — هذه الأبيات من قصيدة قالها الشايبى قبل المشبرين . " راجع

الأدب التونسى ، ١ — ٢١١ ، الشايبى ١٠٩ — ١٢٧ " .

ويميز الحليوى هذا التبدل الى اصطفاى الشايبى فى عين دراهم ، فى عام ١٩٣٢ م . لما
 بها من مناظر جميلة ، ثم لأثر شعر لامارتين فى عقله الباطن ، ومع أن تقسيم الحليوى يصلح
 أساسا لدراسة التشاؤم فى شعر الشايبى فانه يحتاج الى دراسة أوفى مبنية على تاريخ
 ماكد الشاعر ونسبها فى سلسلة واحدة من أحداث حياته . وأعتقد مع فروخ أن بروز التشاؤم
 فى شعر الشايبى مرة واختفائه مرة ثانية راجعان الى الأزمات النفسية والصحية التى كان يمر
 بها الشايبى ، كما تكون الحال عند جميع الناس . ودليل على ذلك مأخوذ من رسالة لمحمد
 حليوى الى الشايبى مكتوبة فى بنى خالد بتاريخ ١٣/١٢/١٩٣٣ م . قبل وفاة الشايبى بأقل
 من عشرة أشهر ، يقول الحليوى فيها : " رجائى اليك أن تترك الأفكار السوداء " ، والاعتقاد
 بطلح بأن الدهر يعاكسك ، فكفاك ما أنت فيه من سوء الصحة وشواغل الحياة ومع ذلك
 لانتهزام عار على بنى الانسان ، والاستسلام ضعف واستخذاء " ، فالشايبى كما نرى لم يكن فى
 آخر عمره " أحسن تشاؤما " منه فى أول عمره ! .

وأنا مع فروخ بالأخذ برأى زين العابدين السنوسى من أن كآبة الشايبى وأسآه
 تشاؤمه راجعة الى مرضه فى الدرجة الأولى ، والى ما أعقب هذا المرض من حرمان الشايبى
 من التمتع بالحياة تمتعا عاديا مألوفا .

ومثل ذلك رأى الدكتور محمد غازى ، الذى يرى أن مرض الشايبى لم يكن ذا تأثير على
 سيبته فقط ، بل على شعره أيضا .

وقد ذهب البشير الزيبى الى أن الشطبى غير متشائم ، وربما كان ذلك رأى قوم آخرين
 يكن محمد صالح بن ابراهيم ينكر ذلك على الزيبى كما ينكره الشاذلى هو يحيى على القوم
 الآخرين .

ولعل ضغط الحياة المادية أشد عليه تأثيرا من مرضه .

كان الشايبى يحب أن يعيش طليقا من كل قيد مادى يشده الى حاجات الحياة اليومية
 ما كان يصبوا الى أن يعيش حرا من قيود المجتمع . غير أن موت والده ألقى على كتفيه أعباء
 دية رغسته فى تكاليف الحياة فاصبح مضطرا الى أن يهمل " السعادة الروحية " التى كان
 حلم بها للقيام بما تتطلبه الحياة منه نحو أسرته . ولقد فرك ذلك فى نغمته على هذا
 نوع من الحياة ، ثم على الحياة نفسها . ويجهنم ألا ننسى أن هذه الأعباء الجديدة قد
 مرتته فعلا من الراحة التى كان عليه أن يتمتع بها فى سبيل مداواة مرضه ، لقد رأينا شيئا
 من شكواه ، وقد موت أبيه ، من أعباء الحياة . وفى مايلى أبيات تجمل رأيه فى الحياة التى
 فيها ، وفى الأمور التى تصرفه قسرا عن مثلها يقول : (١)

ليت لى أن أعيش فى هذه الدنيا . . . يا سعيدا بوهدتى وانفرادى
 أصرقا العمر فى الجبال وفى الفيا . . . بات بين الصنوبر العيان
 ليسلنى من شواغل العيش ما يصـ . . . رف نفسى عن أسماع فـ وادى

وأتمنى مع البلابل في الغاب . . . به وأهني الى خير الوادي
لا أعني نفسي بأحزان شعبي . . . فهوحي يمشي، عشرين الجماد
هذه عيشة تقدسها نفسها . . . بي وأدعو لمجدها وأنادي
طالمة الشابي وثقافتهم

كان الشابي واسع المطالعة، غير أن مطالعته هذه لم تكن متصلة، مما نرى في ديوانه، بالعلوم التي
تقاعها في الزيتونة، أو بالفنون التي استمع الى محاضرتها في كلية الحقوق، ثم أن الشابي قد اقتصر في مطالعته
على ما كان ينشر في اللغة العربية أصلاً أو منقولاً فإنه لم يكن يعرف لغة أجنبية. ومع الايقان بأنه كان
قد تأثر بشي من الأسماء القديمة الذي نلمسه في عدد من قصائده التي نظمها على الأسلوب الجاهلي في
طواره الأولى في الأغلب، فإن مطالعته الواسعة كانت في الكتب الحديثة عن الأدب المعاصر خاصة،
في ما ينطق عليه وصف تجديد على الأخص.

لا مشاحة في أن الشابي طالع آثار كبار الأدباء : من العصر الجاهلي الى الحضارة الأموية، فالعباسية
لأنلسية. " وهذا واضح في شعره، وخصوصاً في طوره الأول، اننا اذا قرأنا أبيات الشابي التالية لم
نخطئ فيها نفس شعر الحماسة في الجاهلية معاني وأسلوباً .
فيا أيها الظالم المصمّر خده رويدك ان الدهر ييني ويهدم
سيئاً للجز المحطم تاجه رجال اذا جاش الردى فهوهم
رجال يرون النل عارا وسبباً ولا يرهبون الموت والموت مقدم (٢)
ولما بدأ الشابي نظم قصيدته - (الى الشعب ٣) وما بعدها) ، كانت قصيدة المتنبي (لا افتخار
للمن لا يضام) نصب عينيه حتى قال :

أي عيش هذا وأي حياة (رب عيش أخف منه الحمام)

ضمن عجز بيت المتنبي (رب عيش أخف منه الحمام) عجزاً في بيته هو . غير أن التليسي لما أورد قصيدة
شابي شاهداً على شعر الشابي في الوطنية، لم يميز هذا العجز سمها أو عمداً .

على أن المطالعات التي تركت في نفس الشابي وعلى شعره أثراً عميقاً مطالعاته في النتاج الأدبي الحديث
في الأدب المهجري منه خاصة، فمن الترجمات العربية عن الفرنسية عرف الشابي نتفاً من الأدب اليوناني
الروماني والأدبين الانجليزى والألماني .

وكذلك وعلى الى نتاج الأدب الفرنسي من خلال الترجمات العربية ايضاً .

ويبدو أن الشابي قد تأثر برباعيات الخيام . : تأثر بمدد من آثارها، كما شقت أمامه طريقاً لتتبع في
ثقافية وعند الأشراف أن يكون قد تأثر في ذلك بالموشحات لأنلسية .

هذا ويرى أبو القاسم محمد كرو " ٤ " : أن أثر الأدب المهجري في تفكير الشابي وأدبه يكاد يفوق كل أثر
بل أثر كل أسبق فقد أكثر الشابي من قراءة الأدب المهجري ومن الحفظ من نشره وشعره في أيام طفولته
بغضبة قبل أن يبلغ الخامسة عشرة من العمر فإذا في نفسه منه أثر لا يمحي .

(١) : الديوان ص ١١١ . (٢) : الديوان ص ٤٢ .

(٣) : الديوان ص ١١٥ . (٤) : آثار الشابي وصداة أبو القاسم محمد كرو ص ٤٩ . وما بعدها

ويرى التليسي أن الإجماع يثبت على أن الشابي كان تلميذا للدرسة المهجورة والطابع الذي تركته هذه المدرسة في أدب الشابي لا سبيل للحرج أو إنكاره أو اغفاله .

هذا ويمقد التليسي في كتابه (الشابي وجبران) أراد أن يوضح فيه الوهم الذي علق ببعض الأذهان فصور لها أن أثر جبران في الشابي لم يتعد حدود الصياغة وطريقة الأداء .

ويخرج التليسي إلى أن الدراسة الواعية لانتاج هذين الأدبيين تكشف مدى الأثر العميق الذي طبع به جبران الشابي . . . وتوضح أن الشابي كان تلميذا لا تابعا لجبران ، والتليسي يرد كل خاصة وكل غرض في أدب الشابي إلى أدب جبران ، وإن العيوب والظواهر والتمرد والثورة على الجمود والرجعية وكره الاعتدال وإثارة الألم الحافز الذي يدفع لأفراد والشغوب إلى الحياة والنهوض حتى في قصيدتيه (النبي المجهول) " ٢ " و (إلى الشعب " ٣) كلها ترجع إلى أدب جبران وأثر ذلك الأدب في الشابي . وكذلك تقديس الحب والارتفاع بالمرأة عن الحدود المادية والتغزل بها بعيدا عن التدني إلى أعراض الجسدية ، والتعمد لأموثها أمور تأثر بها الشابي بجبران ، ويزيد التليسي ذلك شرها فيقول : (لاشك في أن الشابي قد تأثر بنظرة جبران إلى المرأة وتأثيره سابق على كل تأثير وكل تأثر جاء بعده . يمكن له من وظيفة سوى تعميم أثر جبران) " ٤ " .

كما يضيف التليسي قائلا : إن الشابي تلقى ثورته على الكهانة والرجعية الفهنية عن جبران ، ومثل ذلك تقديس الطموح ، والدعوة إلى الكفاح والثورة على المعيشة في ظلام قديم فإنها كلها مأخوذة عن جبران ويضيف قائلا إن الشابي كان يؤمن بالطوح إيمانا عميقا ، وكان يبحث في شمه عن عورة المفاور المقتحمون هنا كانت عاقفته المشهورة :

إذا الشعب يوما أراد الحياة . . . فلا بد أن يستجيب القدر

ولا بد لليل أن ينجلي . . . ولا بد للقيد أن ينكسر

هذه القصيدة الخالقة التي تعلم الناس أن الطوح حياة الحياة ، وروح الفخر يجب أن تبحث عن العناصر التي كانت تغذي جذورها في أدب جبران ، وفي فكرتها العامة وتشبيهها .

ويقول الفروخ مطلقا على رأي التليسي " ٦ " :

(فإذا فرغ التليسي من تحدي الشابي لجبران في أغراضه ، التفت إلى الخصائص الفنية

يقال : " إن تجهد الفن والسو به عن الأغراض التافه ألقاه جبران في نفس الشابي ،

والصدق الشموخ والانفعال الحاد وبخلطة الأداء وقوة الإيحاء ، والأسلوب التصويري الذي ينتزع صورته من مشاهد الطبيعة ، مزايا تفرد بها جبران في أدبنا المعاصر كما يقول التليسي وانتقلت . إلى شعر الشابي ، بإدما الشابي مطالمة كتب جبران وعكوفه على تلك الكتب ،

صورا وتماير وأبياتا قائمة بنفسها " . حتى قصيدة النبي المجهول الشابي تتصل بأفكارها

(١) الشابي وجبران - ص ٤٩ - ٦٦ محمد خليفة التليسي .

(٢) الديوان ص ١٠٢ - ١٠٥ .

(٣) الديوان ص ١٧٥ - ١٧٨ .

(٤) الشابي وجبران ص ١٣٩ محمد خليفة التليسي .

(٥) الشابي وجبران ص ٥٦ - ٥٨ محمد خليفة التليسي .

(٦) الشابي شاعر الحب والحنان ص ٥٨ - عمر فروخ .

تسردة واتجاهها الأدبي وطريقة الآداء فيها وببعض مقاطعها لأدب جبران .
ولقد استوحاها الشابي من كلمتين " أي قطعتين " لجبران بعنوان بين ليل وصباح ،
ليل الكافر ص ٩ .

وينسى التليسي أنه كان قد قال (٢) : " وليس يعيب الشابي أن يتلمذ في بداية نشأته
للآخرين ، وإنما يمييه حقا أن يظل عبدا للتقليد ، وتلك صفة ترفع عنها . فما كان الشابي
صر طريقه حتى استوى له في الشعر مذهب قائم على شخصية مستقلة ، تمتاز بقوماته الخاصة
بمهجها المدروس ، وقد كان الشابي أثرا على حصر الشعر في الدائرة الضيقة التي كان يعيش
بها شوقي وحافظ وغيرهما من شعراء الأقطار العربية (٣) ، وكان متأثرا في ذلك بالأدب
سجري ، وينقذات ميخائيل نعيمة التي وجهته الى الاستفادة من أخطاء مدرسة شوقي وحافظ
لقد نسي التليسي ذلك فماد يقول (٤) : " ويقظة الاحساس ، ذلك المبدأ الذي قدسه
شابي وجعله كل شيء في حياته ، ليس سوى فكرة جبرانية ان الشابي قد تأثر بالأدب
سجري وتلثر بجبران بنوع خاص والباحثون في حاجة الى أن يلتفتوا الى أدب جبران أكثر
أي أديب آخر ، وهم في غنى عن التخبط والتعسف والتحويل على الظن والتخمين :
سلوب الشابي النثرى متأثر بجبران ، وأسلوبه الشعري متأثر بجبران ، وأفكاره متأثرة بجبران . .
لمشابهة بينه وبين جبران أعظم من أن توحىها المصادفة ، أو وقوع الحافر على الحافر ولكنها
مشابهة التي تنتجها التلمذة : تلمذة المكوف على دراسة جبران وأدبه مرة أخرى
قول : أنه اذا اريد فهم الشابي والمدارس الأدبية التي أثرت فيه وعلمت في أدبه ، فانه يجب
نلتفت الى جبران بصفة خاصة " .

ولكن القريب من الصواب ، أن نميل الى قول الشاذلي بويحيى في مجلة الفكر (٥) :
" لقد عرف الشابي شعر جبران وشعر المهجر كله ، وأولع به ، كما أولع به جيلسه ،
لا شك في أنه أعجب به ، ولعله أراد (الحدو) حدوه ونسج مثله . لكن عبقرية الشابي وقوة
شخصيته في شعره ساطعتان لا تتركان المجال للباحث أن يقف عند التأثير الجبراني ، وألا
سدوه كجهد مرحلة - وهي مجرد مرحلة الى ميدانه الذاتي حيث الشابي هو الشابي ، لا
جبران ولا لمرتين " .

أثر الأدب المهجري بالشابي :

ومع العلم بأن الشابي قرأ كثيرا من دواوين الشعراء العرب كما هو واضح من شعره ، فانه
ن معجبا بشعراء المهجر أمثال جبران خليل جبران ، وميخائيل نعيمة ، وإيليا أبو ماضي ،

(١) الشابي وجبران ص ٦٠ محمد خليفة التليسي .

(٢) المرجع السابق ص ١٩ - ٢٠ .

(٣) يقصد الشعراء الذين يحافظون على عود الشعر العربي في مقابل الشعراء الذين يقلدون
الأدب الغربي .

(٤) الشابي وجبران ص ٦٤ - ٦٦ محمد خليفة التليسي .

(٥) الفكر ديسمبر ١٩٥٩ م - ص ٥٠ .

وليس من المستغرب أبدا أن يكون الشابي أشعر من الذين قلدهم فان أبا القاسم محمد كرو
 حصل في كتابه الشابي (١) الى أن الشابي كان أشعر من جبران حيث يقول :
 " غير إن الشابي كان أعق من جبران ، وأصدق تصويرا . . . وهو يمتاز " من
 أديبا المهجر " بدقة بالغة في تصويره ، وبراعة فائقة في تصويره " .

ولعل الذي ذكره أبو القاسم محمد كرو ، ينطبق على أديبا المهجر الشمالي في الولايات
 المتحدة أمثال " جبران ، ونعية ، وأبو ماضي " ، أكثر من انطباقه على أديبا المهجر
 لجنوبي أمثال " الشاعر القروي رشيد سليم الخوري " فالشابي شاعرا خيرا من جبران بلاريب
 لعله في قصائده المختارة يتقدم أيضا على أبي ماضي ، هذا مع العلم أننا نوازن هنا بين
 شاعر ما وافت سنة عيسى النضج وبين شعراء استنفذوا نضجهم كله في أعمارهم .
 تأثر الشابي بحال بلده تونس وما فيه من تعس وفقر :

لم يكن بإمكان الشابي الا أن يتأثر بحال تونس في التعس والفقر والظلم ، ويرى فسوخ
 ن الشابي أنصف بلده في شعره فلم يكتف بأن يصفه وصف ناقم أو راحم فقط ، بل كان يحدث
 ومه على الرقى وينبهم بالنتائج التي يمكن أن يصلوا اليها اذا استيقظوا ونهضوا . غير
 أنه أيضا كان في بعض شعره السياسي متشائما نافضا كتنا يديه من امكان الاصلاح أو
 لنهوضي . ويرى أيضا أن كثير من آراءه في هذه الباب ، كانت تقليدا للشعراء الذين طرقتوا
 مثل هذه الموضوعات .

وإذا قبلنا ما قاله " أبو القاسم محمد كرو " من أن الشابي قرأ كثيرا للمصري وابن الفارض
 وابن الرومي والخيام وجبران وسائر أديبا المهجر ، فاننا لا نعدو الحق معه في أن
 رد كثيرا من هذه النعمة الى هذه المطالعات وحدها ، واختلف الدارسون في موقفهم من
 لشابي ، من الناحية القومية الوطنية :

فأبو القاسم محمد كرو يجعله : " من المكافحين الأبطال ، بل نموذجا رفيعا منهم وصورة
 شابة شاملة لحياة الشعب التونسي في هذه المرحلة القلقة التي بهرته - أي الشابي - فيها
 لحياة الجديدة ، فملأت قلبه بالأشواق والرغبات ، وأيقظت في نفسه عوامل الطموح الوثاب
 لكفاح العنيف " . (٢) ولم تكن آلام الشابي وجراحه في رأى كرو :

" الا آلام الشعب التونسي كله ، وجراح أمته بأسرها ومنذ اللحظة الأولى التي
 حس الشابي فيها بالآلام شعبية ، اندفع الى الصفوف الأولى مناغلا لخير بلاده وتقدمها ، ومكافحا
 من سبيل تحريرها واستعادة مجدها " .

ويشارك محسن بن حميدة كرو رأيه إذ يقول عن الشابي :

(١) الشابي - أبو القاسم محمد كرو ص ٢٦ - ٤٧ - ٥٠ - ٥٨ - ٧٠ - ٧٧ .

(٢) الشابي - أبو القاسم محمد كرو ص ٢٢ - ٤٣ .

بشارك مجسن بن حبيده كروا رايه انه يقول عن الشابي انه (الشاعر الذي كان يعيش مأساة شعبه كلها يحاول ان يبعث في شعبه روح الثورة على الموت والايمن الصادق بانتصار الحياة بل حواول من عشر مأساة الخاصة في مأساة شعبيه ولم يحاول أن أحداها عن الاخرى ، وربما لم يكن التلميح او الاشارة الى مأساة الغلظة الا مجرد وسيلة للتعبير عن المأساة الطامة) .

اما الشاذلي بويحي فانه يقتصد في قصر هذا الموقف السياسي للشابي فيقول عنه انه (شاعر تونسي من فتره من حياتها هي تلك الفترة التي عاشها ، فكان صوت تونس في أنينها وندائها وحقرها فهو داعرها بلا منازع) . ولقد شهد الشابي ، في أثناء حياته القصيره كما يقول الصائق طربخ فتره من تاريخ شعب التونسي كانت المشكله الجوعريه في اثنا عشر سنة بقاء هذا الشعب أو انقراضه : (أمة بأسرها منت (تتوقع كارثة الفناء) وتشاهد بعينها معاول الأباده تهدد هيكلها ، فكان الشابي ذلك الرائد الذي نكس بالانيمات الانساني القومى ، وانطلقت من خلال أهزيجه الملهمه أنشودة الحياة الطافرة متفلبية على فنون المسرف وقبور الأسر والارهاق ، فمصر عن ذلك الوعي الغامض النافق ، وتمثلت شعره أمنا وهي في مفترق الطرق ومهب العاصفة متأهبة لخوض المعركة الحاسمة) .
أما فروخ فله رأى آخر يقول فيه :

على أن مراجعة الديوان وكّر النظر في رسائله ويومياته التي رأت النور وأمكن الاطلاع عليها لا يران تلك الحملة في رفع الشابي الى مقام المصلح الاجتماعي والحكيم والمناضل السياسي الجري .
بدعم رأيه بقوله : كان يوم الاثنين في (٢٧ / ١ / ١٩٣٠ م) نوعا لمحاورة يلقيها الشابي في النادي الأدبي في تونس فلم يحضرا حد ، وكانت أبواب النادي نفسها مغلقة ، وسيمى الشابي بذلك فكتب يومياته :

(. . . لقد أصحت يائسا من المشاريع التونسية ناقما على التونسيين تؤمل فيهم الآمال ككار وتمتقد أنك تخاطب روحا متجسدة في فكرة تلتهب ، حتى انا جاء دور الممل تمزقت تلك المواقف وخمدت النزوات وتنظر الى الشباب التونسي فلا تلقى الحماسا وعزما ومشاريع لكن شئ أنك حين تعوذا الى العمل لا تجد الا عزائم خابية وشبابا هرما يفظ في سبات الأحلام للذينة " ١) . (وفي عام ١٩٣٠ م . نفسه نشر الشابي قصيدته النبي المجهول " ٢ التي يقول فيها : " ٣)

أيها الشعب لمتني كنت حطانا . . . يا فاهي على الجدوع بفأسي
أنت روح غبية تكره النور . . . روتقضي الدهور في ليل تلمسي
انني ذاهبالي الغاب يا شعب . . . بي لأقضي الحياة وحدي بيأس
ثم أنساك ما استطاعت فما أنسا . . . ت بأهل لخمرتي ولكأسسي
وفي هذه الفترة ذاتها ، وبمد وفاة والده في الأغلب ، نظم الشابي قصيدته (أحلام شعاعر)
التي فيها :

ليت لي أن أعيش في هذه الدرد . . . يا صيدا بوحدتي وانفرادي
لا أعني نفسي بأحلام شعاعي . . . فهو حي يعيش عيش الجماد

وفي عام ١٩٣٢ م ، أجرت مجلة ((العالم الأدبي)) استفتاء لاختيار ثلاثة شعراء مقدمين في تونس
(١) : الفكر مارس عام ١٩٦٠ م ص ٤٠ . (٢) : نشرت في مجلة العالم الأدبي (مع الشابي ص ١٢٠) .
(٣) : الديوان ص ١٠٢ - ١٣٣) . (٤) : الديوان ص ١١٤ .

ان الفائزين في هذا ثلاثة من غير الشبان فثار الشعراء الشبان على هذا الاستفتاء وعلى شعراء الثلاثة ، وأدلى الشابي دلوه في الدلاء ، وكتب مقالا عنيفا - وكان يومذاك مصطفى عيّن دراهم مستشفيا - ونشره في تشرين الأول * أكتوبر * من عام ١٩٣٢ م (١) قال شابي في مقاله :

(لقد أجزنا لهذا الرأي العام المأفون أن يتحكم في مصير السياسة والقوانين ، لأن هذين سا في الحقيقة الا مظاهر لتلك الحماقات الجليلة الخالدة والنزاعات المجنونة الطائشة والعيول غريبة المتحولة التي تحويها فكرة الشعب في أمماتها ، أما الفنون فهي أجل من ذلك وأقدس لنا حكنا فيها أيضا فكرة الشعب فذلك دليل على أننا أمة ضعيفة التمييز مريضة الادراك مشمور . واذا انحط الفن الى خدمة الشعب ، وأصبح أداة بصرفها كيف يشاء ، فقد انقلبنا صيانا سانجا لا قدسية فيه ولا جلال) (٢) .

وقبل أن يموت الشابي بأقل من عشرة أشهر ، كتب رسالة الى صديقه محمد الحليوي " توزر شابية ١٩/١٢/١٦٣٣ م " قال فيها :

" أما ده فيني ، فاذا أردت أن تكون مخلصا للحق والفن والتاريخ ، فاكتب عنه كما يراه الله . أي ينقم هو " أي ده فيني " عليه ويجدف به - لا كما تريد هاته الجشرات الآدمية التي بنا في تونس بأن نحسب حسابها في كل شيء ، بدل أن ننوسها بأقداننا .

أكتب عنه كما هو غير متبع ارتضاء لعاته الطائفة الغبية المصماء ان الفنان اذا أصغى الناس وما يقولون ، وطار في هاته الدنيا بأقدامهم ورأها بأبصارهم ، وأصغى اليها بأذانهم فقد بالفن وخان رسالة الحياة " (٣) .

فلاغرو ان ، اذا لقي الشابي سناوة في بيئته ، ومقاومة من أجل تطرفه ، ثم هاجمته الصحافة ، لأن " الماطقة قد أفسدت عليه حياته ، كما أفسدت كثيرا من أحكامه حين أوهمته ليس من طينة الناس " (٤) .

ومع الايقان بأن الشابي كان يريد الخير لبلاده ، ورفعة شعبه ، كما كان يبحث مواطنيه للتطوع الى الحياة ، والنهوض بالوطن ، ويشدد من عزائمهم لاستئناس الكفاح كلما تهبطت بهم ، وفتت في أعضادهم المصائب والنكبات وأدلتهم الأفق ، كما نرى في كثير من شعره وفي نشره ، فاننا نختار أن نذهب مع مذهب الدكتور محمد فريد غازي في تحليل ذلك كله . يرى الدكتور غازي أن لمرض الشابي تأثيرات متنوعة متعددة انعكست على نفسية الشابي وأدبه . حتى أن عددا من قرائده كانت ملامح صادقة لمرضه ، كما كان الطبيب نفسه أيضا أن مرضه لعب دورا هاما جدا في نبوغه وإنتاجه الشعري .

(١) نشر في مجلة الزمان " مع الشابي ص ١٢٦ " والمقال مثبت في كتاب الحليوي " مع الشابي ص

٤٦ - ٥٩ " وقد ذكرت في آخره عين دراهم بجانب اسم الشابي . ص ٥٩ .

(٢) مع الشابي ص ٤٧ - ٤٨ .

(٣) الفرد ده فيني كاتب وشاعر فرنسي " ١٧٩٧ - ١٨٩٣ م " .

(٤) الشابي وجبران - محمد خليفه التليسي .

وما دامت الحياة تتكيف تكيفا مستمرا لانفعالات الانسان الباطنية ، التي تجبره عليها
 لفعالات الخارجية ، فان الشابي قد حاول - وهو مريض - أن يفال هذه التيارات المعادية
 راه يرى نفسه متجسدا في بطل ، بفضل عملية لا شعورية كثيرا ما نراها عند اشعرا
 نى لا أذهب " عمر فروخ " الى أن قصيدة ارادة الحياة نفسها ستلزم " تقتضى " تفسيراً
 مق ما نذهب اليه في كل مرة .

لا ريب في أننا نرى فيها تصويرا للشعب ، ولكنى أرى أن الشابي قد صور وراء هذه الكلمات
 جبارة ، مطامحه واندفاعاته كرجل مريض (١) .

ان الشابي في قصيدة ارادة الحياة ، يتجسم في شعب بأسره ، ويرى ذاته العريضة تطابق
 ات الشعب المريض ، ولكنهما كليهما مندفع نحو الحياة : نحو الوجود الأخصب .
 والكتور غازي يرجو أن يقوم طبيب تونس بدراسة أوفى لعرض الشابي ويبحث أعمق .
 انا نحن تأملنا بيئة الشابي المامة في تونس ، ثم بيئته الخاصة ، فهو ابن قاضي شرعي وخريج
 جامعة الزيتونية ، عجبنا لامحاء الأثر الاسلامي في ديوانه ، ثم نزيد تعجبنا اذا رأينا الأثر
 وثنى شديد المروز في شعره .

ان أول ما نلاحظه أن الألفاظ الدينية قد خسرت في شعر الشابي قدسيتها ودلالاتها المألوفة
 له والنبى ، والصلاة والجحيم ، أصبحت عند النظمى كلمات عامة كسائر الألفاظ القاموسية الدائرة
 الاستعمال اليومي . من ذلك قوله : لتمس الورى شاه الآله وجودهم ، صانكن الآله من
 لمة الروح ، وتشدو كما شاه وحى الآله ، فالنور ظل الآله * .
 ومثل ذلك قوله : (٢)

أهبها الليل ياأبا اليوسر الهـو . . . ل وياهيكل الزمان الرهيب
 فيك تجثو عرائس الأمل الصند . . . ب تصلى بصوتها المحبوب

وأكثر ما يقف الشابي ألفاظ الدين ورهبة العبادة والمعبود على المرأة في سياق وثنى (٣)
 في فؤادى الرحيب . . . معبد للجسمال
 شيدته الحمياه . . . بالرؤى والخيمال
 فتلوت الصلاة . . . فى خشوع الظلال
 وحرقت المخسور . . . وأضأت الشموع .

وأشد ايغالا فى التحلل من الوجدانية الاسلامية ما نجده فى قصيدته " صلوات فى هيكل
 حب " (٤) قال يخاطب محبوبته ويقيمها مقام اللوهمية فى القدس والعبادة ، والقدرة والارادة

- (١) الفكر - ديسمبر ١٩٥٩ م - ص ٣٤ .
 (٢) الديوان ص ٢٥ .
 (٣) الديوان ص ١٦٠ .
 (٤) الديوان ص ١٢٢ - ١٢٣ .

- أنت قدسى وممبدى وصباحى . . . وربىمى ونشوتى وخلودى
 يا ابنه النور ، اننى أنا وحدى . . . من رأى فيك روعة المعبود (١)
 فدعبنى أعيش فى ظلك الغنىذ . . . ب وفى قرب حسك المشهود
 وارحمينى فقد تهدمت فى كسو . . . ن من اليأس والظلام مشيد
 وحرام عليك أن تسحقى آ . . . مال نفسى تصبولميش رغيذ
 فالآله العظيم لا يرجم المبيد . . . د اذا كان فى جلال السجود

على أن الشابى ما استطاع أن ينفلت من الدين مرة واحدة ؛ انه ظل يصوم رمضان على الرغم مرضه . وكذلك ترك الموت فى قلب الشابى رهبة لم تستطع مظاهر الطبيعة أن تلفته عنها
 ستيقن جلال الله فهو يوقل : (٢)

- ان من أضى الى صوت المنون وصدى الأجدات
 ليس تستهويه ألحان الظهور ،
 بين أزهار الربيع الساحرة ،
 وابتسامات الحياة الساخرة ،

عن جلال اللسه !

ان الشابى قد استبقى من التراث الدينى قضية القضاء والقدر وحدهما ، وهذا أمر بين
 سبب ، منى الشابى يرمى لا يرجى منه شفاء ، فلم يستطع الثورة على حاله الطبيعية المرضية
 اثار على حاله النفسية والاجتماعية . انه كان يظن أن كل شىء فى العالم يمكن أن يتبدل
 ا شياء الإرادة الفردية أو الشعبية أو تبديله ، ولكنه لما اصطدم بحقائق الحياة الطبيعية
 صف فى قيود المرض ، أدرك أن " هذه الارادة " عاجزة عن تبديل ما قد جرى به الزمن الأول
 ماد يطمئن نفسه بصحة القدر . ان فى الأبيات التالية اذعانا للقضاء والقدر ، ورضا بما جرى
 القلم الأزلى (٣) .

مالس تمذبنى الحييا . . . كأتنى خلق غريب !

واذا سألت : لم الوجو . . . د وكه هم مسذيب ؟

قالت : نوايس السما . . . قنت ومالك من هروب !

واذا كان الشابى يحاول أن يتمرد على نتائج القضاء والقدر ، فانه مقتنع بأن هذه النتائج

د ها الى أمر أقره القدر نفسه ان هو يقول فى احدى قصائده (٤) .

سأعيش رغم الداء والأعداء . . . كالنسر فوق القمة السماء

وأقول للقدر الذى لا ينثنى . . . عن حرب آمالى بكل بلاء

(١) النور أخذ الالهين فى الديانة المانوية " النور والظلمة " .

(٢) الديوان ص ٨٣ .

(٣) الديوان ص ١٧٩ .

(٤) الديوان ص ٢٦ - ٢٧ .

وبعد هذا الكفاح الظاهر يعود فيستسلم للقدر ، إذ لا يجد بدا من الاستسلام مادام
شيء يجري هذا المجرى المكتوب .

والقضاء والقدر لا يكون عند الشابي في الخير أبدا ، بل في الشر دائما إذ يقول (١)

لا تحاول أن تنكر الشجوة ، انى . . . قد خبرت الحياة خبر أديب

كن كما شاءت السماء كئيــــــــــــــــبا . . . أى شيء يسر نفس الأديب ؟

انما الناس فى الحياة طيــــــــــــــــور . . . قد رماها القشايوا د رهيب ؟

يعصف الهول فى جوانبه الســــــــــــــــو . . . د فيقضى على طدى المندليب

ان استسلام الشابي للقضاء ولقد رءه لم يطالع الشابي على سرهما ، ولا حل له لفز الحياة

للقاءه فى الحيرة والشك ولا يفي اليأس ، فتراه يقول : (٢)

أرى هيكل الأيام يعلو مشــــــــــــــــيدا . . . ولا بد أن يأتي على رأسه الهدم

فيصبح ما قد شيّد الله للــــــــــــــــورى . . . خراباً كأن الكل فى أمسه وهم

لتعس الورى شاء الآله وجودــــــــــــــــهم . . . فكان لهم جهل وكان لهم فهم

ولما أفاق الشابي من النوبة الشديدة التي انتابته عام ١٩٣٠م ، نظم قصيدته " الى الله " (٣) فشطح

بها شطحة هي الالتماد قال :

خبروني هل للورى مــــــــــــــــن اله . . . راحم - مثل زعمهم - أو اه !

اننى لم أجده فى هذه الدنيا . . . فهل خلف أفقها من اله ؟

ويدرك الشابي النزلق الخطر الذي وخبغ قدمه عليه قبل أن يرتد نفسه عن البيت الثاني ، فيقول

عده مباشرة : (٤) :

ما الذى قد أتيت ، يا قلبى البــــــــــــــــا . . . كي ، وماذا قد قلت يا شفا هي ؟

يا الهى قد أنطق الهم قلبــــــــــــــــى . . . بالذى كان ، فاغفر ، يا الهى !

وإذا كان عمر فروخ قد رأى أن الشابي يتحلل من الدين فى بعض الأحيان وأفقده الألفاظ الدينية

دسيتها ، ولم يظهر أثر لتدينه فى شعره كما مر من قبل ، فاننا نجد باحثاً آخر ، بل باحثاً تذهب مذهبا ؟

غاييرا لفروخ ، إذ لا ترى الدكتور - نعمات أحمد فؤاد - فى كتابها شعب وشاعر أثر لعدم التقيد بالدين

فى شعر الشابي وخاصة فى قصيدته التي يقول فيها : (٥) .

أنت قدسى ، ومعبدى ، وصباحــــــــــــــــى . . . وربىمى ، ونشوتى وشــــــــــــــــودى

يا اينة النور ، اننى أنا وحــــــــــــــــدى . . . من رأى فيك روعة المعبود

وحرام عليك أن تسحقى آــــــــــــــــما . . . بل نفسى تصبو لميشر ، رغبيــــــــــــــــد

فالآله العظيم لا يرحم العــــــــــــــــبد . . . إذا كان فى جلال الســــــــــــــــجود

(١) : الديوان ص ٨٣ .

(٢) : الديوان ص ١٦٤ - (٣) الديوان ص ٩٨ - ١٠١ .

(٤) : يعمر فروخ - الشابي شاعر الحب والحياة .

(٥) : الديوان - ص ١٢٢ - ١٢٣ .

فهي ترى أن الشابي يرى في الجمال مظهر قدرة الله ويرى في الجمال روعة المعبود ، وترى أن لا
 دقة ولا تحلل في البيت الأول " أنت قدسي --- معبدى " بل واضح من الرفيف الشعرى أنه تمبد
 عبادة حقيقية دينية وأما في البيت الأخير فإن المرش للهنا فيه تعظيم ، فهو يتوسل بالمعظم المتعالي
 أن يجعل منه مثالا يرجو الحبيب أن يتطلع اليه ويتأثر به .

وتصنيف قائلة بأن العمرأعلى وأضيق معا من تبديده في تصيد حرفية لفظ هنا وهناك --- وحرام
 في شرعة الدين وفي شرعة الوطنية وفي شرعة القومية العربية العامة ، أن نشوه أصوات المقاومة في نواحي
 لوطن العربي ، بأحاديث لفظ قصاراه أن يشوشه ، ولكن هيئات أن يحول دون نفاها إلى القلوب وإلى
 لتاريخ ، تاريخ المقاومة الشعبية في إفريقيا .

فماذا على الشابي ، حتى يكون موقفه فيما يتعلق بالدين فيما يتعلق في أشكاله المختلفة ، واضحا
 لا يحتاج إلى تعليق إلا أنه قال :

ملئ الدهر بالخداع ، فكم قد ظلل الناس من امام وقسس

والباحث لا ترى أن نقد الشعراء للإمام والقس في البيت المذكور نقدا للاسلام والمسيحية
 بل إن الألفبايان المساوية كلها صفاً وخبر ومحنة ، ولكن معتيقها (وبعضهم على الأقل شئى
 آخر وتفترف أن فروخ عاد واعترف بأن الشابي وإن كان قد ادار ظهره للدين ولم يكفر
 بالله ولم يكن زنديقا ، بل ظل له شئ من الايمان (بالمعظم المجهول) وإذا كان الشابي
 شديد الايمان بالآيات الآتية :

ان من اصفى الى صوت المنون --- وصى الاجاث .
 ليس تهويه الحان الطيور
 بين ازهار الربيع الساحره
 وابتسامات الحياة الساخره
 عن جلال الله .

فإننا نراه في المقطوعتين التاليتين قد تحلل من مدلول الالفاظ الدينية تحللا تاما ، ورفع
 المحبوه إلى مكان الألوهية ، أو انزل الله إلى درك المحبوب المادى ، فهو كفر أو تزندق على
 الأقل في رأى فروخ عندما قال الشابي :

فى فؤادى الرحيم --- معبد للجمال
 شيدته الحياه --- بالسروى والخيال
 فطوت الصلاه --- فى خشوع الظلال
 وحرقت البخور --- واضأت الشموع

وهو أشد إيغالا في التحلل من ذلك في قصيدته المشهورة (صلواتك فى هيكلى الحب)
 فهو يخاطب محبوبته ويقمها مقام الألوهية في القدس والعبادة ، وفي لقدرة والا رادة ، وفي الشفاعة
 والزلفى إذ يقول :

أنت أنشودة الأناشيد غنا لك اله الفناء رب القصيد
 أنت قدسي ومعبدى وصباحي ورهيمي ونشوتي ، وخلو دى
 يا ابنة النور اننى أنا وحدي من رأى فيك روعه المعبود

فدعيني أعيش في ظلك العذب . . . وفي قرب حسنك المعبود
 عيشة الناسك البتول يناجي الـ . . . ونسوة الدهول الشديد
 وامنحيني السلام والفرج الرو . . . هي ، يا فتوى فجرى المنشود
 وارحميني فقد تهدمت في كـ . . . من اليأس والظلام . . . مشيد
 فحرام عليك أن تسحقني . . . مال نفس ، تصبولعيش ، رغبت
 منك ترجو سمادة لم تجدها . . . في حياة الورى وسحر الوجود

فالله العظيم لا يزعج العبد . . . اذا كان من جلال السجود

فالباحث ترى أن الشاعر لم يخلع على حبيته القدرة والارادة ، وسائر الصفات الالهيه ، بل
 ن شمره الفزول يرددون مثل هذا وأكثر منه ، وان لكل انسان قدرة بل قدرات و ارادة ، ولو
 م يكن له قدرات و ارادة فكيف يحاسب ؟ وترى أن لا تشبيه بين قدرة الحبيب كشر و قدرة الله
 تعالى التي ندين لها بدون حدود . وتستشهد الباحثة على رأيها برسالة سأل فيها الحليوى
 الشايبى رأيه فى بيت قاله :

حامل كلاله قلبها كبيرا . . . فيه ما فى الوجود لمن اكوان

فجاءه جواب الشايبى فى هذه السطور : (١)

" ان الفنان يا صديقى ، لا ينبغي أن يفضى لغير ذلك الصوت القوى العميق الداوى فى أعماق
 قلبه ، أما اذا أفضى الى الناس وما يقولون ، وسار فى هاته الدنيا بأقدامهم ، ورأها بأبصارهم
 أفضى اليها بأنانهم ، فقد كفر بالفن ، وخان رسالة الحياة .

ولو شئت أن أسوق الأبيات التي لى ، على غرار بيتك هنا ، فى التشبه بالاله والأكبه لأكثر ،
 فخرج من القلم عن غايتى ، ولكك سترى ذلك فى الديوان ان شاء الله : وانى لأعق ايماننا بالله
 من كل أحد حينما أعير بهاته التماهير الكافرة ، فى نظر اولئك الناس ، فاللوهية وما تعرف منها
 فى رمز للمثل العليا ، التي نصبوا اليها بأرواحنا ونشخر اليها بأبصارنا فى هاته الحياة
 لذلك فاذا أردنا أن نعبر عن معنى نحس له بجلال المثل الأهلئ وسيموه فانما سبيلنا فى
 ذلك أن نفرغ عليه رداء اللوهية التي هى أسى ما تتصوره الانسانية من جمال المثل الأعلى وجلاله
 فكان فروخ لم يطلع على هذه الرسالة ، والتي توضح رأى الشايبى فى الألفاظ التي خرجت حرفية
 فظها عن معناها ، والا لما اتهم الشايبى بالتحلل من الدين .

والحياة والموت كلاهما جنى على الشايبى ، فلا الحياة مدت له من أسبابها ، ولا الموت تباطأ
 أسهله ، حتى يقضى وطرا أو لعلها أحسن اليه فلولا أن ألهته الحياة بأشواقها
 وخوفته بأشواقها ، ولولا أن نازله الموت مرتين ظافرا من المعركتين بأبيه وحبيبه ، ثم ظل يطارد
 فى الشصور والخيال لولا هذا كله فيما يبدو ، لما عزفنا به ، ويكى وتره ، وضم ديوانه
 هذه الأنغام التي نصيتر ، فى جوها وصدائها الى يومنا هذا (٢)

(١) مجلة الفكر عدد ١ أكتوبر عام ١٦٥٦ م ص ١٠ - ١١ - ١٢ .

(٢) شعب وشاعر - د . نعمات أحمد فؤاد .

أثر مدرسة أبوللو على الشاهي :

قبل الحديث عن أثر مدرسة أبوللو على الشاهي لابد من لمحة موجزة عن مؤسس المدرسة واتجاهاته الأدبية .

أحمد زكي أبو شادي * ١٨٩٢ - ١٩٥٥ م *

أقفل عينيه في عام ١٩٥٥ م بعد أن فتح عينونا كثيرة كما يقول " مصطفى عبداللطيف السحرتي في كتابه شعراء مجددون " .

ذلكم هو الدكتور أحمد زكي أبو شادي ، الذي خلف تراثا فنيا قيما ، وتراثا إنسانيا من الشرف والتضحية والآباء وانكار الذات .

هذا الفنان الموهوب ، والرجل الانساني الذي توحد الفن بحياته وشخصه ، فكان كلالا لا يتجزأ .

فلقد جرى الفن في دمه ولحمه وهو في ميعة الصبا ، ورف بهوانحه الاحساس الفسني في البكور ، وذلك راجع الى الهيئة الأدبية الناضجة التي تربى في حجرها ، فلقد تأثر بشاعرية أبيه الكلاسيكية وطلحته ، وتأثر بأسلوب أمه الماطفي وطبيعتها ، كما تأثر بأسلوب خاله مصطفى نجيب ووطنيته .

وارتوى الفنان الصغير من ندوات أبيه التي كان يعقدها أسبوعيا في قصره بالقبة ، والتي كان يؤسها كبار أدباء مصر ، وعلى رأسهم خليل مطران الذي تأثر أبو شادي بفننه والتجديد ، كما تأثر بمثاله الخلقى الكريم ، وفي ذلك يقول أبو شادي في ديوانه الأول ، " أنداء الفجر " الذي أخرجه في عام ١٩١٠ م .

أدهى يدين اليه . . . هل قلبي وغاية مطمعي

وقوام تفكيرى الجديد . . . د ووثتى وتدققسى

في هذا الديوان المبكر الذي أخرجه في سن السابعة عشرة ، يمثل لنا نبوغ الفنان الباكر ونلمس الحساسية الفنية ، تتألق من ومضات التجديد والطلاقة التفسيرية في بعض قصائده الفزلية والوطنية والوصفية ، فاذا تصفحنا قصيدته " باقة أنغام " التي يصف بها حبيبته الصغيرة وهي تتوقع على البهان نراه يصف الألحان أوصافا غير مألوفة فيصف اللحن باللون المضيء ، ويصف لنا لحننا آخر بالعطر ، ويصف الألحان مجتمعة بباقة الزهور فهو يقول :

أصغى الى هذه الألحان زاهية . . . كأنها نخب الأزهار للعين

فكل لحن له لون يضيء به . . . وجمعها باقة من زهر ك الفنى

وكل لحن له عطر يفوح به . . . وان تخيله غيرى من الظن

وأنت كوني وكونى في حقيقته . . . جم المعانى التي غابت عن الكون .

هذه الجرأة الأدبية والاتجاه الى المفارقات الوظيفية ، وهذا التركيز فى المعانى ، تكشف عن بذرة فنية أصيلة توشك أن تخرج الى النور فى ازدهار واثمار .

وقد زكت البذرة فى الهيئة الصغيرة ، وارتوت من ثقافته المصرية والانجليزية المبكرة ، واتقدت من حب عذرى وليد ، وترعرعت فى جو من الحرية ، وتفذت من ممارسة الموسيقى والتصوير فى البكور

وكان تشوقه للقراءة والتزود من كتب الآداب الغربية من العوامل التي دعمت فنه وأدبه ، وتجلت آثارها في كتبه الثرية ، " مسرح الأدب " " وأصداء الحياة " كانت جوهرها نفيسا في صلب صنائعه الفنية ، فما خلا شعره من حقيقة علمية أو سيكولوجية أو واقعية .
ولا قوام لفن بدون علم وثقافة ، وحبه العذرى لاحدى قريباته ، كان أول حوافز شاعريته ثم سار ينبوعا ثرا من ينابيع غزله في شبابه وكهولته وشيخوخته ، فهو في البنية يتزعم بهذا الحب في مثل قصيدته " عبادات " فيقول :

المعنى كلما ألقا . . . ك بالفرحة تدمع .

وتستمر في الكهولة شعلة الحب في قلبه فيقول :

ربع قرن مضى وهيهات تمضى . . . شعلة الحب عن وثوب وومض

لم أزل ذلك الفتى في جنون . . . وفؤادى ينبضه أى نبض

ذكريات الهوى وأشباحه النشـ . . . وى أماسى فى كل صحو وعسفى

فهو فى الشيخوخة تندلع بقلبه الشعلة فى قصيدته " قلب لا يشيب "

عذت قلبى يا حبيبى . . . من أن يكدر بالمشيب

ذنبى لندك تلهفى . . . هل ذاك ذنب يا حبيبى

تجرى السنون ولم تذل . . . طفلا تنزه عن مشيب

أما ميله الى التصوير ، فقد سرى الى قلبه فى البنية ، وتجلى فى شعره التصويرى الذى لا يجاربه فيه شاعر ، فلم يخلو ديوان من دواوينه من بضع صور لرسمامين عالميين أو مصريين عبر أبو شادى عن مشاهدنا وحلل معانيها ، وكشف عن أسرارها فى دقة وقوة ملاحظة منقطة النظر ، وقد انتهى به هذا الميل ، الى التصوير بالريشة ، فرسم فى نيويورك لوحات زيتية رائعة ، وأقام معرضا للرحالة بنويويورك عام ١٩٥٢م أعجب به الرسامون ، وأعجبوا بفنه التصويرى القوى الجري وأشادوا بموضوعاته البنية واقعية ومثالية ورمزية .

وقد وقفنا على بعض الصور مصفرة لهذه اللوحات ، ومن بين ما افتتنا به لوحة " القلب الكبير "

وهى لوحة واقعية مثالية " تحمل رسالة " .: رسم الفنان قطاعا من حديقة حيوان فى الربيع

الأشجار فيها مزدهرة والسنباب الفرح يتناول بندقا من يد سيدة ، والسيدة مع طفلها فى سعادة

والطفلان يلهوان بناطيد ملونة ، وفى خلفية اللوحة أسد حبيب بين القضبان ، ملك الغابة يمانى

من الأسر ، والسنباب فى فرح ، والأطفال فى سعادة ، فها لعجائب الدنيا ومفارقاتها المؤسفة!

ولقد كان من حسن حظ الفنان أن يعيش فى ربيع إنجلترا وفى حضان ريفها الجميل عشر سنين ونيف

اكتلت فيها عناصر فنه وازدهرت : توسعت آفاقه الفكرية ورمت ثقافته ، وتنوعت تجاربه ، وعمقت تأملاته

وقويت ملاحظته ، ودرجت بدراساته الطبية وبخاصة أبحاثه المجهرية ، حتى أصبحت عينه أشبه بالمجهر

ترى المعجائب والدقائق فى الأشياء والأحداث وطبائع الناس .

ولما نال أجازته الطبية عام ١٩١٥م وشهادتى شرف من جامعة لندن عام ١٩١٦ - ١٩١٧م

ووجد العمل فى مهنة الطب مستمعا عليه فى إنجلترا تحول الى النحالة . وكان رائدا من روادها

فى إنجلترا ، وقد تعلم من النحالة جدها واتقانها وتماونها .

عاد أبو شادي الى مصر عام ١٦٢٢ م. لمرض والده الشطير ولأناه من الروماتزم المفصلي ، وعاد الفنان لانسان ليفتح عين بيئته التي خاط الأذى أجفانها ، يفتحها على نهضة البتداعية سليمة مشرقة ، ليشر بألوهة الجمال والاندماج في الطبيعة ، وحركة الفكر ، ومجاهدة التقاليد الآفنة العفنة ، وعاد بشدها بمعانيه الجديدة العريقة وتجديده الغنية ، التي لم يعرفها جيل من الأدهاء الكبار ، من هذه تجديدهات وصق الشيء المادي بالمعنوي ، ووسم المادي بسمة من سمات الانسان كما جاء في قصيدته لفنان " التي يخاطب فيها حبيبته في موسيقة أسرة ، وطلاقة بيانية يقول : (١)

أطلي يا حياة السـرو . . . ح في عيني تحيي
شراي منك أقـسوا . . . وقوتي أن تناجيني
أطلي وانتظري شففى . . . ترى معني عباداتي
عبادات خصصت بهـسا . . . وفي عيني مراآتي

عاد ينفخ البيضة بترجمة الهسات ، والخوالج النفسية بما لاعهد لها به كما نجد ذلك في مثل قصيدته " أحلام الظلام " التي يترجم فيها عن نفسه وعواطفه عند الوداع والتي يقول فيها : (٢)

وتفة كوقفه الدنيا اناسا . . . أراح بها السلام لي الحمام
وصاهي غير لحظة مستمز . . . ولكن قلبه دام . . . ود ا م
ويجرى النور في لون عجيب . . . على وجنا تناجسرى المدام
فسكر في صحن الميا سرحتى . . . كأن اليأس من سكر الفوام
وأشرب حسرتي الكبرى دوا . . . وان كان الدوا من الفـرام

ولم يقف أبو شادي عند التجديد الفني ، بل شده البيضة الجامدة بأرائه المتحررة الجريئة ، شدها بشعره الغزلي الذي قد سرفيه جمال المرأة ، بل عد الجمال من عناصر الألوهية أو رموزها ، شدها بشعره صوفي الذى اعتمد على الملم لا على التوهجات والتخييلات والشطحات ، فتمثل وحدة الوجود وحدة قائمة على المعرفة ، شدها بشعر الميثولوجيا ، أو الأساطير القوي اختفى به اختفا شديدا ، لا استقطار حكمة منها ، وشدها بشعره الملي ، الذى خصص له ديوانا أسماه " الكائن الثاني " (٣) ، ونشر منه نرات في دواوينه الأخرى ، شدها بتفكيره الحر ، وقوله الحق ، وحتى كادت كلمة الحق لا تدلح صديقا .
فبينما كان أدهاونا كبار الأسنان يتمسحون بأعتاب الملك فواد ويسهبون بصدده ، وجه اليه هذا موظف المتحرر قصيدة في أحد أعياده ، يدعوه فيها الى رعاية الشعب ، والنظر الى بؤس الفلاح ، قد كتبها في شبه ارتجال ، وما جاء فيها قوله :

الشعب أن بما يعساني ريفه . . . وكأنه قفـسـريلا سكان
والعابثون الصائحون تنعموا . . . فكأن هذا الريف ليسهاني
والزارعون المحسنون ترغـسوا . . . في القرب كالموتى بلا أكفان
ختتمها بقوله :

فاقبل رجائي فهو أنبل غاية . . . عن كل مدح لا يثيب رجائي
واسمعه صوت الشعبين فمـشاعر . . . يا أبى ربا الماد حين ابا .

(١) ديوان أطيان الربيع - الفنان ص ٣٢ . (٢) ديوان فوق العباب ص ٨٥
(٣) : أخرجه في يناير سنة ١٩٣٥ م .

وهكذا ظل أبو شادي نصيرا للحقيقة ، بل مجنونا بحبها ، وظلّ وقفاً لها بدء الرفيعة لا يتخلى عنها فكم خاصم وخاصم أدباءً لانحرافهم عن الجادة ولكنه كان منصفاً أميناً عادلاً في وزن أدبهم ومناثمهم الفنية ، والتزاهة الفكرية أعلى سمات الفنان . وكتم حمل على زعامة كانت تربطه بهم أو أصراً أسرية قوية لانحرافهم عن أهداف الشعب ، لأن المبدأ عنده أرفع من كل آصرة ومن كل قرابة ، وكتم ذالقي الجحود والمقوق والذدر من أناس عاندهم أدبها ومالها ، ولكنه كان في النهاية يصفح عنهم وينسى أساءاتهم ، لأن الذي يعترف الكل ينفرد للكل كما يقول المثل الغربي ، أو كما يقول في قصيدته " محال " (١) .

محال أن تحاول هدم حبي . . . وان لم ألق بين الناس حبا
 مسحت عن الخصوم وان أساءوا . . . وكادوا واعتبرت لكل صحبا
 لهم أسفروا واشفاقي وقلبي . . . وان لم يعرفوا أسفا وقلبا
 ومهما خلقتي أشكوباً سي . . . ذنوب الناس خلعت اليأس ذنبا
 سيظوننا الزمان وكل ذنب . . . سيمحوه الزمان لمن تأبى

ومن هذا نشهد كيف اقترن فن الرجل بانسانيته وكيف قويت ملاحظته ، وودق تحليله ، وتدعم أدبه بثقافته ، وكيف علا أدبه بأمانته ونزاهته الفكرية وكيف تقوت أصالته وحرية فكره وغرامه بالحقيقة ، وسمات الفنان الحقيقي :

الحاسة الفنية ، ودقة الملاحظة ، والحياد الفكري ، امتزجت بسمات الرجل : انسانيته وتضحيته ومحبته ، وورقته ، وثقافته ، فأصبح الفنان والرجل كمالاً لا يتجزأ . (٢) .

هذا هو أبو شادي مؤسس مدرسة أبوللو ورئيسها ، والذي كان له الفضيل الأكبر في نشر شعر الشابي .

صلة الشابي بأبوللو ورأى رئيسها ومؤسسها فيه :

=====

أبو القاسم الشابي الشاعر التونسي المشهور المشوف في (٩ أكتوبر سنة ١٩٣٤ م) هو أحد الشعراء الذين عنيت مجلة أبوللو قبل سواها بإبراز فنه ، ويقول أبو شابي من حديث له بصوت أمريكي عن الشابي :

" ان ما نؤثره هو انسانيات هذا الشاعر المحلق ، الذي لم تنفقه أحلامه عن النزول الى ميدان المجتمع والسير في مواكب البشرية ، عازفاً مشجماً ها ديا ويعجب أبو شادي بروائع الشاعر اعجاباً كبيراً وليس هذا يعجب من أبي شادي الذي يقدر المواهب الأدبية حق قدرها ، دون تأثر في حكمه عليها بضجيج أو عصبية أو جاه ، ولقد فسح أبو شادي صدر مجلته للشابي وهو حي فلما مات الشابي نشر عنه الكثير من الدراسات والبحوث (٣) ، ولأبي شادي قصيدة يرثيه بها فيقول فيها :

أبا القاسم الشابي ، أبا القاسم الشابي . . . مكانك في الأخرى مكانة أرياب

(١) أطراف الربيع ص ١٣٢ .

(٢) : شعراء مجردين - مصطفى عبد اللطيف السحري - ص ٥٥ .
 (٣) : راجع مجلة أبوللو عدد ديسمبر سنة ١٩٣٤ م .

أبي الخالق الفنان جلت فنونه . . . لملك الأجلد في دار أهاب
وما المبدع الفنان إلا أشمّة . . . من الله لم ترجع كرجمة غمّاب
سقتنا رحيق الفن صرفا وودعت . . . فأين مذاب النور يملا أكوابي
كان أغاني الكون قد غالها البيرو . . . فطاحت كما طاحت أنا شهيد أهاب
أست الذي ناجى الطبيعة كلها . . . وترجمها سحرا سريرا لأهاب
أست النى غنى الأثوة كمنما . . . يعبر عن أسى الصلاة بمحراب
أست الذي قد عاش في الناس بلا خطا

وفي الفن سرورا وجيدا بأوصاب

رحلت صديقي بعدما جئت موصيا

بشعرك فأرحل غير خاش وهيباب

أنا حارس الفن النى أنت ربه . . . وهيبات خذلاني مواهب وهيباب
ويقول أبو شادى عن الشابي :

" إن لأبي القاسم رواة كثيرة ظفرت "جمعية أبولو" ومجلتها التي عنيت قبل سواها بإبراز فنّه
ظفرت بالقسط الأوفر منها ، وانه لتصعب المفاضلة بين قصائد هذه ، فجميعها يتسم بالجمال الفني الأنيق

بكل مل عناصره . أنوثر قصيدته "صلوات في هيكل الحب" (١) التي يقول فيها :

عدّبة أنت كالطافولة كالأحلام كاللحن كالصباح الجديد

كالسماء الضوكة ، كالليلة القراء ، كالوردة كابتسام الوليد

ياله من وداعة وجمال ، وشباب منعّم أطموه

ياله من طهارة تبعت التقدير في مهجسة الشقي المنيد

أم نوثر قصيدته الفلسفية الواقعية " السعادة " التي يقول فيها :

ترجو السعادة يا قلبي ولو وجدت . . . في الكون لم يشتمل حزن ولا ألم

ولا استحالت حياة الناس أجمعها . . . وزلزلت هاتما لا كوان والعظم

خذ الحياة كما جاءتك مبتسما . . . في كهها الفار أو في كهها المدم

وارقد على الورد والأشواك ستيدا . . . غننت لك الطير أو غننت لك المرجم

أم نوثر قصيدته " الأشواك التائهة " (٣) وقد جمعت بين ألوان من اليأس واحتقار الوجود إذ يقول :

يا صميم الحياة كم أنا في النيا غريب ! أشقى بفرية نفسي

بين قوم لا يفهمون أنشيد فؤادي ، ولا معاني بؤسني

في وجود مكبل بقيود تائهة في ظلام شك ونحس

فاحتضني ، وهضمتي لك بالماضي فهذا الوجود علة يأسني

أم نوثر قصيدته الجنة الضائعة والتي يذكر فيها عهد الطفولة ، (٤) ويبرزه عرضا فنيا بديما بصورة

الفاتنة المنوعة ثم يختتمها بهذه الحرفة :

(١) مجلة أبولو - المجلد الأول ، أبريل سنة ١٩٣٣ م ص ٨٤٨ . (٤) مجلة أبو للو - المجلد الأول

(٢) مجلة أبولو - المجلد الأول - أبريل سنة ١٩٣٣ م ص ٨٦٨ .

(٣) مجلة أبولو - المجلد الأول - مايو سنة ١٩٣٣ م ص ١٠٢٤ .

قد كنت في زمن الطفولة والسذاجة والظهور
أحيا كما تحيا البســــــــــــــــــــلابل والجداول والزهور
لا نحفل في الدنيا تدور بأهلها أو لا تدور
واليوم أحيا مرهق الأعصاب مشبوب الشعور
نتأجج الاحساس، أحفل بالمعظم وبالحقــــــــــــــــــــير
ششي على قلبي الحياة، ويزحف القوم الكبير
هدامصيري، يابني الدنيا، فما أشقى المصير!

أم نؤثر قصيدته ٢ لأبد الضير" (١) ، المعجمة بالتأملات الفلسفية الوجدانية ، وبها يخاطب
دنيا : يا قلبه :

يا قلب كم فيك من دنيا محجبة .. . كأنها حين بيد وفجرها ارم
يا قلبكم فيك من كون قد اتقدت .. . فيه الشوسوعا شتفوقه الأسم
يا قلب كم فيك من أفق تنمقــــــــــــــــــــه .. . كواكب تتجلى ثم تنمد م
يا قلبكم فيك من قبر ، قد انطفأ ت .. . فيه الحياة ووضع تحت الرحم
يا قلباً ! كم فيك من غاب ومن جيل .. . تدرى به الريح أم تسوبه القم
يا قلب ! كم فيك من كهف قد انجست

منه الجدول تجري ما لها الجم

تمشي ، فتحمل غصنا مزهرانثرا .. . أووردة لم تشوه حسنها قدم
أونحلة جرها التيار مندفع سا .. . الى البحار تضي فوقها الديم
أو طائرا سا حراميتا قد انفجرت .. . في مقلته جراح جنسة ود م
يا قلب ! إنك كون مد هشي عجب .. . ان تسأل الناس عن أفاقه يجهبوا
كأنك الأبد الجهول قد عجزت .. . عنك النهى ، واكهرت حولك الظلم

أم نؤثر قصيدته ٣ المشككة الحائرة " في ظل وادي الموت" التي يتشوق في ختامها الى تجربة العدم :

ثم ماذا ؟ هذا أنا صرت في الدنيا بعيدا عن لهوها وغناها
في ظلام الفناء أرقق أيامي ، ولا أستطيع حتى بكاهها
وزهور الحياة تهوى بصمت محزن مضجر على قديــــــــــــــــــــسا
جف سحر الحياة يا قلبي الباكي فهينا نجرب الموت ، هتيا ؟!

أم نؤثر قصيدته ٣ الحانه السكرى" (٢) - العذبة العيقة التي يقول في ختامها :

أيها ! الدهر ! أيها الزمن الجارى .. . الى غير وجهة وقرار !
أيها الكون أيها الفلك النوار .. . بالفجر بالدجى والنهار !

(١) : مجلة أبو لؤلؤ - المجلد الأول - يونيو سنة ١٩٣٣ م ص ١١٤٦ .

(٢) : مجلة أبو لؤلؤ - المجلد الثاني - يناير سنة ١٩٣٤ م ص ٣٩٠ .

أيها الموت أيها القدر الأعمى ! . . . قفوا حيث أنتم أو فسيروا
وبعونا هنا : تغني لنا الأحلام والحب والوجود الكبير
وإذا ما أتيتوا فاحملونا ولهيب الضرام في شفقتيننا
وزهور الحياة تعبق بالعطر، وبالسحر، والصبأ في يديهننا !

أم تؤثر قصيدته الواقعية المريرة " الناس " (١) التي تشجى منها زفرته :
ما قد سأل المثل الأعلى وجملة . . . في أعين الناس إلا أنه حلم
ولو مشى فيهموا حباً لحطه . . . قوم ، وقالوا بخبث أنه صنم
لا يعبد الناس إلا كل منعدم . . . ممتنع ، ولمن حابها هو العدم
حتى العبارة الأقدان حبه . . . يلقى الشقاء ، وتلقى مجدها الرمم
الناس لا ينفون الحي بينهم . . . حتى أنا ما توارى عنهم نله موا
الويل للناس من أهوائهم أبدا . . . يمشي الزمان وريح الشر تحتدم !

أم تؤثر قصيدته الرائعة " من أغاني الرعاة " (٢) التي جاءت من وحي استشفائه " بعين دراهم " في الشمال التونسي ، وكل بيت من أبياتها صورة شعرية . . . متألقة بجمال الطبيعة التي كانت تحتضنه وترعاه في مرضه بين جهل وأودية وغابات ، وفيها يخاطب شياحه وخرافه بأعذب الألحان ؟
أم تؤثر قصيدته الشامخة " مشيد الجبار أو هكذا غنى بروفينوس " التي يرد فيها على حساده الشائنين ويقول عن نفسه بعد ماته :

فأنا السعيد بأني متحول . . . عن عالم الآثام والبغضا
لا ذوب في فجر الجمال السرمدي
وأرتوى من منهل الأضواء !

قصيدته

أم تؤثر التأمليّة العاطفيّة الرواية الضريبة وأبيتها الحاملة بين العواصف وكلها آيات من الرقة والحساسية والرومانطيقية الجميلة الساحرة . (٣)

أنا نؤثره هو انسانيات هذا الشاعر المحلق الذي لم تعقه أحلامه عن النزول الى ميدان المجتمع ، والسير في موكب البشرية ، عازفا مشجعا هاديا مهيبا بالصاغرين ان يقول :
إذا الشعب يوما أراد الحياة . . . فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل ان ينجلي . . . ولا بد للقيد أن ينكسر
إذا ما طمحت الى غاية . . . ركبت العنى ونسيت الحذر
ولم تتجنب وعور الشعب . . . ولا تبعه اللهب المستعر
ومن لم يحب صعود الجبال . . . يمشى بهد الدهر بين الحفر !

ولم تنزل قصائده الموجهة الى الشعب ترانيم سماوية خالدة ، وان سكن جثمانه القبر ! ، ومنذ نيف وأربعين سنة كان شاعر شاب مفجوع في حبه ، يتسمع الى أنغام تخفتى وتظهر على التناوب

- (١) مجلة أبوللو - المجلد الثاني - فبراير عام ١٩٣٤ م ص ٤٨١ .
(٢) مجلة أبوللو - المجلد الثاني - مارس عام ١٩٣٤ م ص ٦٠٨ .
(٣) مجلة أبوللو - المجلد الثامن - فبراير عام ١٩٣٤ م ص ٤٨١ .

فى الظلام ، ثم عرف بعد ذلك انها موسيقى المرس لحييته الهاجرة ، فنظم قصيدته المشهورة " عرس المأتم " التى تأثر بأسلوبها الأصيل شعراء كثيرون ، فى مقدمتهم الشاعر التونسى النايفة أبو القاسم الشابى ، وما كان ذلك الشاب الا الشاعر المصرى " المغترب الآن فى أمريكا " أحمد زكى أبو شادى .

وقد جاء فى مطلع تلك القصيدة المؤثرة التى نشرها الأستاذ حسن صالح الجداوى فى ديوان " زينب " :

عذبة أنت ، فى الخفاء ، وفى الجهر ، وفى الهجر يا أغانى الظلام
بلغنى الماشق الأمين على المر شقاء لقلبه الهستهم
وارقتى أدمى ، فحسبى عزاء أن تُسّر الحبيب من ايلامى
ويوف الجمال ، جنة قلبى ، ضاحكا من فؤادى المترامى

أما رأى الشابى فى صديقه الحميم أحمد زكى أبو شادى وفى شعره فيتلخص فى فيما جاء فى مقدمة ديوان الشابى " النبوع " الصادر عام ١٩٣٤ م . ، قال طيب الله ثراه بعد مقدمة عن " الأدب فى المصر الحاضر " وبمد مقارنة بين الأديبين القديم والحديث :

" . . . أبو شادى كشاعر من شعراء هاته المدرسة الجديدة ، له مذهبه ، وأسلوبه ، وروحـه الخاصة الممتازة .

أما مذهبه الشعرى — فيما أرى ، فهو أن يحرص الشاعر كل الحرص عن التعبير عما يدوى فى أعماق نفسه من أصداء الحياة ، وما يخالجه من وحى هذا الوجود ، وعلى أن لا يضع من ذلك شئ ما استطاع اليه سبيلا .

وأما أسلوبه فهو يمتاز بجمال الطبع والسهولة والبساطة الحرة الواضحة التى لاتحب التكلف ولا تسمى اليه ، وهو يرسله ارسالا لا يتأنق فيه ولا يتعمل ، ويحرص على ما يحرص عليه بعض الشعراء ، من ظهور آثارهم بظهور المترف الأنيق ، ولكنه يحرص كل الحرص على أن يكون صادقا دقيقا فى التعبير عن ذات نفسه ، ولو أدى به ذلك الى الضوضى أحيانا .

وبعد أن رد على النقاد والمفرضين المتجنين قال الشابى :

" وأما الروح التى يمتاز بها شعر أبى شادى فهى روحانية عميقة ، صوفية بهيدة ، المدى واحساس مرهف مشبوب ، وخيال متقل سريع ، وبهذه الروح المركبة نظر أبو شادى الى هذا الوجود " . (١)

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

ليس من شك في أن هذه المكانة العظيمة التي يتمتع بها الشابي اليوم ، إنما يعود الفضل فيها ، أولاً وقبل كل شيء ، إلى الشابي ، والشابي وحده ، فلولا عبقريته ، ولولا ما في أدبه من خصائص تثير الاهتمام وتمتلك الإعجاب ، لما كان له شيء مما هو عليه اليوم من المكانة السامية قى نفوس جيلنا المعاصر ، سواء في الشرق أو في المغرب .

ولكن هل كان أدب الشابي يستطيع منفرداً أن يصل بصاحبه إلى هذه المكانة التي يحتلها اليوم ؟ .

لا مراة في أنه كان من المحتمل جداً أن لا يستطيع أدب الشابي ذلك ، بالنظر إلى الظروف المعاكسة التي حفت به وبصاحبه ، والتي كان من أهمها : رجعية التفكير والأدب في بيئته ، وموت الشابي المبكر ، وضعف الصلات الأدبية والثقافية بين مشرق العرب وغربهم . غير أن حادثاً واحداً كان سبباً مباشراً ورئيسياً في قلب تلك الظروف المعاكسة ، التي ظروف مساعدة ، أسهمت إلى أبعد حد في اعلاء شأن الشابي ، وذيوع شعره واحلاله مكانة سامقة بين شعراء العرب المعاصرين .

أما هذا الحادث فهو اتصال الشابي بمجلة " أبوللو " في مصر ، ووثوق الصلة بينه وبين صاحبها ، الفقيه المرحوم الدكتور أحمد زكي أبو شادي . فعن طريق مجلة أبوللو ، وبما أسداه أبو شادي من رعاية واهتمام بالشابي وشعره ، واستطاع أدب الشابي أن يشق طريقه ، وأن يفرض وجوده بين عشرات ، بل مئات الشعراء العرب في جميع الأقطار العربية .

أما قصة هذا الاتصال الأدبي الخصب ، وذلك الانتشار المصحب فهي تبدأ هكذا : في عام ١٩٢٩ م ، ألقى الشابي في النادي الأدبي بتونس محاضرة عن " الخيال الشعري عند العرب " ثم طبعها ، ونشرها في كتاب صغير ينقش السنة . وبعد حوالي أربع سنوات من ظهور الكتاب بتونس ، وصلت نسخ منه إلى بعض الأديباء في القاهرة ، فكان من صداها الأدبي مقال كتبه الشاعر الناقد الأمان مختار الوكيل ، ونشره في الممدد السابع من مجلة " أبوللو " - مارس " آذار عام ١٩٣٣ م " (١) .

ومجلة أبوللو أنشأها الدكتور أبو شادي لتكون منبراً للشعر ، وميداناً حراً للبحث والنقد في كل ما يتصل بالأدب عامة والشعر بوجه خاص .

ووصل نقد الوكيل إلى تونس ، وقرأه الشابي ، فلم يحتله ولم يصبر عليه ، فكتب من حينه رداً (٢) وأرسله إلى مجلة " أبوللو " ، وأرفق الرد برسالة أدبية فائقة ، وبقصيدتين من روايح شعره هما : " صلوات في همك الحب " و " السعادة " .

وكان الشابي أراد أن يثبت وجوده وشاعريته دفعة واحدة . وكانت بالفعل مفاجأة رائعة

(١) المقال منشور في الباب الرابع من كتاب آثار الشابي وصداه في الشرق - أبو القاسم محمد كرو .

(٢) المقال منشور في الباب الخامس من كتاب آثار الشابي وصداه في الشرق - أبو القاسم محمد كرو .

لصاحب "بوللو" ومحررها الدكتور أحمد أبو شادي ، فما كان يعتقد أن في تونس شاعرا متازا كالشابي ، بل ما كان يظن أن في بلاد الغرب جميعا شاعرا في روعة الشابي وعبقريته الشعرية الخارقة لهذا ما كان ينتهي من الرسالة ومن قراءة " صلوات في هيكل الحب " حتى صاح :

هذا هو الشعر نشدناه ونشده من قبلنا ، فضلوا الطريق وغللنا ، حتى ظفر به الشابي دوننا .

وكان أبو شادي يرقى طريا ويهتز حبورا وهو ينشد :

عذبة أنت كالطافولة ، كالأحلام ، كاللحن ، كالصباح الجديد
كالسما ، النحوك ، كالليلة القراء ، كالورد ، كالبتسام الوليد
يا لها من طهارة تبعث التقديس في مهجة الشقي العنيد
يا لها من بقاء يرف السور من هافي الصخرة الجلود
أي شيء ، تراك ؟ هل أنت فينوس تهات بين الوري من جديد
لتفيد الشباب والفرح المعسول للعالم التمهيس العنيد
أم ملاك الفردوس جاء إلى الأرض ليحيي روح السلام العنيد
أنت ! ما أنت ؟ أنت رسم جميل عبقري من فن هـنا الوجود !
فيك ما فيه من غموفي وعق وجمال مقدر من معبود !

وقد نشر أبو شادي القصيدتين في العدد الموالي ثم نشر له قصيدتين أخريين في عدد تابع ثم نشر رد الشابي على الوكيل مع قصيدتين جديدتين هما " أنا أبكيك للحب " و " الأبد الصغير " ونفذت رسالة الشابي الأولى إلى أبي شادي وهي تحمل قصيدتيه السالفتين مع قيسة الاشتراك في مجلة " أبوللو " ، أصبح الشابي عضوا في جمعية أبوللو التي كان أبو شادي سكرتيرها العام ، وكان شوقي رئيسا لها ثم تولى رئاستها خليل طران بعد وفاة شوقي . وهذا أبو القاسم الشابي يحدثنا عن كيفية اتصاله الأول بجماعة أبوللو وانضمامه اليهم .

" أما علاقتي أنا " بأبوللو " فقد حدثك في رسالتي السالفة بأنني وجهت لها

قصيدتين ومعلوم الاشتراك ، وطلبت من صاحبها أن يوجه إلي الأعداد الأولى منها . وقد ورد علي كتاب منه يمد ذلك وطية معلوم الاشتراك نفسه قائلًا :

انه يستيحي عذرا في ارجاعه لأن المجلة توجه إلي كهدية خالصة ، وصحبته ورقة مطبوعة في

طلب العضوية لجمعية " أبوللو " وطلب مني تمجيرها وإضافتها وتوجيهها حتى يضمن اسمي في ثبت

أعضائها ، كما طلب إلي أن أرسل صورتي لتشر بالمجلة مع شعري . وقد ضمن رسالته مسأ

سمحت به نفسه من ثناء " وأعجاب كما أهدى إلي نسخة من ديوان له حديث اسمه " أشمعة

وظلال " ووجه إلي الأعداد الأولى من المجلة وقد أهديت من " الخيال الشعري عنده

المرب " نسخة ووجهت ثلاث قصائد لمجلته وصحبته طلب العضوية والصورة منذ نحو ٣ أيام " (١)

وتوالى القصائد للنشر ، وتوالى الرسائل للمودة ، ولم تفض مدقة قصيرة حتى كان الشابي من أعز

الأصدقاء والشعراء في قلب الشاعر الشابي ، وان لم يبلغ شعر أبي شادي قمة الروعة الشعرية في نظر الشابي :

« ما أبو شادي فيما كتبت عنه فقد حاولت أن أكون صادقا جهدي ، لا أداريه و لا أعظمه . وقد تحدثت عن أسلوبيه بأعظم ما يمكنني من الصراحة في مقدمة تكتب لديوانه وستطلع عليها ، فترى أنني لست أجامل ولم أدار ، وإنما أنصفت حسبما يقتضيني المقام . ولست أدري من أين لك " أنني كتبت عنه معجبا " (١) .

والحقيقة أنني كنت لا أستطيع أن أتم قصيدا لأبي شادي ، ولكني رضت نفسي على أن أتابعه حتى ألفتّه ، فتبين لي أن الرجل في صميمه شاعر حساس يمتاز بروحانية صوفية بنظرته إلى الوجود ، ولكن الذي أسقط من قيمة أدبه أنه متعجل مكثار ، لا يصبر على التجويد الذي هو عمل لا بد منه للفنان المتسامي . إن صورته الشعرية لا تبدو واضحة كاملة في شعره بحيث ترغبك على تنوقها واستمتاعها وذكرها ، بل أنها تبدو ملتاعة غائمة ، سريعة كل السرعة ، كأنها صور شريط سينمائي يدار بسرعة جنونية . وهذا هو السبب الذي ينأى بالناس عن تذوق شعره وإدراك ما فيه من صور شعرية واحساسات عميقة تدل على نفس حية واعية . ولذلك فشعره يبدو فاترا ، في كثير من الأحيان ، لا يسيطر عليك ويبرغمك على تتبعه مسحورا مدعوشا . وما أشبهه شعره في نظري بتلك المرأة الجميلة التي يعجبك جمالها ولكن لا تستفزك أنوثتها القاهرة وسحرها الغالب . ولعلك لو روحت نفسك على تلاوة شعره لأدرت منه ما أدركت .

ذلك مجمل رأيي في الرجل ، وانك لتدرك بالهدأة أنه لا يمكنني أن أقول هذا القول ، وبهاته الطريقة ، في مقدمة تكتب لديوانه . (٢) .

وليس أدل على المكانة والمودة المتبلولة بين الشعارين من أن كلا منهما قد اعتمد على الآخر في تقديم ديوانه إلى الجمهور ، فقد كتب الشابي تقديما لأحد ديوانين أبو شادي ، وهو " ديوان النبوع " المطبوع أوائل عام ١٩٣٤م ، كما وعد أبو شادي صديقه الشابي بتقديم ديوانه " أغاني الحياة " وطبعه في القاهرة طبعة أنيقة فاخرة بإشراف مجلة " أبوللو " وقد ثبتت من جهات وملا بسات عديدة أن الشابي كان يقترح إرسال الديوان إلى أبو شادي (٣) صبيحة اليوم النى فارق فيه الحياة من سحره .

وعندما توفي لشابي كان مجموع ما نشره من شعره في مجلة " أبوللو " أربع عشرة قصيدة وثلاث مقطوعات . وكان آخر ما نشر فيها هو قصيدة " الايمان بالحياة " و " نشيد الجبار " .

وهذا الشعر الذي نشر في مجلة أبوللو هو كل ما عرف من شعر الشابي في حياته ، مع وجود قصائد

(١) : الخطاب لصديق المشابي محمد الخلموي المخاطب بهذه الرسالة .

(٢) : من رسالة الشابي نشرت في مجلة " الفكر " - تونس : ن ٢ ع ١ ص ١٣ - ١٤ .

(٣) : أبو شادي مثل أبو القاسم لا يصرب جزؤه الأول إلا أنا كان كنية ، أما إذا كان علما

أو لقباً كما هو الحال هنا فلا .

قليلة أخرى تردد في الشرق ولا يعرف على التحديد متى ظهرت في لأول مرة ، ومن بينها قطع غير معروفة تماما في تونس .

وهكذا نرى أن مجلة "أبوللو" قد كانت هي الطريق الأول الذي مشى عليه شاعر الشابي الذي نرى أدب العربي في الشرق ، وأن الفضل في ذلك يعود إلى صاحبه مجلة "أبوللو" ، صديق الشابي المرحوم أحمد زكي أبو شادي . و

ومع ذلك لا ريب فيه أن تأخير نشر ديوان الشابي قد أضر كثيرا بمكانة الشابي الأدبية ، وأخسر الاهتمام به جيلا كاملا ، كما سنرى ذلك بعد قليل .

والغريب هنا أن الشابي كان أقصد أعد ديوانه للطبع ، بل أوصى برسالة التي أبو شادي في حالة وفاته . وهذا أبو شادي نفسه يروي ذلك في إحدى رسائله الشخصية بتاريخ " ١٠ / ٥ / ١٩٥٣ م . فيقول :

" تلقيت بيد الشكر رسالتك القيمة : " الشابي " و " كفاح وحب " ، في بريد اليوم ، وسامحتني بعرضهما والحديث عنهما في محاضراتي ، في الاجتماع المقبل لرابطة " منيرفا " الأدبية بجامعة كولمبيا في الحادي والعشرين من هذا الشهر . واني لأشكر للأخ الكريم أريحيته ووده الأبي ، لا لذاته فحسب ، بل لأنه شمل أيضا صديقا عزيزا هو المرحوم أبو القاسم الشابي الذي كتب لي في قبل وفاته بأنه أوصى برسالة ديوانه التي لأتولى درسه والتقديم له ، ونشره في طيعة فآخرة منذ كنت تجمني به صلوات من الفكر والمأطفة والفن ، كثيرا ما عبر عنها في رسائله التي ، ولكن يد القدر الماتي حرمتني إياه كما حرمتني أدا " ذلك الواجب " (١) .

أصـدقـاء آخـرون :

=====

وبالإضافة إلى أبو شادي كانت لأبي القاسم صلوات أدبية عن طريق المراسلة لعدد من أدباء الشرق وشعرائه ، عرفنا منهم حتى الآن : الدكتور الشاعر المرحوم إبراهيم ناجي والشاعر عبد العزيز عتيق ، والدكتور الشاعر علي الناصر في حلب . ولكن صلوات الشابي المنشورة قد كانت فقط مع أبو شادي

فأبو شادي هو الذي فسح المجال أمام شاعرية الشابي ، لتظهر على مجلة " أبوللو " وهو الذي رثاه ومجد ذكره بعد وفاته مباشرة ، سواء في مجلة أبوللو أو في مجلة " الامام " التي كان أبو شادي يشازك صاحبها الناقد الجهير الاستاذ مصطفى عبداللطيف السارثي تحريرها والاشراف عليها .

وعن طريق هاتين المجلتين عرف الشرق شعر الشابي ، وبالتالي عرف مكانته وأكبر نبوغه واعترف بتفوقه وشاعريته .

(١) في رسالة من الشابي إلى صديقه الحليوي ، أن الحليوي كان متفقا مع الشابي على تقديم الديوان ، وقد يكون أبو شادي وعد بمقدمة أخرى .

كان الاعتماد البالغ بين سنوات ١٩٣٣ - ١٩٣٦ م ثم خفت صوت الشابي ولم يعهد له صدى يذكر في الشرق الا لاما ، ومن فرصة لأخرى حين يكتشفه أديب ناشئ أثناء مطالعته لما مضى من أهداف مجلة أبولو التي كانت قد ماتت هي الأخرى بعد الشابي بحام واحد .

وحين يصادف شعر الشابي قارئ جديد ، ويكون أديبا فانه قد يكتب عنه من خواطر أو مقالة تعتمد على تحليل نفسية الشاعر أو شاعريته من خلال تلك القصائد القليلة المنشورة في مجلة أبولو ، دون معرفة واضحة ودون فهم كامل لما ينبغى أن يعلم من حياة الشابي وملابسات شعره .

وقد استمر هذا الوضع من عام ١٩٣٦ م - ١٩٤٨ م أي مدة اثني عشر عاما ، لا نجد خلالها الا بعض المقالات التي لا تعتمد الا التحليل والاعجاب بتلك القصائد المحدودة من شعر الشابي . ومعظم هذه المقالات نشر في مجلات " الأملالي " و " المكشوف " و " الأديب " في لبنان و " الرسالة " و " الهلال " في القاهرة ، و " القافية " في القدس . وبعض المجلات العربية الأخرى .

كتاب واحد :

وخلال هذه المدة ١٩٣٦ - ١٩٤٨ م لم يظهر أي كتاب عن الشابي ، بل لم يذكره الا مؤلف واحد من ألفوا عن الشعر المعاصر ، أو تعرضوا لأطواره واعلامه ، ومذاهبه . (١)

وهذا المؤلف كان - يوم وضع كتابه - أديبا شابا دفعه الاعجاب وحده الى اصدار كتاب صغير ضم مختارات من شعر عدد من الشعراء المعاصرين ، الذين أعجب بهم وأراد أن يذيع أديبهم بين الناس ، وهذا الأديب هو الشاعر محمد فهمي الذي نشر في الجزء الأول من كتابه " الروائع لشعراء الجيل " مجموعة من أشعار الشابي ، استقاها كلها من مجلة أبولو ، ولكنه لم يكن دقيقا في نقله وعرضه ، كما أنه لم يحط لديه معلومات عن الشاعر ، للقارئ ، بل اننا لا نجد على الكتاب تاريخ طبعه ، ولولا نقد نشر عنه في مجلة " المقتطف " عام ١٩٣٨ م لما علمنا بالسنة التي طبع فيها وعلى الرغم من أن محمد فهمي قد قدم في كتابه بعض التفاصيل عن حياة وأدب الشاعر الآخر الذي كان الشابي ثانيا معه ، فانه لم يقدم الشابي الا بصفتين فهما كلمة اعجاب بشعر الشابي ، واعتراف جميل بتفوقه وعبقريته .

(١) هناك كتاب آخر وهو " الشعر المعاصر في ضوء النقد الحديث " للسحرتي ولكنه اكتفى بشواهد قليلة من شعر الشابي .

وان دل هذا على شيء فانما يدل على أن محمد فهمى لم يكن في ذلك الحين يعرف أى شيء عن حياة الشابي وأطواره الأدبية ، وانه لولا مجلة أبوللو وما نشرته من شعر الشابي لما سمح محمد فهمى ومعاصره بالشابي ، ولا أمكنهم التعرف الى شعره والحكم عليه ولو بصورة عامة غامضة .

وقد أخطأ محمد فهمى في كلمته مرتين ، الأولى حين ذكر أن الشابي ولد سنة ١٩٠٨ م والصواب أنه ولد سنة ١٩٠٩ م ، والثانية حين ذكر أنه مات مسلولا ، بينما مات الشابي بمرض القلب .

ومع هذا فان كتاب (الروائع لشعراء الجيل) قد أسهم من جديد في احياء اسم الشابي وتعريف الجيل الصاعد بشعره ، مما كان له أثر بعيد المدى في تكوين عدد كبير من شعراء الشاب الذين تشققوا خلال الحرب العالمية الثانية ، وظهرت مواهبهم وبواكير شعرهم في أعقابها مباشرة .

جيل جديد :

=====

ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ م الى عام ١٩٥٢ م شاع شعر الشابي بين طلبة المدارس الثانوية والعالية ، وخاصة بين الأدباء الشبان الذين وجدوا فيه ضالته المنشودة وأطمهم المفقود ، ذلك أن أكثر هؤلاء الأدباء الشبان كانوا يطالعون الشعر الغربي بلغاته الأصلية ، ويتأثرون به وينفعلون معه ، فيتوقنون الى وجود شعر عربي على نظمه من حيث : خصائصه الفنية ، والمذهبية ، والشمورية .

ولما عشروا على شعر الشابي صار لهم انجيلا ، وأصبح قائله نبيا ، فأمنوا برسالته الأدبية ، وحاولوا احتذاءه في قليل أو كثير من الجراحة والنجاح .

والى هذا الجيل الجديد يعود اليوم شطر كبير وعظيم مما وصل اليه الشابي في الشرق من مكانة شعرية عالية وتقدير أدبي كبير .

وهكذا كانت الحرب العالمية الثانية فاصلا بين جيلين اثنين من أجيال الأدب

المرتب الحديث : جيل عاصر الشابي وأظهر بمضه الاعجاب به ثم نسيه ، ولم يمد يذكرة ، وجيل تتلمذ على شعره واتخذة رائدا في شعره وتمبيره على السواء .

وكان أشد ما افتتن به هذا الجيل الجديد ، من شعر الشابي قصائده الخالده :

" نشيد الجبار ، أو هكذا غنى نزر هرموثيوس " التي مطلعها :

سأعيش رغم الداء والمدا ، كالنسر فوق القمة السماء !

أرفع الى الشمس المضيئة هافنا

بالسحب والأمطار ، والأنواء

لا ألمح الظل الكئيب ولا أرى

ما في قرار الهوة السوداء

وأسير في دنيا المشاعر حالما

غردا ، وتلك طبيعة الشعراء .

وقصيدته " الصباح الجديد " التي استهلها بقوله :

اسكتي يا جراح . . . واسكتي يا شجون

مات عهد النوح . . . وزمان الجنسون

وأطل الصباح . . . من وراء القرون

وقصيدته " صلوات في هيكل الحب " ، وقصيدته " ارادة الحياة " التي مطلعها :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة . . . فلا بد أن يستجيب القدر

ولا بد لليل أن ينجلسنى . . . ولا بد للقيد أن ينكسر

وقصيدته " النبي المجهول " التي يقول فيها :

أيها الشعب ليتنى كنت حطاً . . . باء فأهوى على الجذوع بفأسى

ليتنى كنت كالسيول إذا سا . . . لت تهد القبور رسا برمس

ليتنى كنت كالريح فأطوى . . . كلما يختنق الزهور بنفسى

ليتنى كنت كالشتاء المنشى . . . كلما أذبل الخريف بقرسى

ليت لى قسوة المواصف يا شع . . . بى ، فألقى اليك ثورة نفسى .

ولأبأس هنا بتحليل موجز لدوافع الإعجاب عند الجيل الأول ، ودواعى الانبهار والاحلال

عند الجيل الثانى :

لقد كان الجيل القديم من أدباء الشرق يعجب ويضطرب بشعر الشايبى لما فيه من

موسيقى عذبة ، وتعبير أنيق ، وخيال مجنح ، وصور فنية خلابة .

أى أن الإعجاب بالشايبى لم يتجاوز عند هذا الجيل الجوانب الفنية الخارجية ،

فكانوا مأخوذين بوجه خاص بموسيقاه العجيبة الدالة على قدرة الشايبى الفائقة فى المزاجية

بين الألفاظ والتأليف بينها فى مجانسة منضمة عالية .

أما الجيل الثانى فان إعجابه بالشايبى ليس من أجل ما فى شعره من خصائص الجمال

الفنى فحسب ، وإنما أيضا من أجل ما فيه من خصائص فكرية وشعورية فائقة ، فقد اكتشف

هذا الجيل ما فى شعر الشايبى من صدق وروحانية ، وما فيه من حيوية دافقة ، وحرارة

صاعدة ، ومن إحياء وتأثير عاطفى قوى .

والأهم من هذا كله اكتشافهم روحة الوطنية ، ونزعة الانسانية ، وتصوفه الشعرى

الخلاب ، فهو من هذه الناحية يشبه جبران خليل جبران شبيها عجميا .

ويمتاز هذا الجيل عن سابقه بأن معظم شعرائه الجهيرين قد تأثروا ، — فى مطلع

شاعريتهم — بالشايبى ، على اختلاف درجة التأثير وقوته فيهم .

وليس من شك فى أن معظم الشعراء الشباب فى العراق والشام ، ومصر والسودان

متأثرون بشعر الشايبى بصرف النظر عن مدى هذا التأثير ونتائجه .

ومن الشعراء الذين لو يدرس شعرهم لتبين ما فيه من محاكات ، أو استيعاب لشعر

الشايبى أو تأثير بخصائصه الفنية واتجاهاته المذهبية .

وقد أسهم هذا كله في اعلاء مكانة الشابي الشاعر ، وتصحيح كثير من الأخطاء التي كانت تملأ أذهان عدد غير قليل من الأدباء والقراء ، بل إن الكتاب قد عرف الشابي بكبار الأدباء الذين تبين أن عددا غير قليل منهم لم يسبق له التعرف إلى الشابي ، وقراءة شعره ، فضلا عن دراسته ونقده .

ومهما يكن من أمر فإن الاهتمام بالشابي وأدبه قد تطور بعد عام ١٩٥٢ م ، وانتقل إلى ميادين جديدة . فبعد أن كان الاهتمام مقصورا على المجلات والصحف ، ظهرت كتب عديدة تدرس أدب الشابي وتنقده ، أو تقارن بينه وبين غيره من الشعراء العرب المعاصرين . كما ظهرت الدراسات المطولة عنه في كتب خصصت للبحث في الشعر العربي الحديث . كذلك ظهرت كتب مدرسية أو كتب مخصوصة فيها مختارات من شعره . وأصبح الشابي يدرس في مناهج كثير من المدارس الثانوية سواء في مصر أو لبنان أو الأردن أو العراق . هذا فضلا عن الأعداد الخاصة التي أصدرتها عنه صحف ومجلات عربية كثيرة .

وليس من شك في أن التطورات السياسية والاجتماعية التي نهزت أقطار وشعوب الشرق العربي عقب الحرب العالمية الثانية أثرا بارزا في هذا الميدان . وكان شعر الشابي الوطني الثائر يتلائم بشكل حار مع الثورات القومية الزاحفة . لهذا كان الشباب يردد بحماسة في نواديه ومظاهراته قول الشابي :

إذا الشعب يوما أراد الحياة . . فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي . . ولا بد للقيد أن ينكسر

وكم من مرٍ كتبت هذان البيتان علي الشمارات التي يحملها المظاهرون من كراتشي في باكستان إلى الخرطوم في السودان . بل لقد ترجم البيتان إلى اللغة اليابانية وحملتهما في طوكيو عاصمة اليابان . (١)

لقد أسهم هذا كله في تعريف الشابي إلى الجماهير ، وخاصة الشباب المتعلم ، مما زاد من الاهتمام به والاقبال على قراءة شعره ومطالعة كل ما يكتب عنه . وهنا لم يمد في وسع أية مجلة أو صحيفة أن لا تهتم بالشابي ، فكثير نشر قصائده وكثير نشر المقالات التي تحلل شعره وتمجد شاعريته . حتى بلغ صدق ذلك إلى الفنانين قلحوا شعره وتغنوا به . وكان الطرب اللبناني " حلیم الرومي " أول فنان عربي من الشرق لحن شعر الشابي ، فاختر له لأول مرة ، قصيدة " رادة الحياة " ، ثم اختار له قصيدة " الحان السكرى " التي يصور فيها الشابي خلوة سعيدة من خلوات الحب الطافح المشبوب :

قد سكرنا بحبنا واكتفينا . . يا مدير الكؤس فاصرف كؤوسك
واسكب الخمر للعصافير ولند . . ل وخرى الثرى يضم عروسك
مالنا والكؤوس نطلب منها . . نشوة ، والفرام سحر وسكر ؟
خلنا منك فالربيع لنا ساء . . ق ، وهذا الفضاء كأس وخمر !

وتفنت المطربة سماد محمد بقصيدة "رادة الحياة" من تلحين حليم الرومي حتى اشتهرت
بها. ثم اختار المطرب عبد الرحمن الخطيب (١) قصيدة "أيها الشعب" فلحنها وغناها لأول
مرة في أكتوبر تشرين الأول سنة ١٩٥١م. ضمن برنامج خاص قدمته محطة الشرق الأدنى التي
كانت تذيع من جزيرة قبرص، ومطلع هذه القصيدة:

أين يا شعب قلبك الخائف الحساس؟ أين الطموح والأحلام؟
أين يا شعب روحك الشاعر الفنان؟ أين الخيال والالهام؟
ان يم الحياة يدوي حواليك، فأين المفاسر المقدام؟
أين عزم الحياة؟ لاشي إلا الموت، والصمت، والأسى والظلام
عمرت وقلب خواء، ودم لا تشيره إلا الآلام
أى عيش هذا؟ وأي حياة؟ رب عيش أشأخف منه الحمام
الى أن يقول:

أنت يا كاهن الظلام حياة، تعبسد الموت، أنت روح شقي
كافر بالحياة والنور، لا يضي الى الكون قلبه الحجري
أنت دنيا يظلمها أفق الماضي، وليل الكآبة الأبدى
والشقي الشقي في الأرض شمس بيومه ميت وماضيه حبي

رغنى له عبد العزيز محمود من تلحينه قصيدة "الصباح الجديد"، وقد كان موفقا فيها
كثيرا، واختار له المطرب الليبي كاظم نديم بن موسى قصيدة "صلوات في هيكل الحب"
وأخيرا غنى له كارم محمود "يا ابن أمي" من تلحين عصمان المنتبلي.

=====

تلك صورة مجملة لمدى الاهتمام والصدى الذي لقيه شعر الشابي في الشرق منذ ظهر الى
اليوم، سواء في المجالات والصحف أو في الكتب. أو في الطرب.
وهناك اهتمام آخر يتمثل في المهرجانات والاحتفالات الأدبية التي أخذت تنشر عن
الشابي منذ عدة سنوات من طرابلس الغرب الى القاهرة، دمشق، بغداد وعمان، سواء
في النوادي أو الاذاعات.

ولعل أعظم هذه الاحتفالات ما قامت به نقابة الصحفيين في القاهرة يوم ٢٧/١٢/١٩٥٢م
حيث شارك فيه لأول مرة بعض كبار الأدباء الذين لم يكونوا يعرفون شيئا عن الشابي أو يظهرون
الاهتمام بأدبه، أمثال عزيز أباظه، والناقد الدكتور عمر عندور.

وقد تكلم باسم تونس في هذا المهرجان الشيخ محمد البشير الابراهيم، رئيس جمعية العلماء
المسلمين في الجزائر، وقد نشرت جريدة البلاغ المصرية عددا خاصا حوى معظم ما قيسل في (٢)

(١) هو اخو الطرية قائده كامل.

(٢) القسم الرابع من كتاب "آثار الشابي وصداه في الشرق" - أبو القاسم محمد كرو.

الصهرجان ، وقام بوصفه والتعليق عليه الكاتب الأستاذ كامل السوافيري ، وكان مما علق به قوله :
 " وإذا كان لنا مأخذ على الحفل فهو أن أحدا لم يتعرض لترجمة حياة الشاعر وتحليل

شعره ، لو وكلمة التي القاها الأستاذ ابراهيمي . . . ما عرف كثير من الحاضرين أين ولد وكيف اتخذ تونس موطناً ثانياً له بعد أن ترك موطنه الذي ولد فيه (١) . "

الشهابي المجهول :

=====

وهكذا نرى أنه برغم صدور عشرات من الكتب وعشرات من المقالات والدراسات حول الشابي وأدبه فإنه مع ذلك ما زال مجهولاً عند قراء شعره والمعجبين به .
 فالسوافيري نفسه أخطأ في قوله :

" ان الشابي ترك موطنه الذي ولد فيه واتخذ تونس موطناً ثانياً له " ! ! فإين

ولد ان ؟ إذا كانت تونس هي موطنه الثاني ، وإذا كان الشابي قد ترك موطنه الأول ليتخذها موطناً ثانياً ؟ ! فكيف يكون حال الأدباء الذين لم يقرأوا عنه شيئاً ؟ بل كيف يكون الحال قبل أن يظهر أي كتاب عن الشابي ؟ .

لقد كان الحال ولا شك غريباً جداً ، إذ كانت الأخطاء حول الشابي شائعة في معظم بلاد الشرق العربي - مثل مصر والمغرب وسوريا والأردن وفلسطين ولبنان بين أعوام ١٩٤٨م - ١٩٥٢م .

أخطأه وأوهامه :

=====

وعلى رغم جميع الكتب والجهود التي بذلت حتى الآن ، فإن الأخطاء القديمة لم تنته ، بل انضمت لها أخطاء جديدة غريبة ، ونكتفي هنا بذكر بعض الأمثلة :

ففي عام ١٩٤٧م نشر الأستاذ عيسى الناعوري مقالين عن الشابي في "مجلة القافلة" بالقدس توهم (٢) فيهما أن الشابي من شعراء المغرب الأقصى ، وقد زين المقال بصورة يمثل بعضها مدينة طنجة المغربية ،

وفرق ظاهر بين تونس والمغرب الأقصى كما ظن الأستاذ الناعوري أن الشابي مات مسلولاً ، وهو ظن يشترك معه فيه عدد غير قليل من قراء وأدباء الشرق ، مع العلم بأن الشابي مات بمرض القلب .

وزعم عبدالسميع المصري : أن الشابي قد انهكت قواه حياة الخلاعة والمجون التي

(١) مجلة القلم الجديد : الأردن س ١ ع ٦ " شباط - فبراير سنة ١٩٥٣م "

(٢) عددا ١٠ / ١٠ / ١٧ و ١٠ / ١٧ / ١٩٤٧م وهما برقم ٢٨ - ٢٩ .

عاشها أثناء تعلمه في فرنسا (١) ! .

ونسب إليه أديب عراقي هو الاستاذ محمود الميظه في مقال نشر بجريدة " الفجر " الصادرة في الموصل ، أنه تولى منصب قاض ، وأنه تلقى في الجامعة الزيتونية ثقافة عصرية (٢) .

ولا شك في أن السيد الميظه قد وقع في هذا الخطأ بسبب ملابسات لم تكن واضحة عنده ، فان والد الشابي كان قاضيا شرعيا ، أما الشابي فلم يتولى أى منصب حكومى ، ولم يشتغل فى أى مهنة حرة ، بل عاش فى رعاية أبيه حتى العشرين من عمره ، ثم عاش سنواته الخمس الأخرى حليف المرض يعتمد فى عيشه على أملاك الأسرة التى كانت تضمن له عيش الكفاف ، فلا عسر ولا يسر .

أما الثقافة المصرية ، فقد توهمها الكاتب من عنوان المعهد فظن أن تسميته فى الجامعة لا بد لأنه عصرى ، فى حين كان عتيقا فى برامجهِ ، وعقلية أساتذته ، وطرق تعليمه بالإضافة إلى أنه معهد دينى .

وهناك اعتقاد سائد فى تفكير معظم أدباء الشرق ، بأن الشابي قد أصيب بمرض السل ومات به ، وعلى هذا الأساس أقامت الدكتورة الشاعرة " نازك الملائكة " بحثا كاملا بعنوان " الشعر والموت " .

وفى تونس نفسها جرى خطأ جسيم ، سيجعل الأجيال القادمة تعتقد بأن الشابي مات مسلولا ، وذلك أن الشابي اليوم يحمل اسمه مستشفى للأمراض الصدرية باهدى ضواحي العاصمة التونسية . وعندما تكتب الأقلام الصاعدة فى الفد سيكون هذا المستشفى برهان يؤكد مرض وموت الشابي بالسل (٣) .

وفى الواقع انى لأتساءل عن الحلاقة بين الشابي - وهو شاعر فنان - وبين مستشفى لعلاج المرضى ، بصرف النظر عن اختصاص المستشفى حتى لا نزيد فى الأخطاء الشائعة خطأ جسيما من شأنه أن يشتت الحقائق المتعلقة بحياة الشابي ، خاصة وأن الشابي لم يصب بالسل ، كما لم يعالج فى هذا المستشفى ، وهو الى ذلك لم يكن موجودا فى حياته .

أخطاء جديدة :

لقد تفاقمت الأخطاء حول الشابي منذ عام ١٩٥٤ م ، أى منذ أصدر عمر فروخ كتابه " شاعران معاصران طوقان والشابي " . فقد ملأ فروخ القسم الخاص بالشابي من هذا الكتاب ، بمجموعة كبيرة من الأخطاء فى المعلومات والأحكام تلفت النظر وتثير الاستغراب

(١) مجلة الرسالة الجديدة : القاهرة ع ١١ ص ٤٥ " شهر ٢ / ١٩٥٥ م "

(٢) عدد ٢٢ - بتاريخ ٨ / ١٢ / ١٩٥٠ م .

(٣) الشابي - حياته وشعره - أبو القاسم محمد كرو - مرض الشابي .

والمؤلم هنا أنها شاعت عنه بالنقل ، وأخذ الكتيب يرددونها في مقالاتهم دون تمحيص كما فعل عبدالسميع المصري في مقال مفسح به حياة الشابي وأدبه .
 فإذا تركنا هذه الأخطاء جانباً ، وجدنا ظاهرة جديدة ، ظهرت بعد كتاب فروخ السالف الذكر ، وهي ظاهرة التحامل الشديد على حياة الشابي وأدبه ، ومحاولة التصفير من شأنه واعتباره شاعراً عادياً تفوق فقط في بعض قصائده القليلة التي تقوم عليها وهدهما شهرته الواسعة ومكانته الأدبية .

ولنأخذ هنا نموذجاً جاء في كتاب " الشعر وقصيته " للشاعر ابراهيم العريش^١ زعم فيه : أن الشابي ليس قمة من قم شعرنا العربي الحديث ، وأنه لو عاش أطول لسامق الشعراء الذين يعتبرهم الأستاذ العريش^٢ كما شامخه من شعرنا الناصر ، قال العريش " أما القمم التي تجذب في شعرنا الحديث عين الناظر اليها من بهيئته فهي - ولا اقصد المفاضلة - اليا أبو ماضي ، وعمر أبوريشه ، ومحمد مهدي الجواهري ، ونزار قباني ، وبشاره الخوري ، وسعيد عقل ، ومحمد علي الحواني ، والشاعر القروي^٣ وفدوى طوقان ، ونازك الملائكة ، وأحمد الصافي ، وشفيق المعلوف ، والياس فرحات . ولكن طابعه من التجديد ، طال بقاؤهم جميعاً (١) .

أما الشابي ، فان الموت المبكر قد جنى عليه ، وحرمه من الارتفاع الى قم العريش^٤ التي رفع اليها بيمينه مجموعة متناقضة من المواهب والاتجاهات الشعرية ، ومن هنا لم نستغرب أن يقول العريش^٥ - وهو شاعر - بعد كلامه السابق :
 " فالشابي مثلاً - وهو ولو كان حياً ليسامق هؤلاء - لا ترفعه الى هذا المستوى الذي يشرف منه اليوم على دنيا الناس من سمائه ، الا بضع قصائد معدودة في مقدمتها " صلوات في هيكل الحب " عرفتنا قدره ولو لم ينظم شيء غيرها ، فان هذا الباقي الصئبق من شعره لا ينبئ الا عن محاولات أدت للشاعر غرضها في حينه ، وقيمتها تخص التاريخ وحده " (٢) .

والغريب أن الاستاذ ابراهيم العريش يخالف نفسه مخالفة صارخة ، حين يقدم لنا مقياساً نعترف به القمم من غيرها . فالشاعر في نظره - لا يبلغ القمة في جميع قصائده وإنما يكفيه فقط بلوغها في عدد محدود منها . ومع اعترافه بأن الشابي قد بلغ الاجادة في " قصائد عرفتنا قدره ولو لم ينظم شيئاً غيرها " ، فانه لم ينل بقصائده شرف التحليق في قم الشاعرية التي حدد الاستاذ العريش ارتفاعاتها عن سطح البحر . وهذا مقياسه الخاص الذي ذكره في معرض الخشية من اساءة فهمه ، وبالأحرى

(١) ص ٨٥ - ٨٦ من كتاب العريش .

(٢) ص ٨٦ من كتاب العريش - الشعر وقصيته .

تطبيقه :

" وأخشى هنا أن يسئ بعضكم (١) فهم مدلول معنى "القمة" ، فأبادر بالقول - وان كانت بدايته لا تخفى - على الشعراء انفسهم - بأن الشاعر لا يوفى الى الاجادة في آثاره كلها ، وانما القصائد التي يبلغ فيها غاية الجودة تسجل للناس الذروة التي يستطيع بلوغها . كمثل هذا الميزان الذي يسجل الحرارة في رصده طيلة أيام السنة ، فلا يقدر الملم لوصف مناخ بقمة الا أرفع ما سجله الميزان لها في الصيف من حرارة الصيف ، في أشد أيامه حرا " !!

ويظهر أن ميزان الأستاذ المريّض قد أصابه المطب حين رصد به مناخ شاعريسة الشابي ، لأن درجات رصده العاليية لم تصل الي مستوى رصد الآخرين ، ولو لم يكن الأمر كذلك لما غفل ميزان الاستاذ المريّض عن رصد قصائد الشابي التالية : " ارادة الحياة " و " النبي المجهول " و " أغاني الرعاه " و " نشيد الجبار " و " الصباح الجديد " و " قلب الشاعر " و " الجنة الضائعة " و " الحاني العمري " و " الأشوان التائهة " و " في ظل وادي الموت " و " الأبد الصغير " و " قلب الأم " و " الساحرة " و " الايمان بالحياة " و " أيها الليل " و " وأنا أبكيك للحب " و " يا ابن أمي " و " الى طغاة العالم " و " ومناجاة " و " وياشمر " . ثم قصيدة " صلوات في هيكل الحب " التي ذكرها .

فاذا تركنا القصيدة الأخيرة بقيت عشرون قصيدة أخرى ذكرنا أسماءها ولا أظن أنه الا يعرفها جميعا . وأظنه لا يجهد أيضا أن أيا من الشعراء الذين أحلّم قلم جباله الشعرية ، لم يبلغ . من الاجادة في شعره عددا من القصائد يوازي عدد قصائد الشابي المذكورة ، وقد يختلف معنى حضرته كما قد يختلف معنى غيره في أن هذه القصائد كلها جيدة ، ولكنه لا يستطيع أن ينكر أن أكثر من واحد من الشعراء الذين اعتبرهم قسا في شعرنا الحديث ، ليس لهم قصائد تفوق في جودتها ما يستجده هو نفسه من قصائد الشابي " كمثل صلوات في هيكل الحب " التي اعترف بقيمتها . ولكنها - وأخواتها - لم تشفع عنده لكي يصبح الشابي سامقا لنازك أو فدوي أو المملوف أو فرحات مثلا . مع اعتبار طابعه الخاص من التجديد كما اعتبر لهم ذلك . (٢)

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX
XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX
XXXXXXXXXX

(١) الشعر وقصيته للأستاذ ابراهيم المريّض ص ٨٦ .
(٢) آثار الشابي وصداه . في الشرق - أبو القاسم محمد كرو - ص ٣٣ - ٥٥ .

الباب الرابع

=====

الثورة في شعر الشابي دافعها واتجها هاتهما

الثورة في شعر الشابي نقطة انطلاق في شعره الوطني ، إذ أنها تحمل الخطوط الصريحة والواضحة التي تدل على مدى احساسه بضرورة البحث والتطور نحو الأهداف الصريحة التي يريد لها الشاعر لمجتمعها ، وهي في عنفها إنما تدل على نواحي الضعف التي كان يزرح تحت وهاتها ، ونواحي القوة التي يريد لها الشابي .

ونحن نلمح في شعر الشابي صوراً كثيرة لفكره ، والحياة المتجددة سواء في قصيدتي ارادة الحياة ، أو نشيد الجبار ، وسواء كان التقاء الشابي بنتشيه في هذه الفكرة مصادفة أم نتيجة لترسبات ثقافية ، فلقد كانت تلك الفكرة هي النواة التي أنبتت الطموح والقوة في قلب الشاعر التونسي المظلوم ، فبعثت فيه النهضة والوعي ، على أن الشابي وقد اكتفى بالدعوة لهذه الفكرة ، فإن نتيشة قد طبقتها في جميع نواحي الحياة ومناحيها ، فدرسها دراسة فلسفية عميقة في كتابه " ارادة القوة " أو هكذا تكلم زرداشت .

والثورة دائماً من جانب الشباب ، تلاقي اعراضاً ونفورا من جانب الشيخ القاهمين في بروجهم العاجية ، والحقيقة أن الشباب مدفوعون الى الثورة ، والى الجموح بسبب جمود هؤلاء الشيخ ، وما أصدق والت . وايتيمان الشاعر الانساني الأمريكي حين قال :
" . . . لا تلوموا الشباب اذا امتلأت نفوسهم بالمرارة والشك والغليان ، فالذنب ذنب الكبار الذين لم يحولوا المرارة الى قناعة والشك الى ايمان ، والغليان والثورة الى قوة دافعة للاصلاح . . . "

والثورة في شعر الشابي ليست ثورة سطحية ، وإنما هي ثورة جذرية في جميع مناحي الحياة وأشكالها ، ثورة على أعداء الشعب ، ثورة على الظالمين ، ثورة على الرجعيين والجامدين والخامدين ، إنها ثورة على القيود بكل مناحيها ونواحيها ومناحيها ، وهي منبثقة عن ايمان عميق بالحرية وبالطبيعية بالحياة الحرة ، وهي أيضاً ثورة جامحة على خصوم الشعب وجمود المفكرين ويمبر الشابي عن ذلك بقوله :

وأقول للجمع الذين تجشّموا . . . هدمي وودوا لويخربنا شي

من جماش بالوحي المقدس قلبه

لم يحتفل بحجارة السدّهما

دوافع الثورة عند الشبابي

=====

يختلف الشعراء في احساسهم بالكون وانفسهم وما حولهم اختلافا ميمته العميق والحدة في الادراك والنفوذ الى مواطنهم ، أو مواطن ما يصورونه ، فهم ليسوا جميعا سواء في الاحساس بل منهم من هو سطحي الاحساس لا يكاد يلص ما يصفه الا لمسا خفيفا ، وهو لذلك لا يؤثر فيك الا تأثيرا من الظاهر ان صح التعبير ، فشعره فاتر لا حرارة فيه ، ومن الممكن ان نودع في هذا القسم مجموعة النظميين الذين لا ينفلون أي انفعال قبل الأشياء ، وانما هم يسجلونها في شعرهم كأن شعرهم صحف حسابية لأعداد وأرقام .

وفي الشعراء من يتعمق ما يدركه ويحسه من ذات نفسه ، أو ما يبصره أو يشاهده في الكون من حوله تعمقا يصل الى باطنه وخفايا داخله ، فنقرأ شعره ونحس فيه كأننا في حلم سحري ، ونشعر بشيء من التسريع أنفسنا والراححة والمتعة الحقيقية ، لأن الشاعر بنفس عمّا في داخلنا بما يجري على لسانه من أبياته ، أو قل من مشاعره وأحاسيسه ، فنحن عنده نستقبل أنفسنا وعالمنا بكل ما فيه من اضطراب وقلق وكمال ونقص ، ان المالم ليس كما لا خالصا ولا نقصا خالصا ، بل هو مزيج منهما ، مزيج ينتظر الشاعر الذي يحسه احساسا حادا ويحرضه .

وبين هذين الفريقين من أصحاب الاحساس السطحي والا احساس الحاد ، يقع كثير من الشعراء في مدارج وسطى ، وليس من شك في أنه بمقدار ما يكون في الشاعر من مادة الاحساس تكون موهبته في الشعر كما يكون تأثيره في سامعيه وقرائه .

وأبو القاسم الشابي الذي هصر غصنه القدر سنة ١٩٣٤م ولما يبلغ الخامسة والمشرين ، بعد كفاح شاق مير بينه وبين المرض - مرض القلب - ان أصيب في عنقوان شبابه بتضخم قلبه ، هذا الشاعر يمدّ قلته من فلتات عصرنا الحديث ، في حدة الاحساس وعمقه ودقته .

لم يتعلم لغة أجنبية ولا خرج عن محيط بيئته ، ولكنه قرأ واستوعب كل ما وقع عليه قديم وحديث وأدب غربي منقول ، وانطبعت في خياله عن طريق قراءته وخاصة للشعراء المجددين صورة فنية للشعر ، فيها تحرر من القديم ، سواء أكان في شكل القصيدة أم في موضوعها ، فقد تخلص من ريق المديح وما يتصل به واتجه الى نفسه وعصره وأمته ، وشعر شعورا واضحا بالحق والجمال والكمال ، وظل هذا الشعور يجري في شعره تيارا مندفع لا ينقطع ولا ينفصل عن أي قصيدة أو مقطوعة ينظمها ، ولكن شعوره هذا ليس هو الذي استنفذ شعره ، وانما استنفذه شعورا آخر ، هو شعوره بالألم وعلته التي أصابته في شرح شبابه ، فالألم هو الدافع الحقيقي

للثورة عند الشابي .

ومن الشعراء من يصاب بالمرض مثل الشابي ، فمنهم من يتألم ولكنه يحول ألمه الى فلسفة في الحياة والى تفكير واسع فيما يلا حقها من نعيم وبؤس وسعادة وشقاء ، فالألم عند هذا الفريق لا يتحول الى نفسه والحديث عن أوجاعه وإنما يتحول الى الحياة البشرية كلها وما ترتطم به من صخور الشر والظلم العارخ .

ومن المرضى من يعلو على ألمه ، بل من يحاول أن يقهر ألمه وينتصر عليه الى النهاية ، فتراه ضاحكا مبتسما ، كأنما تحول الألم عنده الى لذة فهو لا يتشامم بل يتفاؤل ، وهو لا يضيق بما حوله ، بل هو كثير التسامح ، كل ما حوله في الطبيعة جميل ، وجماله يفقده السوعي بنفسه وما يعتصقوا من المرضى وفرحته تعلو على كل الآلمه ، اندتطرد من صدره كل الوسوس والاهام التي تجيش بصدور أمثاله .

غير أن هذان النوعان نادران ، أما الكثير فيكون على فرار أبي القاسم الشابي لا يحوله الألم الى فيلسوف ومفكر كبير ، وأيضا لا تحوله العلة الى ضاحك في الحياة أو مبتسم ، وإنما تحوله الى لحن ضخم للمويل والبكاء ونذب نفسه وحياته ندبا حارا .

وتصادف أن كان احساس أبو القاسم الشابي حادا ، وجملته حدته محبا للحياة صبا بها ، وشعر برؤوس أفاع تمتد اليه في طريقه ، فتمنعه من السير بل تردده الى داره ان لم يكن الى فراشه وعلته ، فرجع محزونا يجر أذياله والكأبة قد ملأت نفسه ، ومألهما أيضا الا احساس الدقيق بالكارثه وما ينتظره من موت عاجل محتوم .

ولم يجد أمامه ما يبشبهه وأعجمه سوى ناي شمره ، فأخذ يشد وعليه أغاني مشجبة نظمها والذموع تنهمر من عينيه ، وهي لذلك تمد أشجبي أغانينا في الصدر الحديث ، لأن صاحبها بللها بدموعه وهو يكتبها ، ولأنها تصور ألما حقيقيا ، بل لأن صاحب هذا الألم كان حاد الحس ، فسقط لا على الألفاظ التي تمثل ألمه ، وإنما على الابر التي تلسع ، وحمى الابر في نيران قلبه فأصحت تكوى وتلدع ، وأسمعه يغني أغنية الأهزان .

حطمت كف الأسى قيثارتي

في يد الأهلام

فقضت صمتا أناشيد الضرام

بين أزهار الخريف الذائبة

وتلاشت في سكون الاكتئاب
كهدى الفريد
كف عن تلك الأفاني الباسمه
أيها العصفور
فحياتي الفتحة لمن الآسى
من زمان قد تقضى وعسى
أن يثير السبيد ونى صمت الفؤاد
بلبل الأفراح
فقو دى وهو منمور الجراح
بتباريح الحياة الباكسه
ليس تستهويه ألحان السمرور
وأفاني النور
ان من أهدى الى صوت المنون
وصدى الأجداث
ليس تستهويه ألحان الطيور
بين أزهار الربيع الساحره
وابتسامات الحيساة الساخره
عن جلال اللسه
فنتي يا طسير أنات الجحيم
واسقني الآ
واترع الكأس بأوجاع الحياه
واسقني اني كرهت الا بتسام
غنتي نددب الأماني الغائبه
والليالي السود
فنتي صوت الظلام المكتسب
انني أهواه

ولا شك أننا نشعر في أثناء قراءتنا لهذه الأغنية بوضوح الألم في صدر الشابي ، فقد تحطمت قيثارته ، حطمتها كف الآسى في يد الأحلام ، وذابت نغمات الفرام بدنياه في غمرة هذا التحطيم . ان المرض يطعنه في الضمير ، في قلبه ، وهو يتطلع الى الحياة كشمس تغرب تحت عينيه ، وانه ليعجب فسيما غناء العصفور انه لا ييمت حيننا ولا بشرا ولا حياء ، انه لا ييمت الا المذكرى التمسمة

والأ أنثة الأوتار وهو لا يريد بعد اليوم أن يرى الصباح ، ويسمع بلبل الأفراح فحياته أصبحت ظلاما مطبقا لا تمرق النور ولا تطيق السرور ، وكيف تعرفهما والمرض ينشر أجنحته السود فوقها . ولا تلبث رياح الخوف والذعر أن تهب عليه من كل مكان ، ان يرهف سمعه ، فلا يسمع سوى أصوات الموت المدوية وأصداء القبور المرعبة ، وان يهزغ سمعه قرع أجراس تقترب من يعيد ، بل من قريب في أحشائه وسويدا فواده .

وهذا كله يرهف حسه وأعصابه ، فيبكي ويعلم بكأوه ، ويتجه الى بعض الطير يطلب اليه أن يهجر غناه الفرح القديم الى أنات الجحيم ساكيا في كؤوسها الآلام وأوجاع الحياة ، حتى ينهل منها ما يشفي ظمأه . ويطن غلته . ويتوسل اليه في اسى وهسرة أن يندب له أمانيه الخائبة ولياليه السود الموحشة ، مرتلا صوت الظلام الكئيب ، وقد أشرفت الحياة على المغيب في لجة الظلام العميق .

ولم يستطع أحد ولا شئ أن يرد الشابي عن هذا الشعور بخيبة الرجاء ، فالملة تعصف بقلبه ، وهو يراقب أمه بالحياة وأحلامه ، فيراها تتساقط على نحو ما تتساقط أوراق الخريف ، ألا قلبك وليرسيل الدمع مدارا ، وما قهيدته أو أغنيته " ماتم القلب " إلا حبات من هذا الدمع الذي يتناثر دائما من عينيه ، وفيها يقول :

فبي الـديـا جـي
 كم أنا جـي
 سمع القبر يفصا . . . تنحبي وشجوني
 ثم أصفي علني أسـ . . . مع تـرد يد أنيني
 فأرى صوتي فريد
 مات حـبي
 مات قلبـي
 فاذرفي يا مقلّة اللـ . . . حل السـدراري عـبرات
 فوق قلبـي فهو قدود . . . ع أوجـاع الحـياة
 بمد أن ذاق اللهب

وثاني الأسباب التي تجعله يتألم بعد مرضه ، هو هذا الحب الذي يرثيه مع قلبه هبه للحياة وما يتألق في بصره من جمالها الذي يسطع على الأشياء والأشخاص من حوله ، وأنه ليريد أن يعانق هذا الجمال بكل جوارحه ، فترده يد سوداء تخرج له من الظلام ، تنهأ أن يقترب فيبكي ويئن

ويشمر كأن الدنيا بكل ما فيها من سعادة وجمال وفتنة قد فرت من تحت
بصره ، ولم يمد له إلا كهوف الموت يتعثر بين صخورها . ويا لبؤس الحياة
حين يضغط الممرض على قلب الشاعر وصدرة ، فتسود الدنيا في عينيه ، ولا
يجد ما يفرج عن كربته ، أو يكشف عن غمته ، حتى أمانيه فانها تهوى
متساقطة تساقط الشهب ، ولم يبق للشاعر من دنياه إلا الظلام الموحش ،
والرؤيل المزعجة والأشباح المخيفة ، أشباح الصوت القاسي الفاشم الذي لا
يرحم :

أرأيت شحور الفللا . . . مترنما بين الفصون
جمد النشيد بصدرة . . . لما رأى طيف المنون
++XX++

فقضى وقد غاصت أغما . . . ويد الحياة الطاهرة
وهوى من الأغصان ما . . . بين الزهور الباسرة
++XX++

أرأيت أم الطفل تبي . . . كي ذاك الطفل الوحيد
لما تناولته بمنى . . . فساعد الصوت الشريد
++++XX++

أسمعت نوح الماشق الـ بولها ما بين القبور
يبكي حبيبتيه فيها لمصارع الموت الجسور

فالدنيا حولته ليس فيها إلا أشباح الموت ، وبصره يشاهد هذه الأشباح جائمة
على صدر كل شئ : الشحارير والأطفال والمشوقات ، فيستفيث ، ويستجير ، ويأخذه
الفرع من كل جانب . ولم يكن هناك وقت يزدحم عليه فيه الفرع كالليل ، إذ كان
ينهاه عليه الممرض جليداً ووخزاً وأفتناً ، وكأنه سيهاط من نار أو كأنه سيوف حامية
فكان يخافه ويهربه ويرتجف حين يدنو منه رجفة شديدة ، حتى ليظير عقله
أحياناً ويظير صوابه ، ان يشعر كأنه سيخنقه خنقا ، وأغنيته أيها الليل تصور
محنته به ، وفيها يقول :

أيها الليل يا أبا البؤس والهو . . . لويلها هيكل الزمان الرهيب
أنت يا ليل ذرة صعدت لك . . . كيون من مواطني الجحيم الفضوب
يا ظلام الحياة يا لوعة الحز . . . ن ويا معزف التعيس الفريب
فيك تنمو زنايق الهلسم المنذ . . . تبتدوى لدى لهيب الخطوب
وفوقك في هفائك السو تدب الأيام أي ديب

فالليل عنده رمز البؤس والهول وعذاب الجحيم ، وأي عذاب؟ انه عذاب المريض
الذي تفلق عليه دائرة حياته ولا تنفتح إلا للألم والوجع .

وانه ليحس في أثناء ذلك بالمزلة في هذا القعر الضيق الذي سجن وراء
قضبانه ، ان أصبح غريبا عن الحياة وسط دياجيريه . بل وسط لهيبه الذي
تتأثر فيه الزنايق أحلامه ، وانه ليسير وقد أسر الأيام والآمال في ضفائره
السود ، التي قد تشبه أدق الشبه الأغلال والقيود . ويجمع الشابي أمره وينظر في
كل هذا الهول الى أعماقه ، وسرعان ما يقول :

سددت في سكينه الكــو . . . ن للأعماق نفسي لحظا بصيد الرسوب
نظرة مزقت شفاف الليالي . . . فرأت لهجة الظلام الهيـسـوب
ورأت في صميمها لوعة الحـزـه . . . وأهضت الى صراخ القـلـسـوب
انما الناس في الحياة طيور . . . قد رماها القضابوا رهيب
بمصنف الهول في جوانبه السـو . . . دليقي على صدى المندليب

فهو يسدد نظره الى الليل فلا يرى فيه إلا أمواجاً من الظلام قد رسبت في
أعماقها لوعات الحزن والآلمة وويل القلوب وصراخها ، هذا الصراخ الذي يطن
في قلبه طنين النا قوس ، وما يلبث أن يلقي سلاحه ، ويستسلم قاعلاً :
” ان الناس في الحياة طيور رماها قناب القضا في . . . وادى الحزن والألم حيث
بمصنف الهول والرعب في جوانبه المداجية حيث الموت فاغرفاه . . . يلتهم كل ما
يلقاه .

وعلى هذه الشاكلة أغاني الشابي ، فكلها حزق وكاء ، وكلها ثمرة هذا الألم
الذي كان يعصر قلبه عصراً . وكان هذا الألم هو صمت وحيه ومنبع شا عريته فلولا
على ما يظهر ، ما تحركت في داخل نفسه الباطنية عبقريته الشاعرة ، وتمايلت أغصانها
في ظلمة المرض وهمومه وأوجاعه .

وثالث أسباب الألم الذي يعاني منه الشابي : الظروف التي كانت ترزح فيها أمته
ان وجد هذه الأمة ترزح تحت كابوس الاستعمار الفرنسي وتستشعر منه ألماً مريراً وهو
ألم ينبعث من قلبها وصميمها كما ينبعث ألمه من قلبه وصميمه ، وقد أنهلها
الفرنسيون ، وحوّلوا حياتها الى جحيم لا يطاق .

وكان الشعب التونسي في مجموعته كالنائم ، لم يستيقظ منه إلا الأقلون عدداً ، ثاروا
لأمتهم وثار معهم الشابي ثورة تغفلت في أعماقه ، ان تصادف أن كان مطلوا ،
فأحس إحساساً دقيقاً بعلق أمته وبالمرض السياسي الذي يطحنها طحن الرحى
تحت أنيابه ، انه الاستعمار البشع الفاشم ، الذي ^{الذي} بكله على صدر أمته ، وانها
لتذوق منه ومن ظلمه وبطشه الأمرين ، فترفع رأسها تريد أن تحيا حياة حرة
كريمة ، فينهال عليها ضرباً وطمعنا ، حتى تخرب صهيضة الجناح ، وهي تئن أنين
الثكى ويهب الشابي في وجه المستعمر ، فيدلّمه بمثل قوله :

الآ أيها الظالم المستبد . . . حبيب الفناء عدو الحياة
سخرت بأناش شعيب ضعيف . . . وكفك مخضوبة من دمائه
وعشيت تدنس سحر الوجود . . . وتبذر شوك الأسى في رياه

XXXXXXXXXX

رؤيدك لا يخذ عنك الريح . . . وصحو الفضاء وضوء الصباح
ففي الأفق البرهيب هول الظلام . . . وقصف الرعود وعصف الريح
ولا تهزان بنوح الضعيف . . . فمن يبذر الشوك يجن الجراح

XXXXXXXXXX

تأمل هنالك أتى حصدت . . . رؤوس الورى وزهور الأملى
ورويت بالدم قلب السُّتراب . . . وأشربتته الدمع حتى شملى
سجرتك السيل سيل الدماء . . . وبأكلك العاصف المشتعل

فهو يسجل على عدو شميه ظلمه واستبداده وما يسفح من دماءه الزكية،
وانه ليدنس رياه الطاهرة بما يفرس فيها صن شوك الأسى والألم، ويقول له :

مهلا لا يخذ عنك ما ترى من الصحو وابتسام النور في الريح، فستعصف بك عما
قريب ربح صرصر عاتية، تجرفك هي وأمواج الدماء التي أسلتهاد موعا حمراء في
جنات الوطن، ان كل ذلك سيلتف بك ويبتلعك في جوفه ابتلاعا .

وهذا الشعر السياسي أو الوطني كان منتشرا في كل بلاد الشرق الأوسط : في
مصر والشام والعراق ، ولكن شاعرا لم يبلغ في هذه البلدان ما بلغه الشابي في
تونس من حدة الاحساس وعنفه .

حقا نجد عند حافظ والرصافي وأضرابهما تعبيرا سياسيا أو وطنيا مستوحدا
في لغتنا، ولكننا لا نجد عندهما هذا الاحساس الحاد الذي يجعل الشاعر
يحس في أعماقه الآم أخته وأوجاعها تلقاء المستعمر الظالم، فينتفض ويترأف في
وجه العاصب زعير العاصفة، على نحو ما يترأف الشابي ان يقول :

ألا أيها الظالم المصعّر خدّه . . . رؤيدك ان الدهر بيني وبينهم
أفرك أن الشعب مفر على قدي . . . لك الويل من يوم به الشر قشمم
سيثار للعزالمحطم تاجيسه . . . رجال اذا جاش الردى فهوهم
رجال يرون الذل عارا وسهبة . . . ولا يرهبون الموت والموت مقدم
ألا ان أحلام البلاد دفينه . . . تجمجم في أعماقها ما تجمجم
ولكن سيأتي بمد لى نشورها . . . وينشق اليوم الذي يترنسهم
هو الحق يبقى راكدا فاذا طفى . . . بأعماقه السخط العصفو يمدم
وينحط كالصخر الأصم اذا هوى . . . على غمام أهنام العتو فيهمم

وهو في هذا الزئير الذي يدمدم فيه دمدمة الأسد لا يقف في صف أمته فحسب ، بل هو ينطق بلسانها وروحها ويمر عن ضميرها ومكنون أحلامها وأنها لا بد يوما أن تثار لكرامتها وحررتها التي ذبحها المستعمر ذبحا وولغ في دمها وما يزال الدم عالقا بفسه ، انه يوم اليمث والنشور ، يوم الحق الذي يهوى فيه نجم الباطل .

وإذا كان الشابي هان يوما وذل أمام الصّابو أمام مرضه الذي يعيش في قلبه ، فإنه لم يهين ولم يذل أبدا أمام المستعمر بل ظلّ قويا متحفّزا ، يريد أن ينشب أظفاره فيه ، بل أظافر شعبه ، ومن أروع ما يصور ذلك أنشوده " ارادة الحياة " والتي يقول فيها :

إذا الشعب يوما أراد الحياة . . . فلا بد أن يستجيب القدر
ولا يدّكّل أن ينجلي . . . ولا بدّ للقيد أن ينكسر
ومن لم يمانقه شوق الحياة . . . تبخر في جوها واندثر
كذلك قالت لي الكائنات . . . وهدّثني روحها المسكّنة
وددمت الرّيح بين الفجاج . . . وفوق الجبال وتحت الشجر
إذا ما طمخت السّي فإية . . . لبستّ المنى وخلصت العيذ
ولم أتخوف وعور الشما ب . . . ولا كبة اللهب المسكّنة
ومن لا يحبّ صمود الجبال . . . يعيش أهد الدهر بين الحفر
وأطرقّت أصفي لمزف الرياح . . . وقصف الرعود ووقع المطر
وقالت لي الأرض لما تسأل . . . تيا أم هل تكرهين البشر ؟ !

أبارك في الناس أهل الطموح . . . ومن يستلذ ركوب الخطر
وألعن من لا يمشي الزمان . . . ويقنع بالعيش عيش الحجر
هو الكون يحب الحياة . . . ويحقر الميت المنسد ثر
فلا الأفق يحضن ميت الطيور . . . ولا النحل يلثم ميت الزهر
فويل لمن لم تشقه الحياة . . . هة من كعنة العدم المنتصر

وهذا الشعر كله قوة ، وكان الشابي يريد أن يبعث أمته ، فلم نفسه ونفخ في الصور ، لعلها تحيا من جديد ويحيا معها ميت الأمل ، انه يريد أن ينقذ الضحية من يد جزائها ، وهو يدفعها لعلها تشور ثورة فيها جرأة وفيها قوة وفيها مخاطرة ، حتى تفقدى نفسها ، بل حتى تثار لكرامتها وعزتها الطريجة .

ويستمر الشابي في بقية الأنشودة مقبلا على دنيا فهو طموح ، قد خلع عنه رداء التشاؤم ، وكأنما أحس الحياة وتألفت فيها إرادتها ، وأراد أن يعكسها على أمته لتهب من رقادها ، وتتفصّ فبار الذل والاستكانة عن بصرها وبصيرتها .

ويمر به الليل فلا يؤذيه ، بل ينتشي فيه ويسكر من ضياء نجومه ويناغيه ، ويشعر
بظلمة الليل من نهر الحياة ، ويقبل عليه يريد أن يعب منه ، كما يقبل على
النور يريد أن تكتمل به عيناه .

ورابع أسباب ألمه : موقف أعدائه منه وخاصة هؤلاء الذين لا يقدرون أدبه
وشعره ، ولم يكن يثور الشابي لشعبه من دونه ، بل كان يثور أيضا لنفسه ثورات
شخصية ، فقد أصيب بخصوم لا يقدرون له أدبه وشعره ، وكان هذا يحز في نفسه
ويؤلم صدره ، وكان اذا عاد له شيء من نقاهته حول بصره اليهم فأنشد
أناشيد مدوية تأخذ بأسماعهم وأبصارهم من مثل تشيد " الجبار " الذي يصور
تسكبه بارادة الحياة وهو يستهمله بقوله :

سأعيش رغم الداء والأعداء . . كالنسر فوق القمة الشطاء

أرنو الى الشمس المضيئة هازئا

بالسحب والأطوار والأنواء

لا ألم الظل الكثيب ولا أرى . . ما في قرار الهوة السوداء

وأسير في دنيا المشاعر حالما . . غردا وتلك طبيعة الشعرا

وأقول للقدر الذي لا ينثني . . عن حرب أمالي بكل بلا

لا يطفئ اللهب الموجج في دمي . . موج الأسي وعواصف الأرزاء

فأهدم فؤادي ما استطعت فانه . . سيكون مثل الصخرة الصماء

لا يعرف الشكوى الذليلة والبكا . . وضراقة الأطفال والضعفاء

ويعيش كالجبار يرنو دائما . . للفجر ، للفجر الجميل النائي

ويمضي في هذا الصوت القوي معلنا أنه لن يهتم بالقدر وما يضعه في طريقه

من مخاوف الليل وزوابع الشكوك وصواعق الجؤس ، فسيستبصر بروج عالم متوهج بال
بالنور ، ولن يلقي بالألأ ولا اهتماما لما ينشره حوله من ظلام حالك .

وحتى ان هموا فاه القدر المحتوم فسيكون سعيدا لتحواله عن عالم البغضاء

والاثام وهذه الوجوه الصعبة من حوله التي تود لسوتداعي بناؤه ، بل انهم ليشعلون
النار يريدون أن يشووا عليها أشلاءه ، ويتوجه اليهم بخطابه :

ان المعاول لا تهدن ظاكبي . . والنار لا تأتي على أعضائي

فارموا الى النار الحشائش والعبوا

يامعشر الأطفال تحت سمائي

وكان يألم على ما يظهر أشد الألم لما يزدري هؤلاء الخصوم من شعره وفنه ،

وكان لهم يعرف أن هذه عادة النفوس الصغيرة ، فأصلحها كالنباتات الطفيلية ترى

الشجرة الباسقة وقد علت رأسها وتمادت في السماء ، فتلق بها تريد أن تصعد اليها

وتود لو تجهز عليها فتستريح منها ومن علوها ، وما بأيديها ولا بأيدي أعداء الشابي
وأمثالها أن يمنعوها صعود الجبال والأشجار إلى عنان السماء ، وما كان لهم أن يطفئوا نور العبقرية
أيّة عبقرية من العبقريات أراد الله لها أن تضيئ وتتلأ لأ رغم أنوفهم .

وعلى هذا النحو لم يمكن الشابي يلق خصومه بشي من التسامح ، فقد كان
حاد الحس والشعور فتحوّل يقذفهم بهذه الحجارة يريد أن يدمي رؤوسهم ، ووسع الدائرة التي
يقذف بها حجارتها فلم يقف بها عند طائفة معينة من شعبه ، بل ربما عمّ بها الشعب كله
في ساعة من ساعات غضبه ، فاذا هو يصب عليها طوفانا من الأحجار حتى
ليقول :

أيها الشعب ليتني كنت حطاً . . . يا فأهوى على الجذوع بفأسي
ليت لي قوة الأعاصير يا شعبه . . . بي فألقي اليك ثورة نفسي
ليت لي قوة الأعاصير لكمن . . . أنت حيّ يقضي الحياة برمس
أنت روح غيبة تكرر النهم . . . روتقضي الدهور في ليل ملسم
في صباح الحياة ضمخت أكوا . . . بي وأترعتها بخمرة نفسي
ثم قدمتها اليك فأهرقت . . . رحيقى ودست يا شعب كأسي
ثم نضدت من أراهاير قلبي . . . بانقة لم يمسا أي أنسي
ثم قدمتها اليك فمزقت . . . ورودي ودستها أي دو س
ثم ألبستني من الحزن ثوبا . . . وبشوك الصخور توجت رأسي
ها أنا ذاهب إلى الفسلب يا شع

بي لأقضي الحياة وحدي بيأسي

ولا يمكن أن تفسر هذه الثورة على شعبه إلا بأنه كان يستقبل شعره استقبالا فاترافصب
جام غضبه عليه ، حين رآه لا يعرف مواهبه ، ولا يستقبل أناشيداً بالحزارة التي يجب أن
يستقبل بها ، وربما كانت ثورة خاصة فعممها فهو يثور على خصومه ممن ينكرون عبقريته
الشعرية ويتسع نطاق ثورته إلى الشعب جميعه . على كل حال هي ثورة عابرة في
أشماره ومثلها مثل الدوامة تظهر على الماء ثم تمضي ، وكانت حياة الشابي كدرة
كدرها العرش والامه ، (١) .

وغامس هذه الأسباب التي تدعوه إلى الألم هو وفاة حبيبته ، ولقد ماتت
حبيبته في صباها وتركت له سلا من الألم والذكريات الحزينة ففي قصيدته "جدول
الحب" يقول :

بالأمس كانت حياتي كالسماء البسامه

واليوم قد أمت كأعماق الكهوف الواجمة

هو جدول الحب الذي قد فمجرت ينبوعه في مهجتي

أجفان فاتن أرتنيها الحياة لشقوتسي

أجفاني فانتمة تترامت لي على فجر الشباب .
كعروسة من غانيات الشعر في شفق السحاب
ثم اختفت خلف السماء وراء هاتيك الخيوم

حيث العذارى الخالدات ، يحسن ما بين النجوم
قد كان ذابا لأمس ، بالأمس البعيد
والأمس قد جرفته متهورا ، يد الموت العتيد

بل لقد كان لها أيضا في نشره أثر . ففي مقاله "صفحات دامية من حياة الفنان نراه يبكي هذا الحبالطولي الطاهر، فيبكي فيها حياة مشرقة وألحانا رواقص من حبها السعيد ثم نراه يند في نهايته ذلك الأمس السعيد الذي كان فيه ينعمان بالحب والسعادة دون رقيب أو نذير، ولا نظن هذه الصفحات الآن كانت عن حبه هو وحياته ، هو قال :
" . . . تلك كانت حياتي بالأمس ، حينما كنت بخورا يتخوع في معبد الحب ، ورحيقا يهرق تحت أقدام الجمال ، وأنشودة تلهيه تتغنى في هيكل الوجود " .
ويقول :

" . . . تلك كانت حياتي بالأمس ، أما اليوم فقد انكسرت بين ثلوج الموت تلك الزهرة السماوية الطاهرة التي كنت تهيبا لي البقاء في هذا العالم وبقيت وحدي بين الصخور أشيب بالموت ، وأتفرزل بأهواء القبور " .

وسواء كنا نعرف قصة حب الشابي في صباه أو لم نعرفها تمامة الفصول فأننا نستطيع أن نقول : أن الشابي في صباه قد أحب حبا عذبا جميلا ، وكان موت حبيبته صدمة عظيمة على قلب الشاعر حتى أن صديقه زين العابدين السنوسي ليقول أن صدمة الشابي في حبه كانت من أسباب مرضه . (١) .

ويؤيد السنوسي فيما ذهب إليه من أن موت حبيبته كان صدمة عنيفة عليه ولكنه لم يشأ أن يعزو إليه حزن الشاعر وألموه حجتة أن الشباب أو الشعراء الذين عانوا مثل تجربته في مثل عزمه كثيرون ، ولم تسطع أعمارهم بهذه الصبغة القاتمة ، وراح يبحث عن تفسير آخر لكاتبه في تفسير الحب فيقول :

" . . . أما أحواله الخاصة فقد كان في درجة محمودة من العيش ، ولم يمصرف عنه التهاك على حب الطبات والحياء ، وأما مرضه فقد صادفه شاعرا كامل الأداة فليس في أحواله الخاصة كذلك ما يعلل أحزان هذا الشاعر . فإذا نظرنا إلى أحوال تونس الأخلاقية والاجتماعية والسياسية أيضا فأننا نجد لها تورا الحزن لا محالة . ولكن كم هم الشعراء الذين زاملوا أما القاسم الشابي ، ولم تستبه تلك الأحران بأعمارهم ؟ " .

كل هذا في نظر الكاتب " روافد ممتعات " . . . اننا ينهفي عنده أن يطلب

تعليق الآم الشابي داخل نفسه، ويبحث عن التعريف لكاتبه المجهولة في نظريته للأشياء لاغير، لأن البحث عنها غيرها غير مجد، وتعليق هذه الآم بأمر أخرى خارجة عن ذاته لغير تركها إليه النفس.

والكاتب يعني بداخله نفسه: "يقظة شعور الشابي التي ركبت ما حولها" ويقدر الكاتب أن الشاعر لوعا ش: "بهذه الشعور ولم يرافقه حنين السبي حياة أخرى، لكن من الواضح أن يشتمل شعره على اشراق وبهجة، تنسينا أحياننا تلك الفيوم من السامية والضجر".
أي أن حلم الشابي الشاعر بحياة أخرى يمزج يقظة الشعور في تلوين شعر الشابي بصيغته القاتمة، وهو كما يبدو من صياغة الكاتب ليس من الروافد المتممات^٣ فحسب ولكنه يتقاسم الأهمية مع السبب الذي التمسه الكاتب تفسيراً لحزن الشابي ويقظة شعوره.

وأما الدكتور - نعمات أحمد فؤاد - فصهي ترى أن جميع العوامل السابقة من مرض، وفقد أحبة، وتماسكاً ووطنه في أيامه، ويقظة شعوره، كلها عوامل لا يكاد يرجح أحدها على الآخر في تعليقه ألمه بل إنها تتساوى تقريباً في الوصف إلى هذا التعليق. (١)

كفاح الشابي :

لم يكن الشابي شاعراً تشاؤمياً حزيناً منطويماً على ذات نفسه، فيتمدد عن الحياة وعن المجتمع، وإنما كان انساناً حساساً مرهف الحس كإدراكه بالآحداث والانفعالات تصل درجة الكمال، وهكذا مضى الشابي ينفعل بأحداث مجتمعه ومساوويه، والشابي لا يمكن أن يساير حياة الاستكانة والضعف، حياة يسيطر عليها الجمود والموت، حياة تفرغها عليها أسراب الرجعيين الاستعماريين بأجنحتها السوداء، فتظلم عليه الجؤولا يرى من نور الشمعة الأقدرا قليلاً ضعيفاً، كان عليه ان أن يكافح لبني المجتمع الذي يريد ويمثله ويهدم الحواجز التي تعوقه، ولم الشابي قائد عسكرياً حتى يشنها انقلاباً يطيح بالمتجربين عن عروشهم، ولا زعيماً سياسياً حتى يدعوا إلى الاضراب، والمظاهرات حتى يفرض على الشعب رأيهم وان كان فعلاً قد فعل شيئاً من هذا فيبي أثناء دراسته في الجامعة الزيتونية، وإنما كان شاعراً فناناً لا يملك سوى روحه وشعره وقلبه، فذوب شعره قرباناً لبلده وشعبه،

(١) : شعب وشاعر - الدكتور نعمات أحمد فؤاد ص ٤٨٠ .

وراح يشدوا على قيثاره الشمر أروع أغاني الكفاح ، وراح يبيت الثورة في نفوس الجامدين
الخامدين المستذلين ، وراح يندد بالظلم ويدعو الى الحرية والبناء ، وكانت قصائده
للشعب ترانيم سماوية خالدة ومبعت نور وقوة خارقة في الأدب وطرق الانبعاث القومي
والانسانى الحر .

وإذا كنا نرى في تونس اليوم نهضة سياسة وأدبية واجتماعية فنحن مضطرون الى
أن نعود الى كفاح هؤلاء الأوائل الذين وضعوا حجر الزاوية في بناء صرح النهضة
بتونس الحديثة : أمثال أبو القاسم الشابي - والطاهر حداد محرر المرأة - وخير الدين
باشا المصلح العظيم وغيرهم من رجال الاصلاح والبناء والتمجير ، ويمكن تلخيص كفاح
الشابي في عنصرين هامين هما :

- ١ - رسالة الشابي التحررية .
- ٢ - كفاحة في سبيل هذه الرسالة .

أولا : رسالة الشابي

=====

هذه الرسالة التي نتحدث عنها اليوم لم يختلقها الشابي اختلاقا ، ولم يفرضها
على مجتمعه ، وانما فرضتها عليه ظروف مجتمعه الجامدة الرجعية الظالمة ، فمن أول
يوم من أيام دراسته بالزيتونة نجده نائرا على أنظمة تدريس الكتب القديمة المصْفَرة
المتعَفِّنة ، ومن أول قصيدة في شعره نلمس منها ثورة على أنظمة الشعر العربي التقليدي
المطبوع بكل ما فيها من أدران وتفاهات ، فلقد كان مؤمِنًا بالشعر كقضية ومبدأ ورسالة
وليس كنظم يراد به أغراض تافهة من مدح وهجاء وعرضيات .

ولقد أوضح الشابي رسالة التجديد كلها في مقال واحد هو (يقظة الاحساس)
ويقظة الاحساس هي تلك الفلسفة الشاملة التي عرضها الشابي في سائر اليادين في المجتمع
وليس أقدر على شرح فكرة الشاعر الا ايراد مقتطعات من مقاله :

قال الشابي مصبرا عن هذا الأمل الذي يراوده في كتابه الخيال الشمري عند العرب .

يقظة الاحساس وأثرها في الفرد والجماعة :

=====

* تسمع لهذا الشاعر فاذا أنت أمام روح الهى نبيل يسمو بنفسك الى آفاق الحق
والفن والجمال ، ويجعل منك كتلة من شمع قديس مشبوب ، وتسمع لآخر فترى أنك تسمع
لحديث سانج بسيط لا يميزه من أحاديث الناس المادية الارنة النغم ، وتواتر القوافي
وجمال التعبير ، وتسمع لغيره فتخال أنك تجلد بالسياط أو تساق الى الموت !! * .

* وهذا شعب من شعوب الأرض يجد ويكدح وينتج ويخصب أينع الثمار وأحلاها
فاذا له حياته الأدبية الناضجة ، وحياته العلمية الراقية ، وحياته المادية المهدبة ، وشاعره
الطامحة الى ما هو أجل من ذلك وأسمى ، الى المثل الأعلى المحجب في الظلام ،

وهذا شغب آخر منصرف الى التبطل والفراغ ، مخلد الى الكسل الخمول ، لا يعمل ولا يعمل ولا يعتج ولا يجود على الانسانية بخير ، ليس له فن ولا علم ولا أدب ولا طموح بل ولا حياة أيضا الا كما تجا ماشيته في الحقل وآبدة الجبل ، فما السر في هذا التفاوت الواضح بين هؤلاء ؟ .

ستقول الحرية ، فكما كان الفنان حرآ في فنه اكتشف آفاق جديدة من السحر والجمال وبذلك يسمو على غيره من لا يعطى فنه حرية الحياة ، وهذا حسن لولا أنه ان صح صرفه الى الفنان فانه لا يصح صرفه الى الشعوب ، لأنك كثيرا ما تجد الشغب حيا منتجا تزخر في عروقه دماء الحياة وعزها ، ومع ذلك لا يملك من الحرية ما يتكافأ مع حيويته ونتاجه وهو فوق ذلك تعليل ؛ للشئ بغير علته .

وعندى أن السبب الحقيقي لذلك هو " يقظة الاحساس " لأن حرية الفنان في فنه انما هي أثر من آثار هاته اليقظة الروحية وثمرة من ثمارها ، فاذا ما تيقظ الاحساس فسى قلب الشاعر والفنان - بتعبير أشمل - كان له - بالرغم منه - استقلاله الذاتي الذي يشعره بأنه قوة حية منتجة ، من المستحيل أن تندمج في سواها ، وألا تشق لنفسها سبيلا بكرًا للمجد والحياة ، وكانت له كرامة تترفع عن أن تذوب في غيرها ، أو ان تنحط الى درك التقليد ، وبذلك تصبح نفسه شعلة نامية حية تتوهج في قلب الحياة ، وطائرا ساويا يتغنى بأفكار البشر وأحلامهم .

وإذا تيقظ الاحساس في نفس الشغب ، وروح الأمة ، تحركت في صدره - برغم كسل شئ - تلك الأشواق الطامحة ، والرغبات الجامحة ، التي كانت مكحلة نائمة في ليل الدهور وان ذلك يشعر بنفسه - وإذا قلنا يشعر بنفسه فقد قلنا كل شئ - ويعلم أنه عضو في هاته الجامعة البشرية ، عليه واجب السعى والعمل في سبيل كفاح الانسانية المنشودة .

وان شغبا يكون مستيقظ المشاعر ، متسع جوانب الحياة ، لجدير بأن يستخرج من الحياة خير ما فيها من فن وصحة ، وان فناً يكون مصدره ذلك العطش الروحي الذي يلهب النفوس ، وتلك العواطف الثائرة التي تعصف في قلب الشغب ، وبصبرة أخرى ان فناً يكون مصدره تلك اليقظة الروحية العميقة التي سميناها " يقظة الاحساس " لهو الفن الحى في صميمه ، الفن الذى لا ينصرف الى القشور ولا يقنع بما دون اللباب " ومن هنا تفهم معنى أن يقظة الاحساس هي روح الحياة المنتجة الولود ، التي تصل المبهقبة وتوجع نيران النبوغ " .

هكذا انن عبر الشابي عن فكرته ، وآمن بها وطبقها على سائر مجالات الحياة بل لقد دعا اليها أيضا في شعره :

لا ينهض الشغب الا حين يدفعه . . . روح الحياة اذا ما استيقظت فيه .

هكذا اذن كانت للشابي رسالته التي فرضتها ظروف مجتمعه ، هي رسالة التجديد والتطور والبناء والاصلاح ، ولقد كان رواد التجديد مثلين في جمعية قدماء الصادقية ، فانضم الشابي اليها وعلى منبرها دعا دعوته التجديدية الأولى ممثلة في محاضراته الخيال الشعري عند العرب.

كانت رسالة الشابي أن يبعث الروح في الشعب الساكت الجامد ، وأن يبعث الثورة في النفوس ، وأن يدلّهم على نواحي الجمال والحب والرحمة والحنان والتطلع الى مناهي الجمال والافتتان بها والايمان بالحياة ، والايمان بالحرية كحق مقدس لكل انسان ، هذه كانت رسالة الشابي في السياسة والمجتمع والأدب وسنتعرض لها بالتفصيل .

الشابي ومأساة وطنه :

=====

كان من أهم نواحي رسالة الشابي الوطنية الدعوة الى الثورة والتجديد فلقد كان شاعر الثورة والقوة ، ولم تكن ثورة الشابي ثورة مدبرة مهذمة ، بل كانت ثورة همة ترمي الى الاصلاح والبناء ، كانت ثورة على الظلم والظالمين ودعوة الى الايمان بارادة الحياة الحرة ، تلك الحياة التي تكره الجمود والخمول والخمود ، فذلك نوع من الصوت.

كانت رسالته أن يعيش الشعب حراً غير مقيّداً أو مأسوراً ، وكانت رسالته هي أن يعرف الشعب بالنور وأن يدعو اليه الى الحرية والبناء والثورة على الظلم والظالمين والطفيلان والاستعمار رمز العبودية .

الى النور فالنور عذب جميل . الى النور فالنور ظل الاله

ولقد كان الشابي مؤمناً ببلاده ومستقبلها ، محباً لها مؤيداً لحريتها داعياً الى تقدمها ، ولقد عبر الشاعر عن هذا كله في قصيدته الرائعة تونس الجميلة حيث قال :

ضيع الدهر مجد شعبي ولكن

سترى الحياة يوماً وشاحه

لقد آمن الشابي بوطنه وكان دائماً يؤكد أن في أعماق هذا الشعب التونسي ثروة روحية ضخمة وفناقوية ، ولكنها ثروة مهملّة وفن غير مصقول وان في طبيعته هاته البلاد سحراً يلهم الصخر أسمى معاني الجمال وأروع الأفكار لو كان للصخر مشاعر حية واعية ، وان الداء كل الداء في الألسنة المعبرة ، لا في روح الشعب وطبيعة البلاد .

ولقد كان من رسالة الشابي أن يندد بالظلم والظالمين ، وأن

وأن يفرض مؤامرات الاستعمار وأكاذيبه، ولقد كان ناقما على استعباد الانسان
للانسان ثائرا على الظلم أينما كان، فظالما كان هناك ظلم وظالمون، وظالما
هنالك سيد ومسود هنالك موت وجمود وخمود ورجعية، ولقد كآب الشابي في
نقته على الظلم والظالمين يحفز الشعوب على الكفاح والثورة اذ يقول:

سيثأر للمز المحطم تاجه . رجال اذا جاش الوري فهمهم
رجال يروث الذل عارا وسبًا . ولا يرهبون الموت والموت مقدم
ولظالما حذر الشابي الظالمين ثورة المظلومين مؤمنا بأن الحق لا بد أن
ينتصر وأن ينشر لواءه :

حذار فتحت الرصاد اللهب . ومن يبذر الشوك يجن الجراح

ولقد كان الشابي يهاجم الظلم والظالمين ليفسح الطريق أمام الشعب
ليعيش ويتحرر ويبني ويمسح، وكان يحارب الأوهام والخدع الاستعمارية
والسياسات السامكة التي تدعو الى الامحاج .
ولقد دعا الشابي الشعب الى أن يجدد حياته ويطور مجتمعه وأن يعيش حياة
مستقلة تنمو فيها شخصيته وذاتيته وروحه، فهو في ايمانه بشعبه ومستقبله نراه
يسأل سعيه قائلا :

أينس يا شعب قلبك النايف الحساس ؟ أين الطموح والأحلام ؟
XXXXXXXXXXXX

خلقت طليقا كطيف النسيم . وحرًا ككور الضحى في سماه
فمالك ترضى بذل القيود . وتحني لمن كبلوك الجباه ؟
ألا انهض وسر في سبيل الحياة

فمن نام لم تنتظزه الحياة

ولقد أعلنها حربا شموالا على المفكرين المنعزلين عن المجتمع وجمودهم
القابعين في أبراجهم العاجية، وكانت رسالته أن يدعو الشعب الى الحياة
المتطورة المتجددة، وكانت رسالته أن يصمد بروح الشعب الى آفاق النور
وسماوات الايمان بالحياة، والثقة بنفسه وبغده ومستقبله والاحترام لما ضيحه
والايمان بالمدخرات الهائلة في أعماقه .

ولقد عاش الشابي مأساة الشعب كله بقلبه وروحه الحساس، وحاول
أن يبعث فيه الروح والثورة على الموت والايمان الصادق بانتصار الحياة، الحياة
الهنزة الكريمة المتجددة المطردة، فهو أول من عاش مأساته الخاصة في
مأساة شعبه كله . وبدأت رسالته الى الوعي الاجتماعي المقدس الذي
يؤمن بالحق والحب والخير ايمانه بالله - والذي يصرف مواطن الجمال
ويبتغيه في الروح الانسانية وفي الجمال الطبيعي الفتان .

الشبابي ومأساة مجتمعه

=====

كان المجتمع التونسي في مبادئ القرن الحالي مجتمعا فككيا ،
ضائما يتغشى فيه الجهل والظلام ، وتلتف حوله قيود الآراء الاجتماعية
الرجعية الكثيفة تلك التي كانت تسيطر عليه من كل ناحية : من الناحية
السالية والادارية والأدبية .

وعلى الرغم من تلك الاشاعات الثورية التي كانت قد تسربت خلال
تلك الظلمات الى هذا المجتمع ، فان هذه الثورات والأفكار لم تكن لتنتشر
على نطاق واسع ، ان هي فقط قد انتشرت في جماعة من الشباب يمدون
قلة وهم المثقفون ، أما الباقون وهم الأكثرية والسواد الأعظم من الشعب
فقد كانوا مستسلمين لتلك الأوضاع الفاسدة :

" استسلام العناصر غير الماكلة لشبهة الأيام والليالي " كما يقول جبران
فالمجتمع المرابي في هذا الحين كانت تسيطر عليه الرجعية بأفكارها
المقيمة التي تدعي أن كل مجدد شاعر عاق للدين عاص لله ! وكان يكفي
الفئة الحاكمة من شيوخ الدين بتونس أو غيرها أن يدعوا للشعب في
المنابر أن تقاليدهم مسخت وأن قدسياته انتهت ، وأصنامهم المعبودة حطمت
كان هذا يكفي حتى يشور الشعب الجاهل الضليل على الشائثة المجددين
وأن تحاربهم الجموع الفقيرة أينما حلوا ، منا يؤدي بلا شك الى ضياع
جهودهم وثوراتهم التجديدية هباء .

وكان ثمة عامل آخر غير هذه الرجعية المنحلة ، إنها القوى الفرنسية الاستعمارية
فلقد كان من مصلحة الاستعمار أن يظل الشعب في غفوته نائما مسترسلا في نومه
لا يحرك ساكنا للانتفاضة على المستعمرين ، وهم يمتصون ثروته ويستولون ببلاده ،
وامكانياته ، وكان الاستعمار الفرنسي يعمل على نشر الفقر والجهل والضلال
والمرض وسائر الأوصاف التي تعمل على قتل روح الحياة في المجتمع ، وأين لانسان
فقير مريض جاهل ، لا يجد منا يسد ريقه أن يشور وأن يدافع عن حقوقه وأن
يمصرف الحق من الباطل ؟ .

هكذا اذن نرى المجتمع التونسي في هذا الحين مجتمعة عليه كل وسائل الهدم ، وقد
تضافرت عليه كل قوى المدوان والشر : من رجعية متأخرة جاهلة في ذاتها ، الى قوى
استعمارية متعسفة غاشمة ، الى مفكرين دينيين ليسوا من الفكر في شيء ، وانما هم أموات
يتنفسون ويتحركون ، موتى بمقولهم وتفكيرهم ومعلوماتهم ، وأحياء بأجسامهم . وما أذل حياة فيها
موت للعقل والقلب والروح وحياة للجسد انها لحياة حيوانية ليس فيها من الانسانية شيء .
هكذا اذن كان المجتمع الذي عاشر في ربوعه الشبابي ، مجتمع محطم

متها لك مستعمر تسيطر على أفكاره الرجعية الخائنة المتسلطة مرة، مجتمع ليس فيه من مفاهيم البشرية أو مبادئ العدل الانساني سوى صورة مشوهة وكلمات رنانة، فهل كان على الشاهي الثائر الجرد المؤمن بالحياة وتطورها هل كان يستطيع أن يساير مجتمعا مثل هذا ؟

لقد كان من المستحيل أن يعيش الشاهي بثورته وايمانه وقوته وحيويته مع هذه الأنظمة وهذه الصورة من المبادئ الزائفة، وكان من المستحيل على شاعر وقائد الفكر مشبوب الماطفة، رقيق الاحساس أن يرضى عن هذا المجتمع، وأن يساير هذا النوع الحيواني غير الانساني من الحياة فماذا تراه يفعل ؟

لم يكن الشاهي يملك سوى قلبه وروحه وفتنه، فما هو بقائد عسكري ولا سياسي ولا هو بشي من هذا القبيل بحيث يستطيع أن يشنها ثورة دامية على هؤلاء المتجبرين، ضد هؤلاء المستعمرين الفاسدين وانما كان شاعرا والشاعر لا يملك سوى روحه وفتنه، كان شاعرا مرهف الحس مشبوب الماطفة والشعور، قوى المزمنة راسخ الايمان، فما كان منه إلا أن ثار على القنود، وصدحت أشعاره بدعوة صارخة الى التجديد والبناء والاصلاح.

حارب الشاهي الأوهام والخدع والمؤامرات الاستعمارية، وراح يدعو الى هذا التفكير القدرى المبني على الاستسلام، الذي فرضته القسوى الرجعية باسم الدين وما هو من الدين بشي، وأخذ يدعو الى حياة جديدة ووعي جديد وفهم جديد لمشكلات المجتمع، أعلن هذه الرسالة في كتابه الأول "الخيال الشمري عند العرب" بجرأة وحماسة نادرتهين قال :

".. لقد أصبحنا نطلب حياة قوية مشرقة، ملؤها المزم والشباب ومن يتطلب الحياة، فليعبد غده الذي في قلب الحياة، أما من يعبد أمسه وينسى غده، فهو من أهل الموت وأنظار القبور الساخرة، بل لقد عبر عنها في شعره أيضا فقال :

والناس شخصان ذا يسعى به قدم

من القنوت وذا يسعى به أمل

هذا الى الموت والأجداد ساخرة

وذا الى المجد والآمال تتصل

وقد بين صورة هذا المجتمع المثالي الذي يريده ومثله في

مجتمعه الطبيعي - الطبيعة الخالده، أو الفاب، فهناك يرى الشاهي أن المجد والأخوة والصداقة والمحبة والحب والاخلاقي والخير - كل هذه تجدها

في الطبيعة ، وهذه ولا شك صور انسانية يريد بها الشاهي أن تتمثل في مجتمعه التونسي ، ولكن أتى له ذلك فالشوط طويل والحرب سجال بين القوى التقدمية الانسانية المتجددة وبين التقاليد المتمفنة والرجعية المتآمرة ، وتلك البيئة الخائفة الذليلة التي تأبى أن تترك تفكيرها الرجعي القدرى وأن تساير ركب التقدم والتطور :

كما قام في البلاد خطيب . . . موقظ شعبه يريد صلاحه
أخمدوا صوته الالهى بالمس . . . فأصواتوا صداحه ونواحه
ألبسوا روحه قميص اضطهاد . . . فأتاك شاكك ، يرد جماحه
هكذا المصلحون في كل صوب

رشقات الردي الهم متاحة

غير أننا تنا وبتنا الرزايا . . . وأستبج الحمى وأى استباحه

ولقد دعا الشاهي الى القضاء على أوصاب المجتمع تلك ورزاياه ، وذلك بأن يؤمن كل انسان بنفسه وروحه وبلاده ، وأن يعمل على خلاصها من كل اثم وشر ، وأن دعوته الى الاستقلال الذاتي ونمو الشخصية الفردية من أهم مراحل دعوته الشعب كله الى الايمان بالنفس والروح وبالوطن وبالتقدم والتطور ، وهي طبيعة الحياة ، فاذا تيقظ الاحساس في الشاعر أو الفنان كان له بالرغم منه استقلاله الذاتي الذي يشمره أنه قوة حيّة منتجة وأنه من المستحيل أن يندمج في سواها والآتشق لنفسها طريقا وسبيلا بكر للمجد والحياة .

وكانت له كرامة تترفع عن أن تذوب في غيرها أو أن تتحط الى درك التقليد ، فالشاهي يؤمن اذا بأن ارادة الفرد هي التي تصوغ وجوده وتحدد شخصيته وطريقه في الحياة ، بل هو يدعو الى ذلك ويؤكد دعوته لأنه يرى في ذلك سبيلا الى التطور والتقدم نحو الحرية والالهام والبناء ، والى الاستقلال الذاتي المنبسط عن الروح ، واذا تيقظ الاحساس في الروح روح الشعب تحركت في صدره تلك الأشواق الطامحة والرغبات الجامحة التي كانت مكبلية نائمة في ليل الدهور ، وان ذاك يشمر بنفسه ويعلم أنه عضو في هاته الجامعة البشرية ، عليه واجبالسمي والمعمل في سبيل كمال الانسانية المنشود وفي سبيل مثل الحياة العليا ، وفي سبيل الحق والقوة والجمال .

تلك هي آراء الشاهي عن الشخصية الذاتية للفرد والشعب كما صاغها في مقاله عن " يقظة الحس " . فهو يؤمن بالذاتية وبالحرية الفردية والشخصية الذاتية للفرد والجماعة والشعب وهو يحب أن

أن تتطور هذه الذاتية حتى تصل الي الحياة الانسانية العميقة فتعيشها بأدق معانيها وصورها .

وليس معنى ذلك أن تندمج فيها وأن تترك روحها الذاتية والقومية وانما معنى ذلك أن نشارك في بناء المجتمع المثالي الفاضل للانسانية كلها ولذا يدعو طائر الشعر - طائر شعره هو - أن يبث الشهور في القلوب الدامية الجامدة ، وأن ينشر الايمان بيقظة الاحساس التي هي عماد الحياة الانسانية السليمة :

يا طائر الشعر روح على الحياة الكريمة
وامتح بريشك دمع القلوب فهي غريبة
وعزها عن أساها فقد دعتها المصيبة
وأنت روح جميل بين الهضاب الحديدية
فانفخ بها من لهيب السماء روحا خصيبة
وابعث بسحرك في قلبها ضرام الشبيبية
موقوف الشاهي من السفسور والحجاب :

=====

ودعوة الشاهي التي الحجج الروحي والتي النظر التي المرأة ككائن هي يحس ويتحرك ، وكروح تطيف ، وعقل يفكر ، وليس كجسد ومفاتيح شكلية ليست ضرا من الروحانية فحسب ، ولا نوعا من الايمان بالروح والجوهر فقط ، بل هي أيضا نوع من الملاج الاجتماعي لمشكلة تحجب المرأة وحبسها بين الجدران في البيت .

فالمرأة سواء في الأدب العربي القديم أو في المجتمع العربي أينما كان - كانت عبارة عن جسد وأشكال ، وكان كل الشعر العربي الذي في المرأة - على الرغم من أن كثيرا منه في المرأة - تقريبا منصبا على تلك النغم الجسدية والجمال الشكلي ؛ أما هذا الجمال الروحي الذي يعد المرأة روحا انسانية لها حقوق وعليها واجبات ، أما هذه الفكرة الروحية - فكانت معدومة تماما ، ولقد كان من نتائج هذا النوع من الاسفاف أن صارت المرأة نوعا من الأحجار المصونة والجواهر المكنونة ثقلا عليها البيوت والحجب ، ولم يكن لها أي نوع من الرأي الحي أو الحقوق أو الواجبات ، بل قل كان عليها واجبات : من اطاعة الزوج اطاعة عمياء ، وارضاد أقاربه ، والاستخفاف وراء الحجاب حيث كانت هذه الواجبات هي كل حياتها ومجالات نشاطها ولم يكن

لها أي نوع من انواع النشأة الذاتي .
وفي مبادئ هذا القرن الحالي عندما شارك كل شيء في العالم
الغربي كان لتحرير المرأة دورٌ عظيم وبخاصة في كتابات قاسم
أمين في مصر ، ثم صداه في تونس والمغرب العربي على يد
الطاهر حداد الذي ألف كتابه " امراتنا في الشريعة والمجتمع "
قال فيه :

" . . اذا كنا نحقر المرأة ولا نعبأ بما هي فيه من هوان وسقوط
فانما ذلك صورة لاحتقارنا لانفسنا ورضائنا لما نحن فيه من هوان
وسقوط . . . واذا كنا نحترمها ونحبها ونسمى لنكمل ذاتها فليس ذلك
الا صورة من حبنا واحترامنا لانفسنا وسعينا في سبيل تكميل ذاتنا " .
ولقد لقيت هذه الدعوة الحارة التأييد الكامل من الشاهي ،
فهو في ثورته الاجتماعية كان يؤمن أنه على جميع أفراد المجتمع
أن يشاركوا في بنائه وانشائه ، لذا نراه في مصرى دراسته لفاهيم
الشعر القديم يقول :

" . . فالشاعر القديم لم يكن يفهم المرأة الا أنها جسد يشتهي
ومتعة من متع الميش الدمشقي ، أما تلك النظرة السامية التي يمتزج
فيها الحب بالاجلال والشغف بالتوقير ، أما تلك النظرة الروحانية
الصيقة التي نجدها عند الشعراء الأوروبيين فانها معدومة أو
كالمعدومة في الأدب العربي ، كنه الا اذا أستثنى منه الأندلس الأقل .
لم يعرف العرب ولا الشاعر العربي تلك النظرة الفنية التي تعد
المرأة كقطعة فنية من فنون السماء ، يلتمس لدينها الوحي والالهام
ولم يحاول الشاعر العربي أن يحس بما وراء الجسد من روح جميلة
ساحرة تمثل في جنبها سعادة الحب ومعنى الأمومة ، وهما أقدس
ما في الوجود . "

ولقد حاول الشاهي - ولقد نجح فيما حاول - أن يطوع شعره
لتلك النظرة الروحانية التي المرأة في المجتمع والتي ثورته على أوضاعها
وأن يستجيب لظمأه الروحي التي مثال رفيع للمرأة يملاً قلبه ومشاعره .
ولقد جاء شعره شالا صادقا على فهم المرأة كإنسان حتى
يمش ويتحرك ويفكر بروح إنسانية جميلة ساحرة ، تطيف في عوالم
الجمال والخموض ، لذا نجد أيضا في شعره ما يحمل معنى القداسة
للمرأة والربط بينها وبين أقدس ما في الطبيعة من مظاهر وقيم .

والشاهي أيضا يرمي في شعره الى تقديس الحب كوسيلة وغاية
 شجع الوجود كله ، وهو في ذلك يحاول أن يبعث في الناس حب
 الحياة والأخوة ، وحب الوطن ، وحب الجائل ، ولقد كان الشاهي شاعر
 الحب بحق ، فنؤمننا بما للحب من قيم مثالية في عالم الواقع
 ولذا نراه يصير في هذا عن شعره فيقول :

أيها الحب أنت سر وجودي . . . وحياتي وعزتي واهائي
 وشماعي ما بين ديجور دهرى

وألغبي وقرتي ورجائني

والشاهي في ثورته على المجتمع انما يدعو الشعب الى أن يؤمن
 بالحياة ، وبالحياة المتجددة المتطورة فهو يقدها ، ويدعو لها في
 شعره ، ولقد كان شعره صورة صادقة للحياة بمآتم معانيها ، وصورة
 صادقة للحب حب الحياة بأسمى غاياتها :

فأنا اذن طفل الحياة المنتشي

شوقا الى الأضواء والألحان

وإذا التشاؤم بالحياة ورفضها

ضرب من البهتان والسهذيان

ولكن الحياة عند الشاهي لا تمنى التنفس والتحرك من سائر صفات
 الجسد ، وانما الحياة عنده التجدد والتطور والبناء والاصلاح ، وهي أغيرا
 الايمان بالحياة المتجددة المتطورة ، وهو بهذه لفكرة وبهذه الدراسة
 الجديدة في شعره ، روحيا للشعب التونسي ابان محنته في أثناء
 الاحتلال الفاشي وسياسة الاثماج والرجعية المتآمرة وسياسة الخمود
 والجسود والسكوت والموت وهو يدعو الى هذه الحياة ، حياة الكفاح في
 شعره ونثره ، أنظر اليه في قصيدته " ارادة الحياة " يقول :

وقالت لي الأرض لما شاءت . . . تيا أم هل تكرمين البشر؟

أبارك في الناس أهل الطوح

ومن يستلذ ركوب الخسـطر

وألمن من لا يماشي الزمان . . . ويقنع بالعيش عيش الحجر

هو الكون حي يحب الحياة . . . ويحتقر الميت المنسدر

فويل لمن لم تشقه الحيا . . . من لعنة المدم المنتصر

والشاهي يدعو في شعره الى تقديس حرية الانسان ، والدعوة

الى كسر القيود بتقدير أن الحرية هي أعظم ما في الوجود :

وطيوح، وأنه إذا كان لزاما علينا أن نعجب بهذا الأدب، وأن نفخر به كحلقة من سلسلة ذاتيتنا العربية، وكجسم ذهبي نرجع إليه كلما أردنا أن نصوغ أفكارنا حلبيها الساحرة الجميلة، فإن ذلك الاعجاب لا ينهني أن ينقلب في نفوسنا الى تقديس فعبادة، فجمود، فاطباق لأبصارنا عن كل ما في السماء من أشعة ونجوم .

ليس من شك أن أهدا لا يستطيع أن يكون هذا الرأي، فهو الحق كل الحق، عبر عنه الشابي في ايجاز وبلاغة، ولكن لا يستطيع أن يؤمن به كشعر مناسب لعصرنا الآن، فعصرنا بلا شك يخالف كل العصور السابقة، وإذا كان كل شيء لا يستطيع إلا أن يتأثر باختلاف العصور السابقة، وما طرأ على الناس من اختلاف وتباين في مشاربهم ومذاهبهم سواء أكان هذا الاختلاف جوهريا أم عرضيا، فإن الأدب أجدر كل هذه الأشياء بالتأثر بهذه المظاهر، لأن الأدب ليس إلا تعبيرا عن روح العصر وأمانيه وما يجول في أذهان الناس فيه، فيجب أن يتطور وأن يسهم في بناء هذه المجتمعات الانسانية الجديدة، مجتمع الخير والحب والجمال والكمال .

الشعر والشاعر في رأى الشابي

=====

كان الشابي أول من اتخذ من الشعر قضية انسانية مكتملة المعالم، تمس الروح البشرية في الصميم، وكانت رسالته هي أن يدفع بالشعر والشاعر أعلى درجات التقديس والاحترام، بوصف أن الشعر روح الانسانية، وأن الشاعر رسول نور وقائد دائم، يرتفع بها الى المثل الأعلى، لترتفع أن وتسمو بحياتها وواقعها، وكانت وسيلته الى ذلك أن يصل الفنان بواقعه، وأن يصل الشعر بالحياة، بحيث يكون ممبرا عن أحوال المجتمع وظروفه، وأن يكون مصورا للمعاني الساعية الخالدة في الانسان والمجتمع. والشعر عند الشابي هو الحياة بنفسها، في حسناتها وجمالها، في صحتها وضحتها، في هدوئها وثورتها، وفي نومها ويقظتها، وفي كل صورة من صورها ولون من ألوانها .

والشعر هو ما تسمعه وتبصره في ضجة الريح وعدير البحر، وبسة البوردة الحائرة، يدمدم فوقها النحل ويرفرف حولها الفراش، وفي النجمة البهيرة المفردة، يرسلها الطائر في الفضاء الفسيح وفي وسوسة الجدول الحالم المترنم بين الحقول، وفي دمدمة النهر الهادر المتدفق نحو البحار، وفي مطلع الشمس وغفوق النجوم، وفي كل ما تراه وتسمعه

وتحبه وتكرهه وتخشاه .

نعم هذا هو الشعر المعبّر ، وهذا هو الشعر الوجداني الروحي الذي تفرضه نفس الفنان على الفن ، وهو الشعور الذي يرى في الحياة حقيقة من حقائق الوجود المقدسة ، ويرى في الموت صورة من عدم التطور والتقدم ، فالشعر عنده "تصوير وتعبير" .

تصوير لهذه الحياة التي تمر حواليك مغنية ضاهكة لاهية أو مقظبة واجمة باكية أو وادعة حالمة راضية ، أو محترمة شائرة ساخطة ، تصوير لأثار هذه الحياة التي تحس بها في أعماق قلبك وتقلبات أفكارك ، وخلجات نفسك وزفرة أحلامك وعواطفك .

وهو تعبیر عن تلك الصور أو عاتيه الآثار بأسلوب فني جميل ، ساؤه القوة والحياة ، يقرؤه الناس فيعلمون أنه قطعة انسانية من لحم ودم وقلب وشعور ، لأنهم يحسون أنه قطعة من روح الشاعر ، وعيق من عواطفه ، أو قلدة من فؤاد الحياة .

والشعر هو هذا الأسلوب الذي يكاد يكون كالماصفة حينما يمثل سخط الحياة أو ثورة العاطفة ، ويكون وادعا كضوء القمر حينما يمثل أحلام الحياة وطمأنينتها وسكون النفس ، ويكون رقيقا شجيلا كأنات ناي بعيد ، حينما يمثل نجوى القلوب المتحاببة وشجوها ، ويكون كثيبا مظالما كقلب الظلام حينما يمثل بؤس الحياة وأحزان البشر .

ورسالة الشعر عند الشابي هي التي توسع أفق الحياة من نفسك وتجعلها تحس بتيارات الوجود أكثر مما ألفت أن تسدرك ، وتنسيك ، وجودك الانساني لحظة ، وتستغرق في عالم الجمال المطلق الذي يخلقه الشاعر ، حواليك ويدهبغ عليه من نفسه ، إنها تعميق لفاهيم الانسان نحو الحياة ، وتأکید لمبادئ الخير في الانسان ، وتوسيع لفكر الانسان ونظيرته نحو أحداث حياته ، فيا لها من رسالة شاقة .

وإذا كان ذلك هي صور الشعر - في رأي الشابي - وهذه هي رسالته فلا شك أن قيمة الشاعر ورسالته قيمة عظيمة وصورة أوسع ورسالته أعمق .

فالشاعر في رأي الشابي عين تتلأ من الدنيا ، وسمع يعيها وقلب يتدبرها ، ولسان يعبر عنها .

والشاعر هو الرسول والقائد الذي يقود الأمة ليرتفع بها إلى مثله العليا لترتفع في حياتها وتطور إلى ما هو أجل وأعظم ، ولهذا

فلقد كان من رأي الشابي بل والفن عامة ، والشاعر الفنان كل ذلك أعلى من أن يقدره الشعب وأن يتحكم فيه الرأي العام .

ورسالة الشاعر في رأي الشابي هي "رسالة القائد الذي يقود الأمة الى المثل الأعلى، وهو الرجل العظيم الذي ينير للإنسانية جميعا الطريق الى المجتمع السامي ، والى معاني الحب ونهاج الجمال ، وسائر المفاهيم الانسانية الخالدة المميقة ، وتلك الرسالة التي وصفها الشابي للشاعر كانت هي التي وصفها لنفسه ، ولذلك حينما نذكر رسالة الشاعر انما نذكر رسالة الشابي نفسه .

اتجاهات الثورة في شعر الشابي

=====

أولا : الثورة الأدبية ، وتشمل الثورة على ما يلي :

(١) : الثورة على القديم والجمود المطبق في شعر الشابي :

في مبدأ حياة الشابي ، أي حوالي سنة ١٩٢٥ م ، وشاعرنا يناهز السادسة عشرة . ونظم الشابي قصيدة كانت من أوائل قصائده عبر فيها عن فكرته عن الشاعر والفن قال :

لا أنظم الشعر أرجو . . . به رضا الأمير

بمدح أو رثاء . . . تهدي لرب السهير

حسبي اذا قلت شمرا . . . أن يرتضيه ضميري

ولقد كانت ثورة الشابي على المعاني القديمة وإيمانه بأن الشعر خاصة والفن عامة أقدم من أن يتعرض لمثل هذه السطحيات - مدعاة للاهتمام بهذا الشاعر العبقري الذي أدرك أدق أسرار الشعر والفن وهو دون المششرين ، ولقد ظل الشابي على ولائه لهذه المبادئ الخالدة ، فمن لانرى في ديوانه "أغاني الحياة" أي نوع من أنواع الهجاء أو المدح أو التهنية ، أو غير ذلك مما كان يعجّ به شعر أضراب الشابي في الشرق والغرب ، حتى أولئك الرومانسيين الذين عبّروا عن روح العصر وفكره وتطوره أشال ٣٤ - رايم ناجي ، وعلي طه ، والزهاوي ، والرصافي وغيرهم .

ولقد كافح الشابي ضد جمود الفكر وعزله وخمود المفكرين ، ودعوه لاتصال الفن بالحياة ، وتمييزه عن مجتمعا المثالي - كان هذا شار اهتمام آخر لشاعر الخضراء .

(٢) : الثورة على مضمون الشعر - المعاني والأفكار :

دعا الشابي الى ارتباط الأدب بالحياة والتعبير عنها ، وعن

أهدافها ، وعن أهم المفاهيم الشالية السامية التي تبني المستقبل ، مستقبل

مستقبل الانسان ، ومؤسس المجتمع الانساني المثالي .

ولقد كان الشابي يؤمن بأن رسالة الشعر والشاعر هي تحرير النفس من كل أسر ، والثورة على العبودية ، والتمرد على كل قيد والثورة على الأوضاع البالية والأوضاع والتقاليد السخيفة ، والنفاق المنثق ، ولقد ثار على الفن كارتزاق وتزييف ، وأنكر الشعر كشعور سطحي بمفاهيم الحياة ، ولكن آمن به كرسالة وقيادة وألهم وشعور بكل ما في الحياة . والشابي كان يريد الأدب المتصل بالحياة أن يقوم على التجربة الصادقة والآن يقوم على التزييف والتحويل ، حتى لا تفسد الصور أو تحجب الحقائق ، فالحقائق هي وسيلة العصر الحديث لفهم ذاته ومكونات نفسه وادراك مشكلاته .

وهذه النظرة الواقعية للأدب ليست رد فعل للأدب الخيالي الرومانسي في أدب الشاعر ، لأن الشابي نفسه انسان خيالي ، وفنان رومانسي شبوب المأظفة ، ولكن هذه النظرة الواقعية للأدب هي رد فعل للأدب الكذب ان صح التعبير ، فقد طغى استخراج الأدب من القواميس والكتب الصفراء القديمة الكالحة على العصر الحديث ، طول أربعة قرون أو تزيد ، وكان نتيجة لذلك أن انفصل الأديب والفنان عن شخصيته وذاتيته وأصبح مجرد آلة للطبع والتقليد ، وكان هدف الأديب هو أن ينبع من بطون الكتب يملاً كتباً جديدة ، وأما التجارب الخاصة والشخصية والفنية والذاتية في نفس الشاعر ، فلا تلح لها شيئاً في إنتاجه وفنه .

أغف الى ذلك أن تلك الأفكار التي يضطرب بها المجتمع والعالم الخارجي المحيط بالفنان أو الأديب ، وما يعج في صدور الناس في هذا العصر من أفكار وما يعوقهم من مشكلات ، كل ذلك لا تجد له مجالاً في فن الشاعر وأدبه . وأدب الحياة عند الشابي ليس مجرد تسجيل سريع للمناظر التي تشهدها العين ، إنما هو فهم عميق لمكونات هذه المظاهر وبواعثها وتكوين متين للملكات الأدبية ، فأدب الحياة لن يكتمون عميقاً الا اذا كان الأديب نفسه عميقاً في فكره وتأملاته ، شأنه شأن شكوف ، وجوركي ، وتولستوى في روسيا ، وبرنارد شو في إنجلترا ، وفولتير ، وجان جاك روسو في فرنسا ، فالشعر أداة تعبير في يد التجربة الحية الصادقة .

ولقد عبر الشابي نفسه عن ذلك فقال في كتابه " الخيال الشعري عند العرب " :
 " لقد أصبحنا نتطلب حياة قوية مشرقة ملوها العزم والشباب ، ومن يتطلب الحياة فليمد غده الذي في قلب الحياة ، أما من يعبد أمسه وينسى غده فهو من أبناء الموت وأنظار القبور الساخرة " .

(٣) : الثورة على الأسلوب :
=====

وتشمل ثورته على الأسلوب مايلي :

١ - الثورة على الأوزان والقوافي :

الأوزان والقوافي العربية أضيق من أن تتفصح للشاعر الفنان الذي تفتحت روحه ونفسه ورأى ضروها من الشعر العربي ، ورأى كذلك كيف استطاع الغربيون أن يودعوا أشعارهم وأوزانهم أقاصيص ومسرحيات مطولة ، وكيف ترحب هذه الأوزان والقوافي للأغراض والمقاصد المختلفة ، وكيف تلين لهم القوالب الشعرية ، فيودعوها ما لا قدرة لشاعر عربي على وضعه في غير النثر ، وكيف استطاع العامة أن ينظموا القصص المسهبة والملاحم الصعبة في قوافيهم المرسله .

ولقد كان الشعر العربي وما زال محتاج الى تعديل في الأوزان والقوافي ، حتى ترحب وتفسح لتنتي الأغراض الفنية والمقاصد الشعرية ، فنرى من شعرائنا شعراء الرواية وشعراء الوصف ، وشعراء المسرح ، وغير ذلك من هذه الأنواع المختلفة ، التي عجز شعرا العربي عن أن يحتويها .

ولقد كان الشابي من أوائل من جددوا في الأوزان : فنحن نرى عنده كثيرا من الأوزان الجديدة التي اتبع فيها نمطا جديدا في الأدب العربي غير ذلك الذي وصفه الخليل بن أحمد الفراهيدي ، كذلك أحبنا الشابي نظم التواشيح الأندلسية في شعره ونحن نرى عنده بعض أمثلة من القوافي المرسله والمزدوجة والمتقابلة ، وغير ذلك من أنواع التجديدات في الشعر وأوزانه ، حتى يرحب ويتسع لكل تلك التجارب الشعرية والفنية المختلفة .

ب - الثورة على الألفاظ والتراكيب :

دعا الشابي الى الألفاظ الشعبية الحية - وهي في نظره - ليست تلك التي تستخرج من الكتب القديمة الصفراء التي عفا عليها الدهر ، وإنما تلك التي تعبر بلغة الطبيعة الحية عن منابع الجمال والكمال .

وتراكيب الشابي وألفاظه نستطيع أن نقول أنها رومانسية أصيلة ، ونعطيك مثالا لذلك : فوق الندى ، ووصل الحبيب ، ووله الحبيبة ، كلها تعد من التراكيب الكلاسيكية المتينة ، على أننا لو استعرضنا تراكيب الشابي لوجدنا فيها أمثال : " عزم الحياة " و " صميم الحياة " و " ملكات النفس " و " يقظة الحس " ، وكل هذه ألفاظ وتراكيب رومانسية .

ج - التزام الموضوعية ووحدة الموضوع والثورة على المبالفة :

والشابي يتوخى في قصائده الشعرية الموضوعية ، وأن يكون شعرا انسانيا يثير أرقى الملكات الشعرية والنفسية الانسانية ، ويثير المشاعر الانسانية السامية .

والشعر تصادق بين الفكر والمأطفة والموسيقى ، ولكن المأطفة النبيلة الصيقة هي المطلوب ليس الا ، أما تلك المأطف الشريرة المقوثة فهي ليست من أهداف الأدب فسي

شيء .
وتوخى الشابي الموضوعية في شعره ، وأخذته بوحدة الموضوع من أهم هذه الصفات التي تميز شعره ، فالشاعر العربي القديم حينما كان يمدح شخصا أو يهجوهُ كان يضيء عليه من الصفات ما يريد هو أن تكون فيه ، وقليلون أولئك الذين أخذوا بالموضوعية والتجرد في الشعر أمثال : زهير بن أبي سلمى في العصر الجاهلي ، واسماعيل صبري في العصر الحديث ولقد دعا الشابي الى التجرد في الأدب والموضوعية في الدراسة والفن ، ولكنه لم يعن أن يكون الشاعر كالآلة بل كآلة التصوير يطبع الصورة كما هي ، وإنما يعني ألا يضيف إليها شيئا من الخارج ، وأن يتوخى الصدق في التعبير والتصوير ، ولا يضير بمد ذلك إذا هو قد خلغ عليها من نفسه ألوانا وصورا وألحانا من روحه ونفسه ، فتفيض الصورة بالحيوية والاشراق ولكن دون أن يبعد عن الصدق في التعبير والتصوير .

ثانيا : الثورة السياسية والاجتماعية :
=====

كان الشابي أول من عاش مأساة شعبه الكبرى في مأساته الخاصة ، وما كان لفنان مرهف الحس مشبوب العاطفة أن ينمزل عن تيار الثورة الذي تعج به الصدور خلال عصره ، ولقد كان الشابي عاملا فعلا في الكفاح ، نوب نفسه وروحه في سبيل فنه ، ونوب فنه وشعره في سبيل وطنه وشعبه .

ولم يكن كفاح الشابي مقصورا على فنه وأدبه ، وإنما كان أيضا كفاحا فعليا ، فقد شارك الشابي في معظم الحركات التحررية الصادقة خلال هذه المدة سواء أكانت حركة تجديدية تعليمية كما حدث في رحاب جامع الزيتونة ، أم كانت حركات سياسية في جميع أركان البلاد .

على أن الشابي لم يكن في أكثر حياته افنانا شاعرا ، وكان سلاحه الدائم البتار خلال معركته تلك ضد البفس والمدوان هو الشعر ، ولقد كانت وطنية الشابي وكفاحه القومي وطنية قومية انسانية وكفاحا قوميا انسانيا ، فالانسانية بكل مبادئها ومعانيها ومفاهيمها كانت تسيطر على تفكير الشابي وشعره أيما سيطرة ، فكان شعره لمسة انسانية لجوانب الحياة ، وكانت قصائده الى الشعب ترانيم سماوية خالدة ، وصهت قوة خارقة في الأمة ، وكانت نورا يهدي الشعب الى طرق الانبعاث القومي والانساني الحي .

لقد كان الشابي شاعر الحرية وهب لها نفسه ومضى يدعو لها ، ويصدح بها ، وكان ايمانه بالذاتية الفردية ايمانا عميقا ، وكان يؤمن أن الالهة الفرد وعزيمته هي التي تصوغ وجوده ، وتكون كيانه ، وتبنى شخصيته ، وكان شعره دعوة حارة الى الحرية والنور فهو يقول :

الى النور فالنور عذب ضياه . . الى النور فالنور ظل الاله

((وسائل الثورة في شعر الشابي))

لقد اتخذ الشابي في ثورته السياسية والاجتماعية وسائل متعددة من الضروري أن نشير إليها وهي :

أولاً : الترهيب والتقريع والحفز واللوم والمزوم والطموح :
يقولون : ان شعر الشابي يضطرب ما بين التفاؤل والتشاؤم وهو هكذا حقا ، وانما عندي أن اضطرابه هذا ما بين هذين المتناقضين ، انما هو اضطراب الأمة التونسية ما بين اليقظة والغفلة ، والعمل والتواكل ، والاصابة والخطأ ، فلقد كان شعره اذاً صدى للأمة في حركاتها وتطورها ، وكان هو المدرس الحكيم ، والزعيم المجهول الذي يضع للأمة خطتها في طريقها نحو الحياة الحرة .

والشعر الوطني عامة انما يدور حول التفاؤل والتشاؤم والتأمل وعدمه ، والترغيب والترهيب والمدح والتشجيع ، والندم والتقريع ، ولقد أجاد الشابي كلتا الناحيتين ، ولكن شمرة في الترغيب والتقريع كان أكثر شعره الوطني ، وذلك يرجع الى سببين هما :

١ - الضرب الأول هو الأنسب الى نفسه الحزينة المريضة المرهقة ، وهو ما نستطيع أن نسميه بمأساته الخاصة .

٢ - ان الأمة التونسية في هذا الحين كانت تنط في نوم عميق وأنا لا أتكلم عن الظاهر ، فقد كان هناك فعلا بمعنى الحركات الوطنية الظاهرية ، ولكن هذا لا يعني أن الشعب كله كان مستيقظا نائرا ، وانما كانت هذه الحركات من عمل الفئة المثقفة الثائرة ، وهي قليلة العدد ، ومن طليعتها شعاعنا الشابي ، لذا كان من اللازم أن يكون شعر الشابي فائضا بالترهيب والتقريع واللوم والثورة وهكذا وجدنا أن شعر الشابي كان نفمة حزينة على حال الشعب وكان صرخة تائرة على حال الشعب أيضا .

على أن ثورة الشابي ونقمته في " النبي المجهول " كانت ثورة على الجمود والخمود ، فان من حق صاحب الرسالة أن ينقم ويهبط على الذين أراد أن يبلغهم الحياة وطبيعتها في رسالته ، فلم يستجيبوا لها ، وقديما قال نوح عليه السلام " رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا " .

ثانيا : الايمان بالوطن والتحسر على حاله والاستعداد للفداء في سبيله :

آمن الشابي بوطنه وأهله ، آمن بماضيه العظيم ومستقبله الباهر وعبر عن ذلك كله في قصيدته " تونس الجميلة " :

ضَيِّعَ الدهر مجد شعبي ولكن

سترد الحياة يوما وشاحه .

وهو في ايمانه بالحياة وبالشعب مستعد للتضحية في سبيل تخليصه من جميع الشرور

والآثام التي تعلق به من استعمار ورجمية :

أنا يا تونس الجميلة ، في لجج

م الهوى قد سبحت أي سباحه

لا أبالي وان أريق دمائي

فدماء العشاق دوما مباحه

لقد آمن الشابي أيضاً في أعناق هذا الشعب التونسي ثروة روحية وفنا ثوريا ، ولكنها ثروة مهملة وفن غير مصقول ، وان في طبيعة هذه البلاد سحرا يلهم الصخر أسى معانيه وأرفعها لو كان للصخر مشاعر حيّة ، ولئن لم يكن الباء كل الداء في الألسنة المعبرة ، لا في روح الشعب ولا طبيعة البلاد .

على أن الاستاذ عمر فروخ يرى أن الشابي كان أولا أي في بادئ حياته مؤمنا ببلاداه ، ولكنه بعد ذلك كان ناقما ، نافضا ككتا يديه^{من} إمكان الاصلاح ، ويرى أن قصيدته :^٣ النبي المجهول "مثلا لا تحمل سوى نعمة وثورة على الشعب والأمة .

ولكن حمدي عبد الوهاب يرى أن قصيدته^٣ النبي المجهول "خير شعر وطني ظهر في العهد الأخير ، ففني عن الذكر أن محبة الشعب ليست في الألفاظ الممسولة وذكر الأجداد السابقة والتفني بها ، إنما محبة الشعب والعمل في سبيله إنما هما في أمثال تلك الصيحات الثورية الخالدة التي كان يتفجر بها شعر الشابي ، ان محبة الشابي للشعب تتمثل وتتبين في تلك الصيحات الثورية الموقظة الصاخبة التي تبعث في الشعب روح الثورة والتي تبين لهم باخلاص نوع هذه الحياة التي يحيونها وما فيها من مساوي ولها من أوصاب وأمراض وعلل ، وأنظر اليه يقول :

أيها الشعب ليتني كنت حطا

با فأهوى على الجذوع بفأسي

ليتني كنت كالسيول : اذا سا

لت تهدد القبور رسا برمسي

ليتني كنت كالرياح فأطوى

كل ما يخفق الزهور بنهسي

ليتني كنت كالشتاء فأغشى

كلما أذبل الخريف بفرسي

ليت لي قوة المواصيا شعبي

م فألقي اليك جمرة نفسي

ألا ترى معي هنا اغلاص الشاعر لوطنه وايمانه به ، انه يريد أن يكون كل شي مهذبا مدبورا جبّارا من سيول ورياح ، الى شتاء قاس وعواصف ثائرة ، كي يدمر أعداء الشعب ، وكي يبعث في شعبه من روحه نار الثورة المأجّبة في قلبه ، فيثيره على أعدائه المستعمرين . ثم أنظر اليه وقد تصوّر أنه ذاهب الى الغاب ، فقد بعد عن تلك المساويء والمظالم ، التي يضع فيها شعبه دون أن يحرك ساكنا للانقضاض على أعدائه :

ثم أنساك ما استطمت فما أن

ت بأهل لخمرتي ولكأسي

ألا ترى معي وطنية الشاعر واغلاصه وحبّه لشعبه في "ما استطمت" حتى ليخيل اليها أنه لا يستطيع أن ينسى شعبه ، ويرغم ذلك فان الشابي كان الى آخر لحظة من حياته مؤمنا بالمستقبل ، واذا كانت شدة روح حزينة تسود شعره عامة ، والوطني منه خاصة ، فان ذلك ليس سوى انعكاس لحاضر بلاده ومأساتها أولا ، ثم لمأساته الخاصة من مرضه وفقرته وعذابه الشخصي آخرا .

ثالثا : اشارة الشعب ضد الظلم والظفيان والذل والجمود :

هكذا رأينا كيف كان الشابي مؤمنا بمستقبل وطنه ، وكيف كانت ثورته في قصيدته "النبي" وغيرها ، ثورة على الظلم وصيحة من صيحات الثورة والبناء ، ولم تكن صورة لنقمته على شعبه ونفضه كليا يديه من الاصلاح .

والشابي في ايمانه بالشعب وفي دفعه اياه للكفاح والثورة كان يهاجم الظلم والظالمين لكي يفسح الطريق للشعب وأحراره وقواده كي يسير على الدرب حتى يصل الى الكرامة ، الى الحرية والاستقلال .

على أننا أيضا نلمس في شعر الشابي كرها شديدا للظلم والذل والقمود ، وصفها الموائق الأولى التي تموق تقدم الانسانية المنشود وهو لهذا يدعو الى الحرية والاستقلال قائلًا :

الى النور عذب جميل . . الى النور فالنور ظل الاله .

ولقد كانت قصيدته "النبي المجهول" دعوة حارة الى الشعب لكي يتحرر ويشور ويبنى وهو في بثه الثورة في ربوع البلاد ونفوس الشعب يسائل شعبه أين طبيعته الثورية الاصلاحية البناءة +

أين يا شعب قلبك الخافق الحسنا

س أين الخيال والأحلام !

ولقد دعا الشابي الى الحياة ، الى النور ، الى الحرية الى الثورة
والى البناء ، وكان في دعوته الى الحرية ، يحمل في قلبه سخريه
مزة لهؤلاء الناس الراضين بالذل ، الذين يأبوا الثورة ويمسكونها فهو
يقول :

غُلِقَتْ طَلِيقًا كَطَيْفِ النَّسِيمِ . . وَحُرًّا كَمُورِ الضُّحَى فِي سَمَاءِ
تُغْرَدُ كَالطَّيْرِ أَنْتَى انْدَفَعْتَ
وَتَشَدُّو بِمَا شَاءَ وَهِيَ الْإِلَهُ
كَذَا صَاغَكَ اللَّهُ يَا بَنَ الْوُجُودِ . . وَأَلْقَتْكَ فِي الْكُونِ هَذِهِ الْحَيَاةُ
فَمَا لَكَ تَرْضَى بِذُلِّ الْقَيْوَدِ . . وَتَحْنِي لِمَنْ كَبَلُوكَ الْجِبَاةُ
أَلَا انْهَضْ وَسِرْ فِي سَبِيلِ الْحَيَاةِ
فَمَنْ نَامَ لَمْ تَنْظُرْهُ الْحَيَاةُ

رابعاً : تهديد الظالمين والطمع بثورة الشعب وسيله الجارف :

توهي قصائد الشابي الوطنية بايمان عميق بقيمة الحرية وانتصارها
وايمان عميق بانتصار الخير وزوال الشر ، ولقد كان شعر الشابي نذيراً
للظالمين ودويماً دوتاً في مسامعهم ، فجعلهم يرهبون ثورة الشعب فهو
يقول :

أَلَا أَيُّهَا الظَّالِمُ الْمَسْتَبِدُّ . . عَهَيْبُ الْفَنَاءِ عَدُوَّ الْحَيَاةِ
رَوَيْدِكَ لَا يَخْدَعُنكَ الرَّبِيعُ . . وَصَحْوُ الْفَنَاءِ وَضَوْءُ الصَّبَاحِ
فَفِي الْأَفْقِ الرَّحْبِ هَوْلُ الظَّلَامِ
وَقَصْفُ الرَّعُودِ وَعَدْفُ الرِّيَاحِ

XX

تَأْمَلْ هُنَاكَ أَنْتَى صَحْوَتِ . . رُؤُوسِ الْوَرَى وَزَهْوَرِ الْأَمَلِ
وَأَرْوَيْتَ بِالدَّمِ قَلْبَ التَّرَابِ . . وَأَشْرَبْتَهُ الدَّمْعَ حَتَّى تَمِلَ
سِجْرُفَكَ السَّيْلُ ، سَيْلُ الدَّمَا
وَيَأْكُلُكَ الْمَاصِفُ الْمُشْتَعِلُ

ولا شك لدينا أن الشابي في وصفه ثورة الشعب بالسيل والعواصف
المشتعلة إنما يضع صورة حية لهذه الثورة التي يجب أن تكون ثورية
كبرى جنريّة تحو كل عناصر الظلم والاستعمار والرجعية ، وهو هنا
أيضا يحذر ويهدد وينذر الظالمين بقوة الشعب وثورته :

سِيَّأَرُ لِلْمَرْءِ الْمُحَطَّمِ تَاجُهُ . . رَجَالُ إِذَا جَاشَ الْوَرَى فَيَهْوَعُمُ
رَجَالُ يَرُونَ الذَّلَّ عَارًا وَسُبَّةً . . وَلَا يَرَعِبُونَ الْمَوْتَ وَالْمَوْتُ مُقَدِّمُ

وهنا أيضا يظهر بوضوح ايمان الشابي بمستقبل الشعب التونسي

في تأكيده بأنهم سوف يثأرون ، ولا شك أن هذين البيتين يحملان دعوة صارخة للثورة وعدم الاستكانة للذل والعار، ثم ها هو ذا يُنذر ويحذر وينقم :

حذار فتحت الرماحِ اللهبِ . . . ومن يبذر الشوكَ يجن الجراح
ثم أنظر الى قصيدته "لعلمة الحق" لترى الى أي حد آمن
الشابي بانتصار الحق وانتصار الشعب ، ثم أنظر الى دعوته للشعب
للالتفاف حوله .

ولعلمةُ الحقِ الفضوبُ لها صدىً

ودمدمةُ الحربِ الضروسُ لها فمٌ

على أن الشابي أيضا قد استطاع بوعيه ويفكره الشاقب كشف تلك .

الخدع التي حاول المستمر أن يطمسها وأن يخفيها تحت هذه الكلمات
فها هو ذا يقول في قصيدته فلسفة الاستعمار المقدس أقصد "الشمبان
المقدس" .

لا عدلَ إلا أن تعادلتِ القوى . . . وتصادمَ الأرهابُ بالارهابِ

لا رأيَ للحقِ الضعيفِ ولا صدىً . . . الرأيُ رأيُ القاهرِ الغلابِ

آمن الشابي اذا بالحرية ، ودعا الى ارادة الفرد ، ودعا الى أن

تكون ارادة الفرد هي العامل الأكبر في صوغ شخصيته ووجوده ، ولقد

كان الشابي بايمانه بالحرية وكفاحه في سبيلها يكافح القدرية

والأوهام والخدع ويملنها أن الثقة بالحياة هي كل شيء .

وكان الشابي مؤمنا بانتصار الحق غير أنه في تصويره لطبيعة

الحياة الاجتماعية في قصيدته " في فجاج الألم " كان ذا روح حزينة ،

فهو في تصويره للإنسان المتعب الحائر والفتاة الحزينة على أبيها

والأم الثكلى وما الى ذلك من هذه الأشكال للمجتمع التونسي المضطرب

انما كان يعبر عن روح حزينة قائمة .

ولقد كان الشابي يكافح كفاحا قاسيا ، كان يقابل فيه أعداء

رجعيين جامدين حتى لقد رماء رجال الرجعية الدينية بالاحقاد

والعصيان من فوق المنابر ، فهل كان الشابي ملحدًا ؟

ان شعر الشابي كله في نظرنا انما كان نغمة من نغمات

الايان ولم يكن فيه الحاد مطلقا هتي في تلك القصائد التي يزعم

بعض النقاد فيها أن الشابي كان ملحدًا مثل : " صلوات في هيكل

الحب" ، وفي " ظل وادي الصوت" :

ففي هيك الحُب ينادى الشابى :

أنتِ أنشودةُ الأناشيدِ غنًّا . . . لكِ إلهُ الغناءِ ربُّ القصيدِ
أنتِ قُدْسِي ومَعْبَدِي وَصَاحِي
ورِيمِي ونشوتي ، وخلودِي

يا ابنةَ النورِ انبِى أنا وحدى

من رأى فيك روعةَ المعبودِ

وقال بضم النقاد عنه أنه وشي يؤمن بالله للغناء ، والله للنور ،
والحب وغير ذلك من صور الاشراك الوثني ، والحقيقة أن الشابى لم يكن
في شعره وثنيا ، وإنما كان مؤمنا ^{بأن} الله تجسيد لكل شيء طاهر ،
وهو لهذا يصف الاله بكل هذه الأوصاف .

أضف الى ذلك أنه كان يؤمن أن على الشاعر أن يتكلم بما يعطيه
وهي الشعر والأ يتقيد بقيود الألفاظ ، ولا معنى ان أن نصم الشاعر بأنه
وثني ملحد لأنه أتى بالألفاظ وثنية ، أليس هو القائل :
صانِكُنَّ الاله من ظلمة الرو

ح ومن ضلّة الضمير العنيد

فظلام النفوس شرّ طلام . . . سرمدي الأسي شنيع الخلود

غير باقى في الكون الاجم . . . ل الروح غضا على الزمان الأبيد

والحقيقة أن الشابى لم يكن وثنيا ، ولكنها الترجمية ، والعجب أن هذا
هو الذى لا يزال يحدث حتى الآن : فقضية " لا تكذبي " مثلا لكامل
الشناوى قد منعت من الغناء والنشر في تونس - ذلك لأن كامل الشناوى
يقول فيها :

كُنتِ لي قيدا حَرَصْتُ العُمَرَ أَلَا أكَسِرُهُ . . . فَكَسَرْتِهِ

كُنتِ لي ذنبا حَزَرْتُ العُمَرَ أَلَا أُغْفِرُهُ . . . فَغَفَرْتِهِ

وهكذا كان كامل الشناوى ملحدا في نظر الترجمية الدينية في
تونس ، فهل كان كامل الشناوى ملحدا . . .

يقول حمدى عميد الوهاب : معاذ الله كلا ، وإنما معنى ذلك أن الشاعر
يحب أن يتكلم ، وأن يعبر بالألفاظ كيفما شاء ، فليس معنى ذلك أنه ملحد
وأنه ضد الدين ، وإنما الدين الجوعر وليس الألفاظ والمظاهر .

وأخيرا وليس آخرا ، لقد عمل أبو القاسم الشابى الشاعر المجيد
لواء الإصلاح الأدبى ، وتحرير الأدب العربى من قيوده ، وشارك في جميع
الإصلاحات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وكان له شرف بناء الوعي

الجديد في العالم العربي عامة ، وفي تونس خاصة .
ولقد بدأت رسالة الشابي كما آمن بها تظهر في عالم الحقيقة
والواقع بعد أن كانت منذ ربع قرن تقابل بالسخرية والهزء ، لقد
أصبح الشابي اليوم في تونس خاصة والعالم العربي عامة صورة
من صور الثورة السياسية والاجتماعية والعقلية ، وأصبح مظهراً قوياً من
مظاهر الثورة الفنية ، وما هي ذا ثورة الشابي قد انتصرت في كل
مكان ، وهذا هو شعر الشابي قد أصبح رمزا من رموز الثورة والانطلاق
فلقد انتصر الشابي وهو ميت ، لأن شعره خالد لا يموت (١) :

إذا الشعب يوماً أراد الحياةً

فلا بُدَّ أن يستجيبَ القدرُ

ولا بُدَّ لليلِ أن ينجسَ لي

ولا بُدَّ للقيـدِ أن ينكسرَ

=====

=====

=====

== =====

=====

=====

(١) : الشابي شاعر الفضراء - حمدي عبد الوهاب

=====

بمد الاطلاع على ديوان الشاهي ، وجدت له مجموعة من القصائد الشعرية الرائعة في ميدان الثورة ودرستها دراسة مستأنية ووجدت من الملائم أن أثبتها في هذه الدراسة ، وأشرت أن أدونها حسب تأريخ نظمها ان وجدت الشاهي ذيّل كل قصيدة شعرية بتاريخ ووجدت بعضها دون تاريخ ، لذا سأبدأ بالقصائد المؤرخة حسب سبقها وسأضع القصائد غير المؤرخة تالية لها . وأول هذه القصائد وأقدمها تاريخاً قصيدته التالية :

١- خَلِيهِ لِلْمَوْتِ ((١ / محرم / ١٢٤٣ هـ)) - ٢ / آب / ١٢٤٤ م .

كُلُّ قَلْبٍ حَمَلَ الْخُسْفِ ، وَمَا . . . مَلَّ مِنْ ذَلِّ الْحَيَاةِ الْأَرْضِ
كُلُّ شَمْبٍ قَدْ طَفَسَتْ فِيهِ الدَّمَا . . . دُونَ أَنْ يَثَّارَ لِلْحَقِّ الْجَلِي
خَلِيهِ لِلْمَوْتِ يَطْوِيهِ فَمَا . . . حَظَّهُ غَيْرُ الْفَنَاءِ الْأَنْكَلِي (١)

٢- الصّحّة ((٢١ / ذو القعدة / ١٢٤٣ هـ - ١٣ / حزيران / ١٢٤٥ م))

يَا قَوْمِ! عَيْنِي شَامَسَتْ . . . لِلْجَهْلِ فِي الْجَوِّ نَارَا
تَلُوسِ حَابَا رُكْبَا . . . يَتَلَوُ قَتَامَا مُشَارَا
يُشِيرُ فِي الْأَرْضِ رِيحَا . . . يُهَيِّجُ فِيهَا غُبَارَا
تَلْقِي الشَّدِيدَ صَرِيحَا . . . تُبْقِي الْأَدِيمَ حَمَارَا
مِنهَا الْفَنَاءُ ظَلَامٌ . . . وَالنَّاسُ مِنْهَا سُكَارَا
قَدْ أَوْرَثْتَهُمْ دُورَا . . . وَأَعْقَبْتَهُمْ خَمَارَا
لَا يَمْرِفُ الْمَرْءُ مِنْهَا . . . لِيَلَّا رَأَى أُمَّ نَهَارَا
يَخَالُ كُلُّ خَيْالٍ . . . سَرَى تَسْرِيَلًا فَارَا

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

يَا قَوْمِ سِرْتُمْ حَثِيثَا . . . خُطِي ، وَرَاءَ ، كِبَارَا
نَبَذْتُمْ الْعِلْمَ نَبَذَ النَّوَى . . . قَلْبِي وَصَنَارَا
لَبِسْتُمْ الْجَهْلَ ثَوْبَا . . . تَخَيَّدْتُمُوهُ شِعَارَا
يَا قَوْمِ سَالِي أَرَاكُم . . . قَطَنْتُمْ الْجَهْلَ دَارَا
أَضَفْتُمْ مَجْدَ قَوْمِي . . . شَادُوا الْحَيَاةَ فَخَارَا
أَبْقَوْا سَمَاءَ الْمَالِي . . . بِمَا أَضَاءَ وَأُنْسَارَا
حَاكُوا لَكُمْ ثَوْبَ عَزِّ . . . خَلَعْتُمُوهُ احْتِقَارَا
ثُمَّ ارْتَدَيْتُمْ . . . لَبَسْتُمْ وَسَّ خِزِي ، وَعَارَا (٢)

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

يأليت قومي أصاخوا . . لِمَا أَقُولُ جِهَارًا
يا شعرا أَسَمَّتَ لَكِنَّ . . قومي أراهم سكارى
فلا تُهَالِ إذا مَسَا . . أعطوا ينداك ازورا رَا
واصْبِرْ عَلَى مَا تُتَلَقِي . . واَصْدَعْ وَقِيَّتَ العِثَارَا .

٣- الى الطاغية

بتاريخ (١٥ / شعبان / ١٣٤٥ هـ، شبلماط / ١٩٢٧ م)
يقولون : "صوت المستدلين خافت" . . وسمع طفلة الأرض أطرش أضخم^١
وفي صحبة الشعب المسخر زعزع . . تخربها شمّ العروش، وتهتدم^٢
ولمعة الحق الغضوب لها صدى . . ودممة الحرب الضروس لها فم^٣
إذا التف حول الحق قوم فانه . . يصرم أحداث الزمان ويبرم^٤

XXXXXXXXXXXX

لك الويل يا صرح المطالم من غدا . . إذا نهض المستضعفون وصموا^١
إذا هطم المستعبدون قيودهم . . وصهوا حميم السخط أيان تعلم . .
أغرك أن الشعب مفضى على قذى . . وأن الغضاء الرعب وسان، مظلم؟
ألا أن أحلام البلاد دفيننة . . تججم في أعماقها ما تججم^٢
ولكن سيأتي بعد لأي نشورها . . وينبثق اليوم الذى يتسرنم^٣
هو الحق ينفى ثم ينهض ساخطا . . فيهدم ما شاد الظلام ويحطم^(١)
غدا الروع إن هب الضعيف ببأسه . . ستعلم من منا سيجرفه الدم^٢
الى حيث تجنى كفه بذر أمسه . . ومزدرع الأوجاع لا بد ينندم^٣
ستجرع أوصاب الحياة، وتنشبي . . فتصفي الى الحق الذى يتكلم^٤
إذا ما سقاك الدهر من كأسه التى

قمرارتها صاب مرير وعلقم

إذا صعق الجبار تحت قيوده . . يصيح لأوجاع الحياة ويفهم !! (٢)

٤- قالت الأيام

بتاريخ (١٥ / رجب / ١٣٤٦ م / ٨ / كانون أول / ١٩٢٨ م)
يا أيها السادر في غيبا . . يا واقفا فوق حطام الجباة^١
مهلاً ففي أنات من دستهم . . صوت رهيب سوف يدوى صداه

XXXXXXXXXXXX

لاتأمن الدهر، ماغفـا . . في كهفه الداجي، وطالت رؤاه^٢

(١) : الظلام بكسر القاف الظاء : الظلم

(٢) : الديوان ص ١١٨ .

فان قضى السوم وما قبله . . . ففى الفد الحى صباح الحياة

XXXXXXXXXXXX

يا أيها الجبار لا تزدرى . . . فالحق جباره طويل الأناة
 ينفى ، وفى أجفانه يقظية . . . ترنو الى الفجر الذى لا تراه (١)
 هـ - يا ابن أسى

بتارخ ١٠ من رمضان سنة ١٣٤٧ هـ ، ٢٠ فيفري (شباط) ١٩٢٩ م .
 خلقت طليقا كطيف النسيم . . . وحيراً كور الضحى فى سماه
 تفرّد كالظير أين اندفست . . . وتشدوا بما شاء وحى الاله
 وتمرح بين ورود الصباح . . . وتتعم بالنور ، أتى تراه
 وتمشى كما شئت بين المروج . . . وتقطف ورد الرضى فى رياه

XXXXXXXXXXXX

كذا صاغك الله يا ابن الوجود . . . وألقتك فى الكون هذى الحياه
 فمالك ترضى بئد القيود . . . وتحنى لمن كهلوك الجباه ؟
 وتسكت فى النفس صوت الحياه . . . القوى اذا ما تفتنى صداة ؟
 وتطبق أجفانك النسييرات . . . عن الفجر ، والفجر عذب ضياه ؟
 وتقع بالعيش بين الكهوف . . . فأين النشيد ؟ وأين الابناء ؟
 أتخشى نشيد السماء الجميل ؟ . . . أترهب نور الفضا فى ضحاه ؟
 ألا انهض وسرفى سبيل الحياه . . . فمن نام لم تتطره الحياه !
 ولا تخشنى مما وراء التلال . . . فماتم الا الضحى فى صباح
 والأريج الوجود الفري . . . يطرز بالورد ضافى رداه
 والأريج الزهور الصباح . . . ورقم الأشعة بين الميهاه
 والأحمام المروج الأنيس . . . يفرّد منطلقاً فى غنايه
 الى النور ، فالنور عذب جميل . . . الى النور ، فالنور ظل الاله (٢)

XXXXXXXXXXXX

٦ - النسي المجهول (٣)

بتارخ ٢٠ من شعبان سنة ١٣٤٨ هـ - ٢١ جانفى (كانون أول) سنة ١٩٣٠ م .
 أيها الشعب ليتنى كت حطبا . . . يا فأهوى على الجدوع بفأسى !
 ليتنى كت كالسيول ، اذا ساء . . . لت تهدد القبور رسماً برمس !

- (١) : الديوان ص ١٦٤
 (٢) : الديوان ص ٢٢٠
 (٣) : الديوان ص ٢٤٦

٧- ارادة الحياة (١)

بتاريخ - ٢٦ من جمادى الأولى سنة ١٣٥٢ هـ، ١٦ / سبتمبر / ١٩٣٣ م.
 اذا الشعب يوماً أراد الحياة . . . فلا بُدَّ أن يستجيب القدرُ
 ولا بدَّ لليِّل أن ينجلي . . . ولا بدَّ للقيد أن ينكسرَ
 ومن لم يمانقهُ شوقُ الحياة . . . تبخرَ في جوفها واندثر
 فويل لمن لم تشقه الحياة . . . من صفحة الدم المنتصر

XXXXXXXXXXXX

ودمدت الريح بين الفجاج . . . وفوق الجبال وتحت الشجر
 اذا ما طمعت الى غاية . . . ركبتُ المني ونسيتُ الحذرُ
 " ولم أتجنب وعرَّ الشيباب . . . ولا كبتَّ اللهب المستعمر
 " ومن لا يحبُّ صعودَ الجبال . . . يمشي أبداً الدهر بين الحفر
 فصجت قلبي دماءُ الشيباب . . . وضجت بصدي رياح أخسر
 وأطرقت، أصفى لقصف الرعود . . . وعزف الرياح، ووقع المطر

XXXXXXXXXXXX

وقالت لي الأرض: لِمَا سألت . . . "أيا أمُّ هل تكهين البشر؟"
 "أبارك في الناس أهل الطمو . . . ح ومن يستلذُّ ركوب الخطر"
 " وألمن من لا يمشي الزمان . . . ويقنع بالعيش عيش الحجر"
 " هو الكون حي، يحب الحياة . . . ة ويحقر الميت، مهما كبر"
 " فلا الأفق يحضن سيئ الطمو . . . ر، ولا النحل يلثم ميت الزهر"
 " ولولا أمومة قلبي الرؤ . . . م لما ضمت الميت تلك الحفر"
 " فويل لمن لم تشقه الحياة . . . من لعنة الدم المنتصر"
 وفي ليلة من ليالي الخري . . . ب، فيثقلية بالأسى والجزر
 سكرت بها من ضياء النجوم . . . وغيبت للحزن حتى سكر
 سألت الدجى: هل تعيد الحيا . . . ة .. لما أذبلته ربيع العمير؟
 فلم تتكلم شفاة الظلام . . . ولم تترنم عذارى السحر
 وقال لي الفأب في رقبة . . . محبة مثل خفق البسوتر:
 "يجيء الشتاء، شتاء الضبا . . . ب، شتاء الثلوج، شتاء المطر"
 " فينطفئ السحر، سحر الفصو . . . ن، وسحر الزهور، وسحر الثمر"
 " وسحر السماء الشجي الو . . . دي . . . وسحر المروج الشهي، العطر"

"وتهوى الغصون، وأوراقها . . . وأزهارُ عهدٍ هيبٍ نضير"
 "وتلهو بها الريح في كل وار . . . ويدفنها السيلُ أنى عَبر"
 "ويغنى الجميعُ كحلْمِ هديع، . . . تألقَ في مهجةٍ واندثر"
 "وتبقى البذور، التي حُمِلت . . . ذخيرةَ عُمُر جميل، غَبر"
 "وذكرى فصول، ورويا حيا . . . ة، وأشباحَ دنيا، تلاشت زَمَر"
 "لطيفِ الحياة الذي لا يئبل . . . وقلبَ الربيعِ الشذي الخضر"
 "وحالةَ بأغاني الطيور، . . . وعطرَ الزهور، وطعمِ الثمر"

××××××××××××××××

"ويمشي الزمان، فتتمو صروف . . . وتذوى صروف، وتحيا أغَثر"
 "وثُمَّ يَسُحُّ أحلامها يقظَةً . . . مَوْشَحَةً بنموضِ السَّكَّحَر"
 "تسائل: أين ضباب الصباح؟ . . . وسِحْرُ المساء؟ وضوءُ القمر"
 "وأسرابُ ذاك الفَرَّاشِ، الأنيد . . . حق؟ ونحلٌ يعني؟ وغيمٌ يمر"
 "وأين الأشعةُ والكائنات . . . كُنْ؟ وأين الحياةُ التي أنتظر"
 "ظمئتُ إلى النور، فوق الفصوب . . . ن! ظمئتُ إلى الظلِّ تحت الشجر"
 "ظمئتُ إلى النبعِ بين المرون . . . ج، يغني ويرقص فوق الزَهَبِ را"
 "ظمئتُ إلى نغمات الطيور . . . ر، وهَمْسِ النسيم، ولحنِ المطر"
 "ظمئتُ إلى الكونِ! أين الوجود . . . وأنى أرى العالمَ المنتظر"
 "هو الكونُ، خلفَ سباتِ الجمود . . . وفي أفقِ اليقظاتِ الكُبر"

××××××××××××××××

"وما هو إلا كخفقِ الجنينا . . . ح حتى نأ شوقها وانتصر"
 "فصدعت الأرض من فوقها . . . وأبصرت الكونَ عذبَ الصَّوَر"
 "وجاء الربيعُ بأنفاميه، . . . وأعلامه، وصباه العَطِير"
 "وقبلها قُبَلًا في الشيفناه . . . تعيد الشباب الذي قد غَبر"
 "وقال لها: قد مُنحت الحياة؟ . . . وخُلِدت في نسلِك المدَّخر"
 "وباركك النورُ، فاستقبلي . . . شبابَ الحياةِ وخَصِبِ العُمُر"
 "ومنْ تَعَبِدُ النورَ أحلامه . . . يُباركُه النورُ أنى ظهَر"
 "إليكِ الفضاءَ، إليكِ الضياءَ . . . إليكِ الشئِ الحالمِ، المزدَهَر"
 "فميدى كما شئت، فوق الحقوب . . . ل، بهلّو الثمارِ وغَمْرُ الزَهَبِ ر"
 "وناجي النسيم، وناجي الفيوم . . . وناجي النجومِ، وناجي القمر"
 "وناجي الحياةَ وأشواقها . . . وفتنةَ هذا الوجودِ الأغَبر"
 "مَسِّ الدجى عن جمال عميق . . . يُشيبُ الخيالَ، ويُذكي الفِكْر"

” وُمَدَّ عَلَى الْكُونِ سِحْرَ غَرِيبٍ، . . . يُصَرِّفُهُ سَاحِرٌ مَقْتَدِرٌ ”
” وِضَاءُ تَشْمُوعِ النُّجُومِ الْوَضَاءُ، . . . وَضَاعَ الْبَحُورِ، بِخَوْرِ الزَّهْرِ ”
” وَرَفَرَفَ رُوحٌ، غَرِيبٌ الْجَمَاءِ، . . . لِيَأْجِنِحَةَ مِنْ ضِيَاءِ الْقَمَرِ ”
” وَأَعْلِينَ فِي الْكُونِ: أَقَى الطَّمَسِ، . . . حَ لَهَيْبِ الْحَيَاةِ، وَرُوحِ الظَّفَرِ ”
” إِذَا طَمَعَتْ لِلْحَيَاةِ النُّفُوسُ . . . فَلَإِنَّ بَدَأَ أَنْ يَسْتَجِيبَ الْقَدْرُ ”

=====

=====

=====

=====

==

=

ومشى الناس خلفها، يتلّون . . . جمال الوجود في مراها
 فاحذر السّحرا أيها الناسك القند . . . يس ان الحياة يفوى بهاها
 والربيع الفئان شاعرهما المفّ . . . تون يفوى بحبها وهواها
 وتلّ الجمال في رم الموتى . . . بميدا عن سحرها وصنداها
 وتفزّل بسحر أمّك الأولى . . . وغلّ الحياة تخطو خطاها

واذا هبتّ الطيور مع الفجر . . . تفني بين المروج الجميل
 وتحني الحياة، والمالم الحيّ . . . بصوت المحبّة المعسولة
 والفراش الجميل رفرف في السّرو . . . ض، يناجي زهوره المطبوله
 وأفاق الوجود للعقل المسجّ . . . سدى وللسقي، والمعاني الجليه
 ومشى الناس في الشماب وفي النّ . . . غاب وفوق المسالك المجهوليه
 ينشدون الجمال، والنور، والأفّ . . . راح والمجد، والحياة النبيليه
 فاغضى للطرف في الظلام، وحانر . . . فتنة النور . . . افهي رؤيا مهوليه
 وصباح الحياة لا يوقظ السّو . . . تى ولا يرحم الجفون الكليليه

كلّ شيء يعاطف المالم الحيّ . . . ويذكي حياته، ويفيده
 والذي لا يجاب الكون بالاحـ . . . ساس عبء على الوجود وجوده
 كل شيء يساير الزمن الماشي . . . بعزم، حتى التراب، ودوده
 كل شيء - الأك - حيّ، عطوف . . . يؤنس الكون شوقه ونشيديه
 فلماذا تعيش في الكون يا صاح . . . وما فيك من جسنيّ يستفيديه
 لست يا شيخ للحياة بأهل . . . أنت داء يبدها وتبيده
 أنت قفر جهنميّ لميين . . . مظلم، قاهل، مريغ جموده
 لا ترف الحياة فـلا طيـ . . . ر يغنيّ، ولا سحاب يجوده
 أنت يا كاهن الظلام حياة . . . تعبد الموت! أنت روح شقيّ
 كافر بالحياة والنور، لا . . . يصفى الى الكون قلبه الحجريّ
 أنت قلب، لا شوق فيه ولا عزّ . . . م وهذا داء الحياة السّدويّ
 أنت دنيا، يظّلها أفق الما . . . ضي وليل الكابسة الأهدى
 مات فيها الزمان، والكون الأ . . . أسها الغابر، القديم، القصيّ
 والشقيّ الشقيّ، في الأرض قلب . . . يومه ميّت، وماضيه حيّ
 أنت لاشيء في الوجود، فذا . . . دره الى الموت فهو عنك غنيّ

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

XXXXXXX

=====

بتاريخ / ٢٣ / من ذو الحجة / سنة ١٣٥٢ هـ ، ٨ أفريل " نيسان " سنة ١٩٣٤ م .
 ألا أيها الظالم المستبد . . حبيب الظلام ، عدو الحياة
 سخرت بأنات شعب ضعيف . . وكفك مخضوبة من دمه
 وسرت تشوه سيخر الوجود . . وتبذر شوك الأسى في ربه

رويدك إلا يخدمك الربيع . . وضحو الغضاء ، ووضوء الصباح
 ففي الأفق الرعب عول الظلام . . وقصف الرعود ، وعصف الرياح
 هذار فتحت الرماد اللهب . . ومن يبذر الشوك يجهن الجراح

+*****

تأمل ! هتالك انى حصدت . . رؤوس الورى وزهور الأمسل
 وزويت بالدم قلب التراب . . وأشربتته الدمع حتى ثمل
 سيجرفك السيل ، سيل الدماء .. ويسألك الماصف المشتعل (١)

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

XXXXXXXXXXXX

XXXXXX

XX

X

=====

بتاريخ / ٢٨ من ربيع الثاني / ١٣٥٢ هـ ، ١٠ / اوت " آب " / سنة ١٩٣٤ م .

اني أرى . . . فأرى جموعاً جمّة . . . لكتّها تحيّاً بلا ألباب
 يدوى حوالئها الزمان ، كأنسباً . . . يدوى حوالئى جندلٍ وترا ب
 وإذا استجابوا للزمان تناكبوا . . . وتراشقوا بالشوق والأخصاب
 وقضوا على روح الأخرّة بينهم . . . جهلاً وعاشوا عيشة الأعراب
 فرحت بهم غول التماسق والفنسا . . . ومطامع السلاب والفلاب
 لقب ، تحركها المطامع ، واللهمسى . . . وصفائر الأحقاد والآراب
 وأرى نفوساً من دخان جاميد . . . ميت ، كأشباح ، وراء ضباب
 موتى ، تسوا شوق الحياة وعزمها . . . وتحركوا كتحرّك الأنصاب
 وخبا بهم لهب الوجود ، فما بقوا . . . إلا كمحترق من الأخشاب
 لا قلب يقتحم الحياة ، ولا هجسى . . . يسمو سؤال الطائر الجواب
 بل في التراب الميت ، في حزن الثرى . . . تنمو مشاعرهم مع الأعشاب
 وتموت خاملة ، كزهر بائس . . . ينمو ويذبل في ظلام الفباب
 أبداً تحدث في التراب ، ولا ترى . . . نور السماء فروجها كتراب
 الشاعر الموهوب يهرق فننه . . . هدراً على الأقدام والأعتاب
 ويصير في كون عقيم ، ميت . . . قد شيدته غباوة الأحقاب
 والمالم التحير ينفق عنده . . . في فهم ألفاظ ، ودرس كتاب
 يحيا على رمم القديم المجتوى . . . كالودود في حتم الرمان الخابي
 والشعب بينهما قطيع ضائع . . . دنياه دنيا مأكّل وشراب
 الويل للحساس في دنياههم . . . ماذا يلاقى من أسى وعذاب

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

XXXXXXXXXXXX

XXXXXXX

XXX

X

=====

- بتاريخ / ٩ من جمادى الأولى / سنة ١٣٥٣ هـ / ٢٠٤ / أوت " آب " / سنة ١٩٣٤ م
- كان الريحُ الحَيُّ روحاً، حَالِماً . . . غَضُّ الشَّبابِ ، مَعْطَرُ الحَلِيَابِ
يشي على الدُّنيا بِفِكْرَةٍ شَاعِرٍ . . . وَيَطُوفُهَا فِي مَوَكِبِ خَالِبِ
وَالأفقُ يَمْلَأُ هُ الحَلَمَانَ ، كَأَنَّه . . . قَلْبُ الوَجُودِ المُنْتَجِ الوَهَّابِ
وَالكُونُ من طَهْرِ الحَيَاةِ كَأَنَّه . . . هُوَ مَعْبُدٌ ، وَالنَّابِ كَالْمِحْرَابِ
وَالشَاعِرُ الشَّحُورُ يَرْقِي ، مُنْشِداً . . . لِلشَّمْسِ ، فَوْقَ الوُرُودِ وَالْأَعْشَابِ
شِعْرَ السَّعَادَةِ وَالسَّلَامِ ، وَنَفْسُهُ . . . سَكْرَى بِسِحْرِ العَالَمِ الخَالِبِ
ورآه ثَمْبَانَ الجبالِ ، فَمَنَّه . . . مَا فِيهِ من مَرَجٍ ، وَفِيضِ شَبَابِ
وَأَنْقَضَ ، مُضْطَمِّناً عَلَيْهِ كَأَنَّه . . . سَوَطُ القَضَاءِ ، وَلَمَنَّةُ الأَرْبَابِ
جَهَنَّتِ الشَّقِيَّةُ ، فَصَاحَ فِي هَوْلِ القَضَا . . . مَتَلَقَّتْهَا لِلصَّائِلِ المُنْتَابِ
وَتَدَفَّقَ المَسْكِينُ يَصْرُخُ شَائِراً : - " مَاذَا جَهِتَ أَنَا فُحِّقْ عِقَابِي " . . .
" لَأَشِيءَ ، إِلا أَنِّي مُتَفَرِّقٌ " . . . بِالكَاثِنَاتِ ، مُتَمَرِّدٌ فِي غَايِبِي
" وَسَعَادَةُ الضَّمْفَاءِ حُرْمٌ ، سَالَهُ . . . عِنْدَ القَوِيِّ سَوَى أَشَدِّ عِقَابِ
" أَلْقَى من الدُّنيا حَنَاناً طَاهِراً . . . وَأَهْتَبَا نَجْوَى المَحِبِّ الصَّابِي
" أَيَعُدُّ هَذَا فِي الوُجُودِ جَرِيماً ؟ . . . أَيْنَ العَدَالَةُ يَا رَفَاقَ شَبَابِي ؟
" لا (أَيْنَ ؟) فَالشَّرْعُ المَقْدَسُ هَهُنَا . . . رَأَى القَوِيُّ وَفِكْرَةَ النُّسْالِبِ !
" وَسَعَادَةُ الضَّمْفَاءِ جُرْمٌ . . . بِمَالِهِ . . . عِنْدَ القَوِيِّ سَوَى أَشَدِّ عِقَابِ !
" وَلِتَشْهَدِ الدُّنْيَا التي غَنِيَتْهَا . . . حَلْمَ النُّشَابِ ، وَرُوعَةَ الإعْجَابِ
" أَنَّ السَّلَامَ حَقِيقَةٌ مَكْدُونَةٌ . . . وَالعَدْلُ فِلْسَفَةٌ اللَّهِيبِ الخَابِي
" لِأَعْدَلِ ، إِلا إِنْ تَعَادَلَتِ القَنُوى . . . وَتَصَادَمَ الإِرْهَابُ بِالإِرْهَابِ
" فَتَبَسَّمَ الثَّمْبَانَ بِسَلْطَنَةِ هَارِي . . . وَأَجَابَ فِي سَمْتِ وَقْرَطِ كِنْدِ آبِ
" يَا أَيُّهَا الفِرُّ الشُّرَيْطِرُ ، إِنَّنِي . . . أَرَى لِثُورَةِ جَهَنِّكَ التَّيْبِالِبِ
" وَالفِرُّ يَمْدُرُهُ الحَكِيمُ إِذَا طَفَسَى . . . جَهْلُ الصَّبَا فِي قَلْبِهِ الوَثَابِ
" فَأَكْبَحَ عَوَاطِفَكَ الجَوَامِحَ ، بِإِنْتِهَانِ . . . شَرَدَتْ بِلَيْتِكَ ، وَاسْتَمِعْ لِخِطَابِي
" إِنِّي الإِلهُ طَالَمَا عَبَدَ السُّورَى . . . ظَلَمْتُ وَخَافُوا لَمَنِّي وَعِقَابِي
" وَتَقَدَّمُوا لِي بِالضَّحَايَا عِنْدَ سَمِّ . . . فَرَحِينِ شَأْنِ العَابِدِ الأوَّابِ
" وَسَعَادَةُ النَفْسِ الشَّقِيَّةِ أَنَّهُمَا . . . يَوْمًا تَكُونُ ضَحِيَّةَ الأَرْسَابِ

" فتصير في رُوح الألوهُة بِضِعْمَةٍ . . . قَدُوسِيَّةً خَلَمَتْ مِنَ الْأَوْشَابِ "

" أَفَلَا يَسْرُكُ أَنْ تَكُونَ ضَحِيَّتِي . . . فَتَحَلَّ فِي لِحْمِي وَفِي أَعْصَابِي "

" وَتَكُونُ عَزْمًا فِي دَمِي وَتَوْجَعًا . . . فِي نَاطِرِي وَجِدَّةً فِي نَابِي "

" وَتَدَوَّبَ فِي رُوحِي الَّتِي لَا تَنْتَهِي . . . وَتَصِيرُ بَعْضَ أَلُوهِي وَشِبَابِي . . . ؟ "

" أَنِّي أُرِدُّ لَكَ الْخُلُودَ مَوْلِيهَا . . . فِي رُوحِي الْبَاقِي عَلَى الْأَحْقَابِ "

" فَكَيْفَ، لَتَدْرِكَ مَا أُرِيدُ وَأَنْبِي . . . أَسْمَى مِنَ الْعَيْشِ الْقَصِيرِ النَّابِي "

" فَأَجَابَهُ الْبُخْرِيُّ فِي غُصَصِ الرَّدَى . . . وَالْمَوْتُ يَخْنُقُهُ : " إِلَيْكَ جَوَابِي : "

" لَأَرَأَيْتَ لِلْحَقِّ الضَّعِيفِ، وَلَا صَدَى، . . . وَالرَأْيُ رَأَى الْقَاهِرِ الْفِئَالِ "

" فَأَفْعَلَ مَشِيئَتَكَ الَّتِي قَدْ شِئْتَهَا . . . وَارْحَمْ جَلَالَكَ مِنْ سَمَاعِ خِطَابِي "

وكذاك تتخذ المظالم منطوقاً . . . عذبا لتخفي سؤة الآرا . ب .

=====

=====

=====

=====

==

=

=====

بتاريخ / ١٩ من جمادى الأولى / سنة ١٣٣٤ هـ .

لقد نامَ أهلُ العلمِ نومًا مَفنطَسًا . . فلم يسمَعوا ما رَدَدَتْهُ العوَالِمُ
ولكنَّ صوتًا صارخًا، متصاعداً . . من الروح يدرى كنهه المتصاعداً
سيوقظُ مِنْهُمْ كُلَّ مَنْ هُوَ نَائِسٌ . . وَيُنطِقُ مِنْهُمْ كُلَّ مَنْ هُوَ وَاجِمٌ

سَكْتُمْ حُمَاةَ الدِّينِ ! سَكْتَةَ وَاجِمٍ . . وَنِعْتُمْ بِلُءِ الْجَفْنِ ، وَالسَّيْلِ دَاهِمٍ
سَكْتُمْ ، وَقَدْ شِعْتُمْ ظَالِمًا ، غَضُونًا . . عِلَائِمُ كُفْرٍ نَائِرٍ وَمَمَالِيمُ
مَوَاكِبِ الْحَارِ وَرَاءَ سُكُوتِكُمْ . . تَضَجُّ وَهَذَا إِنْ الْقَضَاءُ مَا نَيْمُ
أَفِيقُوا فَلَيْلُ النَّوْمِ وَلَيْ شَهَابُهُ . . وَلَا حَتْلًا لِأَلِ الصَّبَاحِ عِلَائِمُ
فَدُونَ ضَجِيجِ الْفَاسِقِينَ سَكِينَةً . . هِيَ السُّوتُ ، مِمَّا أُورِثَتْهُ التَّمَائِمُ
عَوَائِدُ تُحْيِي فِي الْبِلَادِ نَوَائِبًا . . تَقْدُرُ قَوَامَ الدِّينِ ، وَالدِّينُ قَائِمٌ
أَفِيقُوا وَهَبُوا هَبَّةً ضَيْفَمِيَّةً . . وَلَا تَحْمَجُوا ، فَالْمَوْتُ فِي الْجُبْنِ جَائِمٌ
فَدُونَ نِقَابِ الصَّمْتِ تَنُمُو مَلَامِيحُ . . تَبْرَقَعَتِ الشَّرُّ الَّذِي لَا يُقَاوَمُ
فَقَدَّتْ فِي زَنْدِ الدِّيَانَةِ مَعْشَمُ . . أَثَارُوا عَلَى الْإِسْلَامِ مَنْ قَدْ يَهْجُمُ
فَوَا الْحَقِّ مَا هَذِي الزَّوَايَا وَأَهْلُهَا . . سَوَى مَصْنُوعٍ فِيهِ تَصَاغُ السَّخَائِمُ
لَحَى اللَّهُ تَيْمًا لَمْ تَسْتِثِرْهُ حَمِيَّةً . . عَلَى دِينِهِ ، أَنْ دَاهَمَتْهُ الْمَطَائِمُ
لَحَى اللَّهُ قَوْمًا ، لَمْ يُبَالُوا بِمَأْسِهِمْ . . يُصِوبُهَا نَحْوُ الدِّيَانَةِ ظَالِمُ

١٢- زئير الماصفة (٢)

تَسَالَتْنِي : " مَا لِي سَكْتُ وَلَمْ أَهَيْبُ . . بِقَوْمِي ، وَتَسْجُورُ الْمَصَائِبِ مُظْلِمِي " .
" وَسَيْلُ الرِّزَايَا جَارِفٌ ، مَتَدٌ قُضِعَ . . غَضُوبٌ ، وَوَجْهُ الدَّهْرِ أَرِيدُ أَقْتَمُ "

سَكْتُ ، وَقَدْ كَانَتْ قَنَاتِي غَضْبَةً . . تُصِيحُّ إِلَى هَمْسِ النَّسِيمِ ، وَتَحْلَمُ
وَقَلَّتْ ، وَقَدْ أُطْفِئَتْ إِلَى الرِّيحِ مَرَّةً . . فَجَاشَ بِهَا إِعْصَارُهُ الْمُتَهَيِّزُ
وَقَلَّتْ وَقَدْ جَاشَ الْقَرِيضِيُّ بِخَاطِرِي . . كَمَا جَاشَ صَخَابُ الْأَوَازِي ، وَالْأَسْحَمُ

+*****

(١) : الديوان ص ١١٥ ١٢٧

(٢) : الديوان ص ٤٩٤ . - وهي مدونة بدون تاريخ .

" أرى المجد معصوب الجبين مجد لا . . . على حسنك الآلام، يغمرة القدم
 " وقد كان وضاح الأسارير باسمًا . . . يهيب إلى الجلى، ولا يتكبرم
 " فيا أيها الظلم المصفر خذ . . . رويدك إنا الدهر يهني ويهدم
 " سيأر للمز المحطم ثاجؤه . . . رجال إذا جاش الردى فهم هم
 " رجال يرون الدل عاراً وسبّة . . . ولا يرهبون الموت، والموت مقدر
 " وهل تعطي الآ نفوس أبيّة . . . تصدع أغلال الهوان، وتحطيم

١٣ - ليت شعري (١)

مَزَقَتْ ثوبَ سكونِ الليلِ أننأتُ كَلِيمِ
 بسنين طيات سجانف الفاسق، الداجي البهيم
 حركت ميني شعورا كان من قبل رحيم
 فتحسست مكان الصوت، في ذاك الأديم
 فإنا بالأرض ملقى هيكلي نضو ككسوم
 عفرته التراب والمعين على الخيد سجوم
 فتأملت ملياً وجهه تحنت الفيوم
 فإنا الملقى بوادي وطبني حسم الملووم !
 يا بني الأوطان هبوا فلقد طال الوجوم
 وانهضوا نهضة جبار بعزم مستقيم
 لست أفسى نهضة الماجز يتلوها الحسوم
 ليت شعري ! هل سحاب الجهل تذروه المقسيم ؟
 فترى الأعين بذر العلم قد شقق الفيوم ؟
 ليت شعري ! يا بلادي هل تصافيك الملووم ؟

=====

=====

=====

=====

=====

الكتاب الخامس

الحب وصوره في شعر الشاهبي

ليس في الوجود انسان رقيق المشاعر ، مرهف الاحساس ، لا يخفق قلبه للحب العذرى الطاهر ، ولا يفتتن بالجمال وينظر الجمال الساحر الجذاب ، ويعلق بالحس في جميع مظاهره المادية والمعنوية .

وما زالت النفس البشرية تشعر بهذه العاطفة الجامعة القوية ، فانها تجد بالشعر غير معبر ناطق عما يلابسها من متباين الحس ومختلف الشعور ، وأصدق محدث ينطق بما توحى به بيئة كل شاعر ، ومحيطه الذى نشأ فيه ، وما هو اثر عليه في حياته من متنوع الحوادث والخطوب .

لقد خفق قلب الشاهبي بالحب ، وهو وحده كان له أكبر عزاء وأعظم عوش ، لكل ما فقدته في حياته المليئة بالآلام والسقم ، وكان يرى في الحب مشتبهى نفسه ، وتنبؤ فؤاده ، ولولا هذا الحب المذرى لما خفق قلبه بالحياة التي كرهها وسئمها ، فكل ما فيها قاتم مظلم الجوانب ، مسود الصفحات ، ولا يثيره سوى ضوء الحب الذى يسطع ، ويفسر حناها نفسه الحالكة ، فينمشها ويحبب اليها الحياة .

ولم يكن الشاهبي رحمه الله تعالى - ميالا للجحد أو للجاء الذى ينشده غيره من محبي الظهور والرياء ، ولم يكن راغبا في الثراء العريضى والعيش الهنىء ، لأنه كان يقنع بما قسمه الاله للناس من حظوظ وأرزاق ، بل كان يصبو ويتوق الى مجد يختلف عن مجد الناس ، يجده ويحس به في هذا الحب الذى كان يملأ قلبه بهاء ونقاء ورواء ، وكان يتمثل له هذا الحب الصافي في ضوء الفجر ، وفي شدو الطير ، وفي رفيف الزهر ، فيصلا نفسه سرورا لا يعدله سرور . (١)

صور الحب في شعر الشاهبي

ولعلنا من قراءة شعره قراءة مستأنية ، أن نجد ألوانا مختلفة من الحب وصورا رائعة ، ان لم يقتصر في حبه على المرأة والتفنى بما فيها من جمال ومفاتن ، وانما ذهب في حبه مذاهب أخرى ، خالف بها أقرانه

من الشعراء ، وأهم هذه الصور التي تتضح من شعره هي :

١ - حب الأرض والوطن والدعوة الى تحريره .

٢ - حب المرأة .

٣ - حب والده .

٤ - حب الحياة .

٥ - حب الطبيعة .

وستحدث عن كل صورة من هذه الصور على حده :

أولا : حب الأرض والوطن

=====

نشأ الشابي في تونس ونفسه الرقيقة يملكها حُبّان عفيفان ، أهمهما وأولهما حبه لتونس الخضراء الجميلة ، وحبه الثاني للمسلم والمعرفة وعاش سنواته القليلة المترعة بالأحزان ، يوزع القلب بين حبه لتونس ، وحب العلم والمعرفة والتحصيل ، فانكب على الاطلاع يفرف منه بنهم ، غير مكترث بأعصاب تتمرض للارهاق ، وبفؤاد تخننه جراح الصدمات العنيفة ، وعرف أن حبه لتونس ان لم يكن مبنيا على المسلم والمعرفة ، وهادفا الى رفع مستوى شعبها ، وهو حب غير مجد ، ولذا فقلقه كان شعاره في حبه لبلاده الجهاد المتواصل ، ولكن الشعب مكبّل بأغلال الاستعمار ، وبأغلال غيرها هي أشد خطورة وآلم لنفس الشاعر الفكرة لأنها أغلال معنوية بميدية الأثر في حياة الأمم ، ألا وهي أغلال الجهل والفقر والتقاليد البالية ، والمعتقدات الرجعية .

وأقدم الشاعر متجنّدا للجهاد ، وسلاحه فكر نيرّ ونفس متفتحة وشاعرية خلّاقة مهددة ، وثقافة عالية ترسبت فيها ثقافات عديدة .

لم يكن الشابي يتقن لغة أجنبية ، لكنه كان يقرأ كل ما يترجم عن أدب الغرب ، ويتأثر به الى أبعد حد ، ولم يكن الشابي يصرّف الرحمة بنفسه ، ولذا كان يرهقها بالسهر والعمل المستمر ، سعيا وراء المعرفة ، وتفذية لنفس ثائرة القابلية ، الى المزيد من الفداء الروحي .

ولشد ما كان الشابي يتحسر ويتألم حين كان يرى الشعب التونسي مفكك الأوصال ، ويتكرر للجديد في الأدب ، ويشور ثورة رجعية تقليدية رجعية الأسس في كل جهاد يزيكه الشباب الخلاق في عزائه وطموحه .

ويتطلع بمدد ذلك ليرى المجاهدين من اخوانه ، يصر بهم الى النور أو الى الظلام ، أو الى ظلمات السجون ، كلما قام منهم مطالب بحق أو شاعر في وجه ظلم ! فيبكي شاعرنا ذو القلب النابض ، والنفس الكريمة ،

لا بكاء تقليديا عرفه الشعراء منذ القدم ، ساعة كانوا يقفون على الأطلال ، بل بكاء الكرام اللذين جدت في طلبهم المحن ! وهو ان يخاطب تونس الجميلة يقول :

لست أبكي لمسف ليل طويل . . أو لربع غدا العفاء مراحمه
انما عبرتي لخطاب ثقیل . . قذ عرانا ولم نجد من أراحه
كلما قام في البلاد خطيب . . موقظ شميمه يريد صلاحه
أخمدوا صوته الالهي بالمسف . . أماتوا صداحه ونواحيه
ألبسوا روحه فيم اضطهاد . . فاتك ، شائك ، يرد جماحه
وشديد على النفس العزيزة أن تحمل الشيم ، ولأ يكون ليديها من وسائل
المقاومة ما تملك به الدفاع عن نفسها .

كان الشاعر ما يزال غمًّا الاسباب عندما كان يرسل نغشاته الملتهبة
ناطقة بالشكوى زاخرة بالحسرات ، علّنه يحرك في النفوس تيار الثورة ،
ليعود فيقول :

أنا يا تونس الجميلة في لَح . . الهوى قد سبحت أي سباحه
شمرعتي حيك العميق وانّي . . قد تذوقت مرّه وقراحيه
لا أبالي وان أريقت دمائي . . فدماء المشاق دوما مباحه
لقد أحب الشاعر بلاده حبًّا أراد به لو يستطيع أن يجعلها تحيا
أبية ، وأحبها ليمزق بحبه ستائر الأوهام ، التي كانت تعجب عنه أنوار
الحقيقة ، وأراد لها حياة سعيدة عزيزة ، فاصطدم بالعقبات
وكان في جهاده المستمر يتعرض للصدمات العنيفة ، فيستسلم للقنوط
والخيبة ، وتتراعى له عرائس الشعر متشحة بالسواد ، فتغمر نفسه الفتية
موجة من الحزن العميق فيسترسل قائلًا :

ليت شمري

أي طسير

يسع الأحزان تبكي . . بين أحشاء الكتيب
ثم لا يتلو على الفجر . . أغاريد النحيب

بخشوع واكتئاب (١)

ولقد أحب الشابي بلاده حبًا لم يحبه أحد قبله ، وقد اتضح ذلك في
روائع قصائده التي تحث التونسيين على الثورة والتمرد ، وقد مر ذكرها في الفصل الماضي .

(١) : - آثار الشابي وصداءه - أبو القاسم محمد كرو من مقال لسعاد

حب المرأة

=====

يقول الأستاذ عمر فروخ :

" على الرغم من أن الشابي قد أتمتع نفسه بضرورة الزواج ارضاء

لأبيه، وعلى الرغم أنه رزق من زواجه هذا ولدين، وعلى الرغم من قول زين العابدين السنوسي - فإن سلوك الشابي الماطفي كما نرى ذلك من ديوانه - لا يدل على أن الشابي كان وادعا سعيدا في حياته الزوجية.

هذه الحياة الزوجية لم تستطع أن تهب الشابي الاطمئنان الذي ينعم به الانسان عادةً بالزواج، فاندفع - ولما يمشى عام واحد على زواجه التي تكتلب سمادة موهومة في حب فتاة ظنّ فيها تحقيقا لأحلامه. تلك كانت أولى السيئات التي ظهرت في حياة الشابي من أثر جبران، ولكن هذه الفتاة التي أحبها الشابي في ابّان طفولته على الأصح ماتت وشيكاً، فأذكى موتها في نفسه الأسى على حاله، والنقمة على حوادث الدهر

وظل الشابي يذكر حبه هذا مدة، ثم جعل ينساه أو يحمل نفسه على نسيانه، وسرعان ما أطاعته نفسه فنسي حبه الأول، وانتقل الى حب جديد ثم الى حب آخر فأخسر، ويجهر لنك الشابي في ديوانه بمواقف من الحب شوحي بأنه قد اندفع بماطفته وراء المرأة ولا يلوى على شيء ولا ريب في أن هذا الاندفاع كان من الأسباب التي قربت منيته اليه مع أنه كان يستطيع أن يحيا مع دائه كما عاش غيره مع أدوائهم، ولكن القضاء النافذ، والقضاء نفسه في التهلكة بيده كان عليه كتابها موقوتاً.

وهذا الحب يستحق شيئاً من المناقشة، وهذا مكائها :

يرى زين العابدين السنوسي أن الشابي أحب حبين :

حبا عذرياً .

وحباً صريحاً .

أما الحب العذري فكان حبا باكراً، نما في قلبه من ألفة فتاه عرفها ونشأ معها " حتى بلغ الحادية عشرة من عمره" قبل أن يأتي الى تونس العاصمة، ولكن هذه الفتاة توفيت بعد التحاقه بالزيتونة بوقت قصير فخلفه له حزننا ومرغبا، وانطقته شعرا عذيباً كثيراً، ثم ظلت مملء قلبه ونصب خيالاً له زمناً طويلاً حتى أنه أشار اليها في

مذكراته سنة ١٩٣٠م . (١)

أما محمد الحليوي فيجعل هذا الهيبالباكر نفسه أحدث عهدا ان يقول :
 " ان الشابي كان في عام ١٩٢٤م شابا في الخامسة عشرة من عمره ،
 وكان قد مضى عليه أربع سنوات في التعلم بالزيتونة ، وكان والده ان
 ذاك قاضيا شرعيا في رأس الجبل . ومن المرجح أن يكون الشابي قد
 عرف أثناء اقامته مع والده فتاة كان يلقاها ويتفصح معها في بعض المنزهات
 وأن عماته الفتاة هي التي تحدت عنها في أوائل شعره حديثا سانجا
 ونظم فيها أولى قصائده ، واتفق أن ماتت في تلك المدة ، وانتقلت أسرة
 الشابي الى زغوان سنة ١٩٢٧م ومن المؤكد عندي أن الشابي لم تكن له
 حياة قلبية غير تلك الفتاة التي أحبها وهو في سن الخامسة عشرة " (٢)
 ولكن محمد الحليوي يصل هذا الحديث بحديث قصيدة للشابي عنوانها
 " صلوات في هيكل الحب " وينفي أن تكون هذه القصيدة قد قيلت في فتاة
 رأس الجبل ، ثم يقول :

" والحقيقة أن الشابي استوحى هذه القصيدة حسبا ذكر لي (هو) شفويا
 من فتاة انجليزية مصورة كالتصوير قد أقامت مده في توزر لتصوير بعض مناظر
 المدينة ووحداتها على نحو ما يفعل الفنانون الأجانب في بلادنا فراها
 الشابي تفردو وتروح تقبل وتدبر ، فاستولى جمالها وشبابها على مشاعره الى
 درجة الذهول الصوفي فبرغ لها تلك الصلوات " .

والى جانب هذا الحب العذرى حب آخر استبد بقلب الشاعر أبي القاسم
 لشابي ، يقول زين العابدين السنوسي :

" وفوق ذلك فان لوعه الحب العذرى على هولها - لم تطفئ كفاءة
 لجسد طول الأبد ، ولكن صريحين مع الواقع ، فان الشابي الشاعر - برغم
 لصدمة التي لقيها في حبه العذرى ، ان ماتت حبيبته الصغيرة - قد أحس
 دما " الشباب ونغمات الحب تفريره " .

ويمضي السنوسي فيقول :

" وانما نريد أن نثبت طواعية شاعرنا لنواميس الحب وخضوعه لسر
 لوجود في ذلك الملاك المجنح الذي يصمي القلوب بنباله ، ولو كان منها
 ذياك القلب الكبير ، فهو يحدثنا بكل صراحة وصدق وجد ((ليلته عن ليلة لسه " .
 مما فيها من حسب وذكريات ثم يشتشهد السنوسي بابيات

(١) - تراجع السنوسي - ص ٢٢ ، ثم ٢٣ وما بعدها ثم ٢٥ .

(٢) - الفكر - عدد مايو " ماى " - سنة ١٩٦٠م - ص ٢٠ .

للشاهي من قصيدته الساحرة (١) فيها حوار صريح بين الشاعر وبين امرأة يبدو أنها من المترنات للرجال، يقول الشاهي في هذه القصيدة :

خَلَّ عَنَّا الحَيَاةَ عَنكَ ، وَهَمَّا . . . بِحَسْبِهَا كَالصَّحْحِ طَلَّقَ أَدِيمُهُ
وَأَمْسَى فِي رَوْضَةِ السُّبَابِ طَرُوبًا . . . فَحِوَالَيْكَ وَرَدَهُ وَكُرُومُهُ
وَاحْتَضَنِي فَأَنِّي لَكَ حَسْتِي . . . يَتَوَارَى هَذَا الدُّجَى وَنَجُومُهُ
وَاقْطِفِ الوردَ مِنْ حُدُودِي وَجِيدِي . . . وَنَهْودِي وَافْعَلْ بِهِ مَا تَرُومُهُ
وَانسَ فِي الحَيَاةِ ، فَالْعُمُرُ قَفْرٌ . . . مَرَعِبٌ أَنْ ذَوَى وَجِفَّ نَعِيمُهُ
تلك يا فيلسوف، فلسفة الكون . . . وَوَحْيِي الوجودِ هَذَا قَدِيمُهُ .

ويستجيب الشاعر لهذه الغائبة الساحرة فيقول في نفس القصيدة :

فَرَمَاهَا بِنَظْرَةٍ ، غَشِيَتْهَا . . . سَكْرَةُ الحَبِّ ، وَالْأَسَى ، وَغُيُومُهُ
وَتَلَاهَا بِهَيْمَةٍ ، رَشَفَتْهَا . . . مِنْهُ سَكْرَانَةُ الشَّبَابِ رُؤُومُهُ
وَالْتَقَتْ عِنْدَهَا الشِّفَاهُ ، وَغَتَّتْ . . . قُبْلَ أَجْفَلَتْ لَدَيْهَا هُمُومُهُ
مَا تَرِيدُ الهمُومُ مِنْ عَالَمٍ ، ضَا . . . عَتِ مَسْرَاتُهُ وَغَتَّتْ نَجُومُهُ ؟
لَيْلَهُ أَسْبَلُ الفَرَامُ عَلَيْهَا . . . سِحْرَهُ النَّاعِمِ ، الطَّرِيرِ نَعِيمُهُ
أَغْرَقَ الفَيْلسُوفُ فِلسَفَةَ الأَحَدِ . . . زَانَ فِي بَحْرِهَا ، فَمَنْ يَلُومُهُ ؟
أَنَّ فِي الرِّأَةِ الجَمِيلَةِ سَحْرًا . . . عِبْقَرِيًّا يُذَكِّي الأَسَى ، وَيُنِيمُهُ !
ويعلق على ذلك السنوسي بقوله : (ص ٣١ - السطر الأخير) :

" فالحب كان جحيمة والحب كان نعيمه ، وفننى به على كل ربح "

ولا يستغرب غديره (ص ٢٧) أن يكون الشاهي قد أحب في بلدة رأس الجبل ، وأحب في زفوان ، ثم أحب ثالثة في تونس ، وقد يكون قد أحب فتاة بمينها ، وقد يكون أحب من بعيد مكثفيا بنظرة أو سماع .

ويقول فروخ :

وكتب إلي الأديب الشاذلي ذو كار (٢) أن الشاهي أحب فتاة ايطالية في بلدة زفوان التي كان والده قاضيا فيها ، ولم تكن هذه الفتاة تبادل الحب ولا تتمتع عليه بصداقة ، ولملها لم تعرف بحبه لها ، ولكنه كان يجتهد في رؤيتها بل أن يكثر من رؤيتها ، ثم يترجم عن شعوره نحوها بقصائد من الفزل الرائع .

أما محمد الحليوي فيخالف هؤلاء كلهم في ذلك ويقول : (٣)

" المرأة عند الشاهي هي الجميل الذي يحمل في قلبه رحيق الحياة

(١) : الديوان / ص ٣٥٥ - ٣٦٥ .

(٢) : جده / بتاريخ ٣/٨ / ١٩٦٠م ص ٢٢ .

(٣) : مع الشاهي - محمد الحليوي / ص ٧١ - ٧٢ .

وسلسبيل المحبة، وهي الطيف السماوي الذي هبط الى الأرض ليؤجج نيران
السبب، ويعلم البشرية طهارة النفس وجمال الحنان وهو " الشابي " لا
يذكر امرأة مخصوصة ولا واقعة بعينها، وإنما يذكر المرأة والمحبة، فكأنه
يصف فكرة لا امرأة، ويصور مثلاً أعلى لا امرأة من لحم ودم... وربما
كانت حراة شعره الغزلي ولهفته الصادقة متأثراً من حرمات من
من الاتصال بالمرأة التي توحى الي الشاعر وتوجه عاطفته وجهتها
الغنية .

لقد أراد الحليوي أن يقطع الصلة بين الشابي وبين العاطفة البشرية
ليحيطه بهالة من القداسة، ولعل القارىء ما زال يذكر قصة المصورة
الانجليزية التي رآها الشاعر الشابي في تَوَزَّرَ تَقَبَّلَ وَتَدَبَّرَ فاستولى
جمالها وشبابها على مشاعره . (١)

وأما الأستاذ رجاء النقاش فيرى أن الحب عند الشابي حب رومانسي
صادق، وأول مظاهر الرومانسية فيه هي المثالية الكاطية، فالمرأة التي
أحبها هي امرأة من صنع خياله السامي، إنها امرأة مثالية تتكون
من الأحلام والأطياف والزهور، وهي ليست من جسد بل من روح شفافة .
وليست مزيجاً من الخير والشر بل من الخير المطلق فهي خير مطلق وصفاء
مطلق، وحبها ليس حباً حسيّاً، بل لا يختلط أبداً بأي معنى من معاني
الحس، إنه حب روعي شفاف يسمو فوق نداء الفريضة، ويختلف عن ذلك
الحب المادى الذى يعرفه الناس .

ولعل المثالية الحب عند الشابي لم تفتح مثلما تفتحت في قعيدته
الشهورة " صلوات في هيكल الحب " ففي هذه القصيدة صورة شفافة
رقيقة للمرأة، وكأنها امرأة تجيء من عالم ملائكي سحرى لم يعرفه
البشر، ويقول الشابي في هذه القصيدة :

عَذْبَةٌ أَنْتِ كَالطُّفُولَةِ كَالأَخِ . . . لَامَ كَاللَّحْنِ ، كَالصَّبَاحِ الْجَدِيدِ
كَالسَّمَاءِ الضُّحُوكِ كَاللَّيْلِ الْقَمَرِ . . . كَالرُّزْدِ ، كَالْبَثَامِ الْوَلِيِّدِ
يَالهَا مِنْ وِدَاعَةٍ وَجَمَالِ . . . وَشَبَابِ مَنْعَمٍ أَمَلِيٍّ
يَالهَا مِنْ طَهَارَةٍ تَبَعُ التَّقْدِيرِ . . . سَرَفِي مَهْجَةِ الشَّقِيِّ الْعَنِيدِ
يَا لَهْدِ رِقَّةٍ يَكَادُ يَرِفُ السُّورِ . . . دُمْنَهَا فِي الصَّخْرَةِ الْجُلْمُودِ
أَنْتِ مَا أَنْتِ ؟ أَنْتِ رَسْمٌ جَمِيلٌ . . . عَبَقْرِيٍّ مِنْ فَنِّ هَذَا الْوُجُودِ
فِيكَ مَا فِيهِ مِنْ غُوضٍ وَسِحْرِ . . . وَجَمَالٍ مُقَدَّسٍ مَعْبُودِ

ويستمر الشابي في القصيدة على هذه الطريقة ، في الاحساس والتصوير الفني ، وكل صور المرأة عنده لا تختلف عن هذه الصور الملائكية الكاملة التي تجمع أجمل ما في العالم ، وتمثل كل المعاني الانسانية الراقية الشفافة .

وإذا كان الحب عند الشابي عاطفة مقدسة تتجه الى كائن مقدس هو المرأة ، فإن هذا الحب المثالي هو حب حزين لأنه يصطدم بمقبات ومشكلات تجعل منه حبا يائسا " فاجما " فالحب في كثير من قصائده يقترن بالموت ، ان هناك دائما عقبة تترض هذا الحب فتحوله الى مأساة والحب عند الشابي حب تراجيدي فاشل شأنه في ذلك شأن جميع الرومانسيين لأنه يغذى فيهم ذلك الشغور الى نفوسهم وهو شغور الحزن وهذا الحزن أيضا هو منطلق طبيعي لأحلام خيالية تصطدم بقوانين الواقع ، ولو عدنا الى الانتاج الأدبي الرومانسي المعروف ، لوجدناه دائما مُستَهدا من عذاب الحب الفاشل ، ففي " غادة الكيا مهيا " لألكسندر دوما ، يفشل الحب بسبب معارضة أسرة البطل لزواجه من حبيبته لأنها ذات سمعة سيئة ، وفي " هيلويه الجديدة " لجان جاك روسو يموت الحب بين الحبيبتين لأختلاف الطبقة الاجتماعية بينهما ، وهكذا يصطدم الحب دائما بمقبة من المقبات فيصبح حبا بائسا حزينًا فاشلا .

وفي شعر الشابي نجد هذه الظاهرة بوضوح في كثير من قصائده ...
ففي قصيدة " الذكرى " يقول :

كُنَّا كَرُوجِيّ طَائِرٍ . . . فِي نَرُوحَةِ الحُبِّ الأَمِينِ
نَتَلُو أَنَا شَيْدَ المُنَى . . . بَيْنَ الخَمَائِلِ وَالفُصُونِ
مُتَفَرِّدِينَ مَعَ الهَلَاةِ . . . فِي السُّهُولِ وَفِي الحُزُونِ
مَلَا الهَوَى كُنَاسَ الحَيَاةِ . . . لَنَا ، وَشَعَشَعَهَا الفُتُونِ
حَتَّى إِذَا كِدْنَا نُرشِّفُ . . . خَمْرَهَا ، غَضِبَ المَنُونِ
فَأَرَاكَ خَمْرَ الحُبِّ فِي . . . وَادِي الكَابَةِ وَالأنْسِينِ
وَأَهَابَ بِالحَيِّبِ الوَدِيحِ . . . فَوَدَّعَ العُشَّ الأَمِينِ
وَشَدَا يَلْحِنَ المَوْتِ فِي . . . الأَفُقِ الحَزِينِ المُسْتَكِينِ
ثُمَّ اغْتَفَى خَلْفَ اليَوْمِ . . . لِأَنَّهُ الطَّيْفَ الحَزِينِ

وفي قصيدة أخرى عنوانها " جدول الحب " يقترن الموت بالحب

أيضا :

قَدْ كَانَ لِي مَا بَيْنَ أَحْلَامِي الْجَمِيلَةِ جَدُّولٍ
يَجْرِي بِهِ مَاءُ الْمَحَبَّةِ طَاهِرًا، يَتَسَلَّسَلُ
تَسْمَى بِهِ الْأَمْوَاجُ بِاسْمَةِ كَأَحْلَامِ الصِّبَا،
بَيْضَاءَ نَاصِةً ضَحُوكًا مِثْلَ أَرْهَابِ السُّرَى
مَيَّاسَةً كَمَرَائِسِ الْفِرْدَوْسِ بَيْنَ حُقُولِيهِ
تَتَلَوُ أَنْشِيدَ الْمُنَى فِي مَسَدِهِ وَقَوْلِيهِ

كَيْدٌ كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِالْأَمْسِ بِالْأَمْسِ الْبَعِيدِ
وَالْأَمْسِ قَدْ جَسَفَتْهُ مَقَهْرًا يَدُ الْمَوْتِ الْعَتِيدِ

وكثير من قصائد الشابي عن الحب تعبر عن نفس المأساة : مأساة
اقتران الحب بالموت ، وذبول الزهور على يد الخريف القاسي الذي
يحمل اليها رياح العدم الصفراء فتقضي على كل ما فيها من علامات
الحياة .

ولكنه على رغم ذلك كله كما يشعر أن معنى الحياة الرئيسي هو الحب
بل ان الموت لا يصبح موتا إلا لأنه يقضي على الحب ، كأن الحب عند
الشاعر قد أصبح هو المعنى الوحيد للحياة ، أو كأنه مرادف لتكلمة
الحياة ، بل لكلمة الحياة ، وفي قصيدته الجميلة " أنا أليك للحب "
يقول الشاعر أبو القاسم الشابي :

لَسْتُ بِمَا أَمْسَى أَهْكَ لِمَجْدٍ أَوْ لِحَاةٍ
سَلَبْتَهُ مِنِّي الدُّنْيَا وَبَرَّتْني رِدَاةُ
فَأَنَا أَحْتَقِرُ الْمَجْدَ وَأَوْهَامَ الْحَيَاةِ
أَوْ لَعْمِيرٍ بَلَفَّتْ نَيْبُهُ اللَّيَالِي مِنْهُنَّاهُ
وَتَلَاشَتْ فِي خِصْمِ الزَّمَنِ الطَّاعِي قُبَاةُ
فَأَنَا مَا زِلْتُ فِي فِجْرٍ شَبَابِي أَوْ هُفَاةُ
أَمَّا أَهْكَ لِلْحُبِّ الَّذِي كَانَ بِهِنَّاهُ
يَسْأَلُ الدُّنْيَا فَنِي سِرَّتْ فِي الدُّنْيَا أَرَاهُ

ففقدان الحب هو المأساة التي يعاني منها الشابي ، والتي تحمل الى قلبه
وحياته ربح العدم وهي التي تجعله يبكي على الأمس والحياة .
وعند الشابي قصيدة تحمل معنى صورة جديدة للمرأة هي : المرأة الأم ، وهذه
القصيدة تعتبر من أجمل شعره بما فيها من صور حية ، وعاطفة حارة صادقة ، تلك

القصيدة هي " قلب الأم " ، وفيها يصور وفاة الأمومة وثبات عواطفها ، وعاطفة الأمومة هنا أيضا عاطفة حزينة مصدومة حزينة فقد مات الطفل ونسيه الصحاب الصغار ونسيته الطبيعة ، ولكن قلب الأم ما زال يذكره ، وما زال باقيا على حبه وحزنه والشاعر في هذه القصيدة يقول :

كُلُّ نَسْوِكَ وَلَمْ يَمُودُوا يَذْكُرُونَكَ فِي الْحَيَاةِ
وَالدَّهْرُ يَدْفِنُ فِي ظِلَامِ الْمَوْتِ حَتَّى الذِّكْرِيَّاتِ
إِلَّا فَوَادَا ظَلَّ يَخْفِقُ فِي الْوُجُودِ إِلَى لِقَاكَ
وَيُوَدُّ لَوْ بَدَلَ الْحَيَاةِ إِلَى النَّيَّةِ وَافْتِدَاكَ
فَإِذَا رَأَى طِفْلاً يَبْكُ ، وَإِنْ رَأَى شَبَحًا دَعَاكَ
يُضْفِي لِيصَوْتِكَ فِي الْوُجُودِ وَلَا يَرَى إِلَّا بِهَيَاكَ
يُضْفِي لَتَفْتِيكَ الْجَمِيلَةَ فِي خَرِيرِ السَّاقِيَّةِ
فِي رَنَّةِ الْمِزْمَارِ ، وَفِي لَفْسِ الطَّيْرِ الشَّادِيَّةِ
فِي ضَجَّةِ الْبَحْرِ الْمَجْلَلِ فِي هَدِيرِ الْعَاصِقِ
فِي شَهْمَةِ الْحَمَلِ ، الْوَدِيِّ وَفِي أَنَاشِيدِ الرَّعَاةِ
بَيْنَ الْمَرْجِ الْخَضِرِ وَالسَّفْحِ الْمَجَلَّلِ بِالنَّبَاتِ

ويستمر الشابي في الربط بين قلب الأم الحزينة وبين صور الطبيعة ومعانيها المختلفة حتى تصبح أحزان الأم متصلة بكل ما في الوجود ، نائمة فيه ، وبهذه الطريقة يرتفع قلب الأم في القصيدة حتى يصبح قلبا مقدسا ، شديد الرحابة والشمول ، عميق الانسانية بصورة لا يعرفها أي قلب بشري آخر .

هذه هي الرؤية عند الشابي في رأى " رجاء النقاش " وهذا هو الحب ، ان المرأة هي الملاك الحنون الذى يهبط من عالم الخيال السحري ليشفى الجراح ، ويحمل رقيق الوجود المقدس الى القلوب التى تبحث عن مأوى وتعلم بالدنف * وهذا هو الحب :
زهرة الأزهار ومعنى النئى في هذه الحياة ، أنه شئ مثالى شفاف لا يكاد يلمس الأرض بقدميه ، بل هو عال رفيع يطير فى السماء ، نقى صاف لم يتلوث بالتراب ، أو بتجارب الواقع ، وهو حب حزين على رغم ذلك لأن الموت مثل الثعبان الذى يختفى فى زوايا الحياة ليلدغ الزهور الجميلة ويقضى عليها وهى فى روعة شبابها السحري العميق . (١)

ويرى " حمدى محمد عبدالوهاب " :

" أن الشابي أول من قدس الفرائز ، وسما بها الى الجمال والاحساس به فى جميع أدوار حياته المختلفة من طفولة وصبا وشباب بل وشيخوخة ، لأن السدى

(١) : أبو القاسم الشابي - شاعر الحب والثورة ص ٣٩ - ٤٤ . الطبعة الأولى تموز

يعنى عن رؤية الجمال فى هذا العالم انسان ميت لا نصيب له من الحياه ويقول الشايب :

كلُّ شئٍ - الاك - حتى عطفوا . . . يؤنسُ الكونَ شوقُه ونشيدُه
فلماذا تعيشُ فى الكونِ يا صا . . . ح وما فيك من جننى يستفيدُه
ليست يا شيخُ للحياةِ بأهل . . . أنت داءٌ يبيدُها وتبيدُه
لنت قفرتُ جهنمى لعسرين . . . مظلمُ قالحٌ " مريعٌ " جموده

وهو على ذلك لا يهتم بجمالها الجسدى ، ولا يهتم بعفتها تلك الا بقدر ما تشف عنه من طهارة وشفافية ووضاءة للقلب ، فهو لم يكن يرى فى معالم الجمال فى الطبيعة والانسان الا نواحيها الانسانية الرفيعة ، فليست المرأة عنده الا ملاكا حنوناً هبط من السماء ليشفى الناس من الشر ويحرر قلوبهم من قيود المادة ، ويزيل عن ارواحهم ادران الفساد .

ولعل هذه النظرية الروحية التى دعا لها الشايب لم تكن تعنى عنده مجرد فكرة ذاتية فقط ، وانما تعنى أيضا ثورة اجتماعية ، ثورة على قيود المرأة فى المجتمع العربى وسواء كان الشايب يدعى هذا أم لا يدعى ، نستطيع أن نقول :

" أنه قد أدى بدعوته الروحية هذه للمرأة التونسية خاصة والمجتمع التونسى عامة خدمة انسانية جلييلة ، ولا شك أن تجريد المرأة من صورتها القديمة كجسد يشتبه فيه تحرير لها من قيود الحجاب . "

على أننا نرى للشايب نظرة أخرى بالنسبة للحب ، فهو لم يصور الحب الفزلى فقط وانما صوّر الحب فى شتى مناحيه : حب الأم لأبنائها ، وحب الانسان للطبيعة ، وغير ذلك من صور الحب المقدسه .

وهو حين يصور عاطفة الأمومة الزكية يوسع من نظرتة لهذا الحب ويظل يربط بينها وبين صور الطبيعة المختلفه ، فإذا بقلب الأم يتسع ويذوب فى صور الطبيعة حتى يصبح قلب الأم هو العالم بما رحب ، عميقا فى شموره قويا فى انفعاله الانسانى الرفيع ان يقول :

كلّ نسوكَ ولم يمو . . . دوا يُذكرونك فى الحياة
والدهرُ يدفينُ فى ظلام . . . م الصوتِ حتى الذكريات
الا فواداً ظلَّ يخ . . . يفيقُ فى الوجود الى لقاءك
فاذا رأى طفلاً بكى . . . ك وان رأى شبحاً دعاك

يصفى لصوتك فى الوجو . . . د ولا يرى الا بهيالك (١)

أما خليفة محمد التليسي فهو يرى :

أن الشايب عرف المرأة ، فقد تزوج وأنجب أطفالا ولكن الغموض يحيط بالطريقة التى تم بها الزواج ، ويستبعد التليسي أن يكون زواج الشايب مفروضاً

عليه لأنه بذلك " الشابي " يكون قد تنكّر لأسمى السبائى* التي عاش من أجلها .

ويستطرّد قائلاً :

ان الشابي على رغم زواجه - ظلّ يتشوّق في شعره الى الشال الذي يرضي طموحه ، ويشبع روحه . والشعر الذي قاله في المرأة - لانستطيع أن نعثر فيه على امرأة معينة ، لها شخصيتها وطبائعها وسزاياها التي تنفرد بها . أقول هذا وأنا على بينة من المذهب الذي اتبعه الشابي في شعره ، فقد أخذ على الشعراء القدامى سعيهم وراء الجسد ، واهمالهم الصفات التي تميّز امرأة عن أخرى ، ولو كانت هناك امرأة معينة تختفي وراء هذا القصيد ، لما صحّ أن تترك شعره دون أن تسميه بميسم خاص يستطيع معه القارىء التعرف الى شخصيتها بوضوح .

وشعر الشابي صادر عن نفس محرومة ، فلا يتنفس فيه إلا الشوق والحنين الى تلك التي تنقذه من جهالة أيامه ورتابتها المملة ، ولذلك أجدني مع القائلين بأنه كان يتفنى بالمرأة كمثل أعلى ، لا امرأة معينة وقصيدته الرائعة " صلوات في هيكل الحب " لاتصور امرأة بعينها قدر ما تصور نفسه ونزوعه الى الحب الجريء الطاهر ، الذي يرفع المرأة عن النظرة القديمة التي يراها الشابي " دنيئة ساقلة ، مضطّعة الى أقصى قرار من المادة ، ولا تفهم من المرأة إلا أنها جسد يشتهي ، ومثمة من متع العيش الدنيء " .

وكان حبه للمرأة ونظرته اليها من ذلك النوع الذي تختلط فيه العفة بالتصوف ، فاذا المرأة في منزلة العبادة ، ومصدر هذه النظرة عند الشابي حرمان فرضته البيئة والتقاليد التي حالت دون الانطلاق والتحرر فكان من ذلك هذا النغم الحزين ، وهذه الضراعة للحيبة حتى ترحم الشباب الأذوى ، والقلب المتهدم ، والشاعر الذي يسلك طريق الحياة ، كالشارد الهيمان ، فكانت صلاة الشابي في هيكل الحب ، وهي أرفع صلاة تُوجّه الى امرأة في أدبنا المرهني ، قديمه وحديثه ، لما تحفل به من ومضات انسانية رائعة ، وسموّ في النفس ، وارتفاع عن شوائب الجسد ، وبلا شك أن هذا التمجيد الذي نالته المرأة في شعر الشابي ، ليس سوى رد فعل على مجتمع لا يرى فيها ما يراه هو ببداهة الشاعر الفنان ، ومن المعاني السامية ، فأراد أن يكشف لهذا المجتمع عما في قلب هذه المخلوقة الضعيفة من عواطف رقيقة ، ومعاني نبيلة ، وقوة دافعة

وكان في تساميه ، مستجيبا الى النزعة الرومانسية التي كانت مشغولة بالقضايا الانسانية الكبرى ، منصرفا الى الحقائق والقيم الأخلاقية العليا ، عازفة عن التوافق المارضة الزائلة لايمانها بأنه :

غَيْرُ بَاقٍ فِي الْكَوْنِ إِلَّا جِصَالُ الرُّوحِ غَضًّا عَلَى الزَّمَانِ الْأَمِيرِ .

وذلك هو الجمال المنشود الذي كان يبحث عنه الشابي ، لذا تبلغ راعته " صلوات في هيكل الحب " حدا من الابداع تطفى معه على جميع ما قيل في تعجيد المرأة في الشعر العربي ، اذ تمتاز بهذا التسامي والتصوف ، ولا تغبأ إلا بالمعاني الروحية التي توحىها المرأة .

وبعث الحرارة التي تسرى في هذه القصيدة فشل الشاعر في تحقيق مثال المرأة المتى يريده في واقع الحياة فلا غناص له من أن يعيش في خياله مع المرأة التي أقامها الهبة ، يرتل في هيكلها المقدس تسابيح وصلوات الحرارة وصلوات فيها الضراعة والبكاء والحسرة على المجتمع الكافر بالقيم الرفيعة ، والمعاهد للرواسب البالية التي تنحر الشخصية الانسانية انه ينشد المثال الذي لم يوفره له المجتمع .

لقد سجل الشابي ، بهذه القصيدة ، اتجاها جديدا في الأدب العربي ، وخرج عن مألوف الشعر الذي كان يهتم بالمحاسن الجسدية (١) .

أما أبو القاسم محمد كروفيرو :

أن الشابي لم يكن موفقا في حياته الزوجية ، وأنه تزوج ارضاء لوالديه أو لأحدهما فقط . ويؤكد أن الشابي لم يجد في زوجته تلك الصورة الشعرية الرائعة التي كان يرسمها للمرأة في أشعاره ويتغنى بها في قصائده . لذا لذلك لم يلبث أن وقع في شرك حب عنيف ، قاده الى معاهد الفرام وحراب الهوى حيث رتل " صلواته في هيكله " وأحرق قلبه وعواطفه بخورا عند أقدام الحبيب .

على أن معنى أصدقاء الفقيد ينكر هذا الحب ، ويحاول تحليل ما قاله الشابي من شعر ونثر ، فإنه تمجيد لجنس المرأة وجمالها وفتنتها لا افتتان وحب لأمرأة بالذات ويشير بذلك الى محمد الحليوي صديق الشابي .

ويؤكد كروفيرو بأن الشابي أحب فتاة معينة ، وأنه شغف بهذا الحب

(١) : الشابي وجبران - خليفه محمد التليسي ص ١١٦ - ١٢٢ .

الى درجة العبادة والتقديس ، ولا يستطيع أحد قرا القصائد :
 " الساحرة " و " صلوات في هيكل الحب " و " أراك " و " تحت الفصون "
 و " الايمان بالحياة " و " جدول الحب " أن يقول انه كان يتغنى بالمرأة
 كجنس أو كمثل أعلى ، فنحن حين نستمع الى الشاعر وهو يردد :

أراكِ فتحلو لدى الحياة . . . وينلأ نفسي صباح الأمل
 وتتمو بصدري ورود عذاب . . . وتحنو على قلبي المشتعل
 ويفتنني فيك فيتي الحياة . . . وذاك الشاب الوديع الشميل
 ويفتنني سحر تلك الشفاء . . . تعرف من حولهن القبل
 فأعبد فيك جمال السماء . . . ورقة ورد الريح الخليل
 وطهر الثلوج وسحر المروج . . . موشحة بشمع الطفيل ؟

أو حين يقول :

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام . . . كاللحن كالصباح الجديد
 كالسما السحوك كالليلة القمراء . . . كالورد كابتسام الوليد
 أنت يا أنت ؟ أنت رسم جميل

عبرى من فن هذا الوجود

فيك ما فيه من غموض وعق . . . وجمال مقدس مقبوع
 أنت روح الربيع تختال فني الدنيا فتتهز رائمات الورد
 وتهب الحياة سكرى من الفطر

ويدوي الوجود بالفرير

كلما أبصرتك عيناي تشين

يخطو موقعا كالنشييد

خفق القلب للحياة ورف الزهر في حقل عري المجرور
 وانتشت روعي الكيبة بالحبيب

وغنيت كالبهليل الغريد

حين نستمع الى ذلك كله لا يمكننا أن نشك لحظة في أن هذا الشاعر
 انما قيل في امرأة معينة ، وان كما نجهل حقيقة هذه المرأة .

وان صوت هذه المرأة قد احدث في حياة الشابي وأدبه انقلابا
 بعيد الأثر متعدد الجوانب والصور ، ويمكننا أن ندرك هذا من
 مصادر مختلفة منها قصيدته " جدول الحب " وقصيدته " بين الأمس
 واليوم " التي يقول فيها :

بالأمس قد كانت حياتي كالسما الباسمة

واليوم قد أمست كأعماق الكهوف الواجِمَة

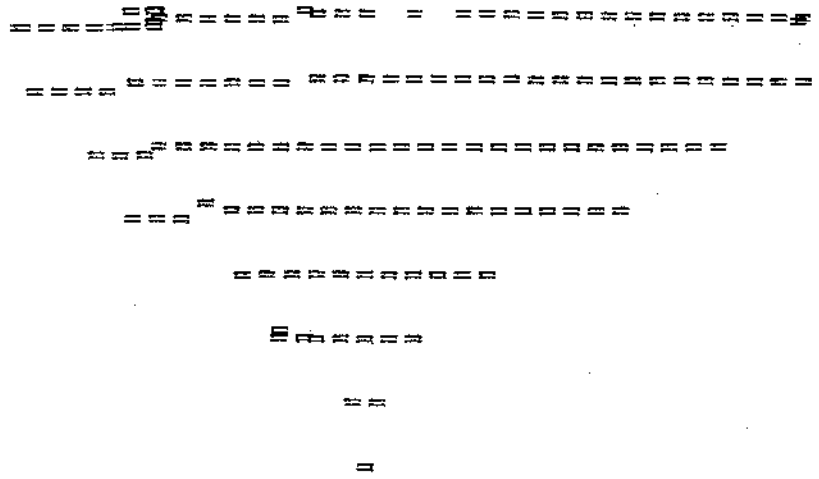
ويقول :

هو جَدُولٌ قد فَجَّرَتْ بُنْيَمَهُ فِي مَهْجَتِي
أَجْفَانُ فَاتِنَةٍ أَرْتَمِيهَا الْحَيَاةُ، لِشَقْوَتِي
أَجْفَانُ فَاتِنَةٍ، تَرَاءَتْ لِي عَلَى فَجْرِ الشَّبَابِ
كَمَرُوسَةٍ مِنْ غَانِيَاتِ الشَّعْرِ فِي شَفَقِ السَّحَابِ
ثُمَّ اخْتَفَتْ خَلْفَ السَّمَاءِ، وَرَاءَ هَاتِكِ الْغَيْسُومِ
حَيْثُ الْعَمْدَارِيُّ الْخَالِدَاتِ، يَمْسَنَ مَا بَيْنَ النُّجُومِ
ثُمَّ اخْتَفَتْ أَوَاهٍ! طَائِرَةٌ بِأَجْنِحَتِهَا أَسْرَ الْغَنُونِ
نَحَمَّوْا السَّمَاءَ، وَهِيَ أَنَا فِي الْأَرْضِ تَشَالُ الشُّجُونِ
قَدْ كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِالْأَمْسِ! بِالْأَمْسِ الْهَمِيدِ
وَالْأَمْسِ قَدْ جَرَفَتْهُ مَقَهْوَرًا، يَدُ الْمَوْتِ الْمَنِيدِ
قَدْ كَانَ ذَلِكَ، تَحْتَ ظِلِّ الْأَمْسِ، وَالْمَاغِي الْجَبِيلِ
قَدْ كَانَ ذَلِكَ فِي شُعَاعِ الْبَدْرِ، مِنْ قَلْبِ الْأُفُولِ
وَالْيَوْمِ إِذْ زَالَتْ ظِلَالُ الْأَمْسِ عَنْ زَهْرَى الْبَدِيدِ
وَتَجَلَّيَبَ الزَّهْرُ الْجَمِيلُ بِظِلْمَةِ اللَّيْلِ الْرُبِيعِ
ذَهَبَتْ مَرَاهِقُهُ، فَأَصْبَحَ ذَاوِيًا، لِضَوْوِ الْكَلَامِ
وَهَوَى لِأَنَّ اللَّيْلَ أَسْعَمَهُ أَنْشِيدَ النَّجُومِ

وأحسب أن هذا لا يترك مجالاً للشك في أن الشابي كان يحب امرأة من لحم ودم، لا مثلاً شعرياً في عالم الخيال، وأنه شفق إلى حد العبادة بمخلوق ناعم فاتن كقينوس ربة الجمال وأن هذه المرأة كانت حقيقة واقعة في حياة الشابي، وأنها كانت بارعة الحسن الحسن ذات فتنة هوجاء وأكثر من ذلك، وكانت تحبه حباً قوياً وتبادلته الفسرام في خلوات شمرية رائعة، ونجد لهذه الخلوات صداها القوي في شعر الشابي ووصفاً مطراً يلتهب بحرارة الحب ومار الهوى، ولعل خير ما يمثل هذه الخلوات قصيدته " تحت الفصون " و " الساهرة " إذ نجد فيهما وصفاً مفعماً بالصدق والحراوة للقاءات الشاعر مع حبيبته وتناجيهما المذب الحنون (١).

هذا وبعد أن عرضت وجهات النظر المختلفة التي تحدثت عن

حبه يثبت لدينا يقينا أن هذا الشاعر كان قلبه مفعما بالحنان
والانسنانية والتقلبات الماطفية ، ولا أستطيع أن أرحج هنا أي من هذه
الآراء في لأن ما كتبه وألفه الشاعر لم ينشر بمدّ ولكن يتضح لدينا
أنه أحبها صادقاً سولاً لأمرأة بعينها أو لجنس النساء عامة
أو أنة لفظة الأنثى مكنيا بها ووطنه تونس، تلك الأرض التي أحبها حتى
أغمص قدمه وأدمى قلبه هنزنا على ما أصابها من نكبات وويلات
وأهمها وأشدها ايلاما الاستعمار الذي انتشر فيها كالأخطبوط، لهذا
وجدنا أشعار الشابي الشائرة والتي سبق ذكرها في الباب الماغبي
تحضى الشعب صراحا على الثورة والتمرد وتحثه على النضال والحرية
حتى ترجع تونس للتونسيين .



حب والسده

=====

لقد أحب الشابي والده حبا عنيقا، ظهرت آثاره في تصرفاته وآثاره الشعرية منها والنثرية ، ولا غرو في ذلك فإن والد الشابي كان عالما فاضلا، رعى ابنه رعاية كبيرة وكان مؤيدا له في اتجاهه الأدبي وفي كفاحه المشرف أثناء معركة الإصلاح التي قام بها طلاب الزيتونة سنة ١٩٢٨م. منادين بجمل التلميم التقليدي عصريا متطورا وكان الشابي رائدا وقائدا له في هذه المعركة، ولمل من أفضل الشواهد على تأييد والده له ما ذكره الأستاذ أبو القاسم محمد كروّ قال :

”... لما قام الطلبة يطالبون بالإصلاح الريثوني كان الشابي أول رئيس للجنة الطلبة التي عقدت جلستها الأولى في الخامس من رجب سنة ١٣٤٧هـ، وهو الذي وضع برنامج أول عمل للمطالبة بالإصلاح. ولما وجهت لجنة الطلبة منشورا الى رجال الفكر والرأى المصيب في تونس تطلب منهم امدادها برأيهم في الإصلاح، كان أول جواب تلقته من والد أبو القاسم الشابي، الذي حرر تقريرا ضاقيا احتوى على نحو عشرين صفحة، ضمنه آراءه في الإصلاح، أردفه بمكتوب لطيف يعتذر فيه عن التقصير لكثرة أشغاله حيث كان قاضيا على زغوان” (١) من هنا نلاحظ أن مثل هذا الوالد الذي ترك آثاره واضحة على شخصية ابنه لا يبد أن يترك حبا عيقا في شخصية هذا الابن وفملا كان الشابي وفيأ لوالده ، وانا أخذنا برأى أبو القاسم محمد كروّ وعلنا الى تصديقه في موضوع زواج الشابي، فاننا نرى أن الشابي أتم زواجه بناء على رغبة والده على رغم أن الأطباء نصحوه بعدم الزواج، ويقول الأستاذ عمر فروخ في هذا :

”..... ويبدو أن الأطباء نصحوه بعدم الزواج ، ولكن خطوبته على ابنة عمه كانت قد تمت في حياة أبيه، لذلك لم يستطيع أن يلغي عملا أراد له أبوه لشدة حبه له وبه به” (٢)

(١) : الشابي - شعره وحياته - أبو القاسم محمد كروّ - ص ٥٧ - ٥٨.

(٢) : آثار الشابي وصداه في الشرق - أبو القاسم محمد كروّ - ص ١٤٣.

وعندما مرض الوالد مرض الموت سنة ١٩٢٩م، رافقه الابن الشاعر الى مسقط رأسه وسهر عليه في أيامه الأخيرة، وكانت ساعاته الأخيرة الاحتضار والآلم الأطفال وأحزانهم حول أبيهم من الدائمة الصيقة، التي عصرت قلب الشاعر وخياله ودموعه، ولم يتحدث عن شيء "بألم دام وحسرة مؤثرة عميقة قاتمة كما تحدث عن لحظات أبيه الأخيرة، وعن خيال الوالد الذي ظل يتراءى له بعد الموت مع أشباح الأعزاء المفقودين الآخرين، ولمعل خير ما يمثل هذه اللوعة القاسية وذلك التفجع الشك والأنين المر الذي يوضح ما ذهب اليه الشابي من حب عنيف لوالده، تلك الرسائل التي بعثها الى صديقه الأستاذ محمد الحليوي نقتطف منها :

".. انني أحاول أن أخط اليك ما تسه نفسي من مرارة الأوجاع وهموم الزمن الحائر، فلا أستطيع إلا مثل هذه الكلمات المتقطعة التي لا تكاد تبين عما أكابد من غصص العيش وبأسائه كما يساورني من الأفكار المدلهمّة كقطع الليل المظلم، لا أذكر أنه مرت علي فيما سلف أيام من عمرى أيام أنكد من هذه الأيام أو أشد.

في الصباح أجلس الى أبي الذي أنهكه المرض وأضناه وأرخصه المرض وأذواه، وطزفي الى وجهه الشاحب العليل والى جفنه المذاهل الذي أذبله الألم وأذوته الحمى والى جسده النثمد السواهن، وسمعي الى نفس المتقطع وتأوهات المثابمة، وعهدى به ذلك الرجل الجليد فما أراه كذلك إلا وتملاً نفسي الزفرات وتملاً عيني العبرات وتنطلق من قلبي الشوم وصدري المكوم، أنات القهر ودعوات الرجاء، والى اله الحياة والموت وباسط النور والظلمات أن يشفي هذا الأب السواعي الطريح وأن يشفق على صبيته الضفار الذين سا زالوا واقفين بباب الحياة... ومن حين لآخر يوقع والدى بصره اللى فلا يسترجعه إلا مترعاً بالدمع أو مخضلاً بالعبرات" (١)

ولعل في السطور القليلة الساخية خير دليل على هذا الحب الذي لا يساويه ولا يعدله حب، فلقد ذرفت عيناه الدموع ودموع الرجال عزيزة، ولقد تفر منه الكبد ولا يكون ذلك إلا على عزيز، وعمل هناك

أغز من الأب الحاني المطوف، خصوصا اذا كان كآب الشابي الذي
بذل قصارى جهده في سبيل بناء ابنه وتوجيهه.

واذا كانت نفسه تفيض أحيانا بالأسى والحزن، وكأنه يريد أن
ينطق معبرا عن هذا الألم، إلا أن شعره أيضا لا يخلو من الحزن والأسى
حتى أننا لنجد قصيدة قالها الشابي في رثاء والده وعلى الرغم
أنه لا يجهد هذا الفن ولا تماطاه، وهي قصيدة حزينة متوسطة في
فنها، بل هي أقرب إلى النواح والنسيب الساذج من أي رثاء قوى
رصين، وقد مهد لها بقوله :

" هي صرخة من صرخات نفسي الملوثة بالأحزان والذكريات
وشظية من شظايا هذا القلب المحطم على صخور الحياة، قلتها في
أيام الأسى التي تلت نكباتي بوفاء الوالد رحمه الله تعالى" (١)
ولعل الشابي بهذه المقدمة أراد أن يعتذر عن مستوى القصيدة
الذي لم يبلغ المستوى الذي وصلت إليه روائعه، ويقول من قصيدته :

يا موتُ قد مَزَّقْتَ صَدْرِي . . . وَقَصَّمتَ بالأرزاءِ ظَهْرِي
ورَمَيْتَنِي من حَسْبِ البِقِ . . . وَسَخَّرْتَ مِنِّي أَيَّ سَخَرِ
ويقول منها أيضا :

وَفَجَّعْتَنِي فَمِنْ أَهْمِ البُ . . . وَمَنْ إِلَيْهِ أَبْتُ سِرِّي
وَأَعْدَةُ فَجَرَى الجَمِيلِ . . . إِذَا مَا ادْلَهَمَ عَلَيَّ دَهْرِي
وَأَعْدَةُ وَرَدِي، وَمَزْمَارِي وكَاسَاتِي وَخَمْرِي
وَأَعْبُدُهُ غَايِي وَمَجْرَابِي، وَأَغْنِيَتِي، وَفَجْرِي
وَرَزَاتِنِي فِي عَمْدَتِي، وَمَشْوَرَتِي فِي كُلِّ أَمْرِي
وَهَدَمْتَ صرْحًا لَأَلْوَدُ بِغَيْرِهِ، وَهتَكَتْ سِيْرَتِي
ويقول منها أيضا :

وَفَقَدْتُ كَهَاءَ فِي الحَيَاةِ . . . يَمْدُ عَلَيَّ كُلَّ شَرِّ
وَفَقَدْتُ ركنِي فِي الحَيَاةِ، . . . وَرَأْيَتِي وَعَمَادَ قَصْرِي.

ويتصور الشاعر الموت عدوا لدودا لا يستطيع إهماد شبحه عنه ولا
مقاومته، لذا نراه يوجه إليه حديثا صريحا لتصفية الحساب بينه
وبينه فيقول :

يا موتُ ماذا تبتغي . . . مِنِّي وَقَدْ مَزَّقْتَ صَدْرِي؟

(١) الشابي حياته وشعره - أبو القاسم محمد كروصي ٠٦٦

الى أن يقول :

ان كنت نذ تطلبني فهات الكأس، أشربها بصبر
أو كنت ترقبني فهات السهم، أرشقه بنحرى
خُذْنِي إِلَيْكَ فَقَدْ تَبَخَّرَ فِي فَضَاءِ الْهَيْمِ عُمْرِي

الى أن يقول :

خُذْنِي إِلَيْكَ! فَقَدْ ظَمِئْتُ لَكَ الْكَيْدَ، الْأَمِيرَ
خُذْنِي فَقَدْ أَصْحَبْتُ أَرْقَبَ فِي فَضَاكَ الْجَوْنَ فَجْرِي
خُذْنِي، فَمَا أَشْقَى الَّذِي يُقْضَى الْحَيَاةَ بِمِثْلِ أَمْرِي

الى أن يقول :

يا موت! نفسي لت الدنيا، فهل لم يأت دورى؟ (١)

لاشك في أن الشابي في أبياته هذه وصل الى درجة اليأس من الحياة، وذلك لمظم المصيبة التي أصابته بسوت والده، والحق أن المصيبة لا تكون عظيمة إلا اذا كان حب الشابي لوالده عظيما، وبفقدته يصاب بالأم الجلل وهو ما أشارت اليه الأبيات السابقة، ولقد عبرت خير تعبير عن الشاعر لوالده، انطلقت بصورة تصرفه وقد فقد السيطرة على نفسه وعقله وقلبه .

=====

=====

=====

=====

=====

=====

(١) : الديوان - ص ٢٣٤، ومورخة بتاريخ ٢٦ / من ربيع الثاني / سنة ١٣٤٨ هـ
غرة أكتوبر (تشرين أول) سنة ١٩٢٩ م.

حب الحياة

=====

لم يكن الشابي يوماً سوى شاعر الحياة، عاش شاباً ومات شاباً
لم تهرم نفسه قط ولو هصرم بدنه، هتي كان بالرغم من ظلمات الليل
ينبغي الحياة، وكان الشابي أول من اشتهر بالتشاؤم، فهو في نظره
ضرب من البهتان الزائف وهو يملن الحرب على الجمود والخمود، لأنه
يريد الحياة بكل معانيها من تجدد وازدهار - وطموح وأمل وعزيمة
وبناء.:

مَا كُنْتُ أَحْسَبُ بِمَبْدَعِ نَبِيِّكَ يَا أَبِي
وَمَشَاعِرِي عَمِيَاءُ بِالْأَحْزَانِ
أَنْي سَأُظْمَأُ لِلْحَيَاةِ وَأُحْتَسِي
مَنْ نَهَرَهَا التَّوَهُجِ النَّشْوَانِ
وَأَعُودُ لِلدُّنْيَا بِقَلْبٍ خَافِيٍّ
لِلْحُبِّ وَالْأَفْرَاحِ وَالْأَلْحَانِ
وَإِذَا التَّشَاؤْمُ بِالْحَيَاةِ وَرَفَّيْهَا
ضَرَبَ مِنَ الْبُهْتَانِ وَالْبُهْدِيَانِ
أَنْ أَيْسَنَ آدَمَ فِي قَرَارَةِ نَفْسِي
عَبْدُ الْحَيَاةِ الصَّادِقِ الْإِيْمَانِ

فالشابي شاعر الحياة بكل معانيها، وظل الى آخر عمره عابداً
للحياة متشوقاً لها، عدواً لدوداً للموت والخمود والجمود والجهل والظلم
سمى ديوانه " أغاني الحياة " وجاءت ألقاظه كلها ألفاظاً هيبة
بل ان لفظة الحياة نفسها جاءت في أول بيت اختاره لديوانه :
ضُمَّعَ الدَّهْرِ مُجَدِّدَ شِعْبِي وَلَكِنْ
سَتَرْتُ الْحَيَاةَ يَوْمًا وَشَاحَهُ

ولعل من علامات الحياة في شعره كل هذه الأفكار التي تشمل
فلسفة متكاملة، كلها عن ارادة القوى والبقاء، فالأصلح والكفاح في
سبيل الوصول الى الأهداف (١) .
وهو وان يكن رقيق الحياة يثله، إلا أنه لا يخلو من لهفة لتصرف
كبه تلك الحياة، ففيه حنين الى المجهول وتطلع الى المفلق، ومن تلك

(١) : الشابي شاعر الخضراء - حمدي عبد الوهاب ص ١٤١ - ١٤٢ .

الأفاق البعيدة بحس بالوحدة ، وقد تغلّف عمامة البشر عن التحليق
في تلك الأفاق ومن هنا نشأت في قصيدته " الأشواق التائهة "
ان يقول :

يا صمِّمَ الحياة اني وهيدٌ . .
مُدْلِجٌ تَائِهَةٌ فَأَيْنَ شَرُوقَكَ
يا صمِّمَ الحياة اني فوَادٌ
ضَائِعٌ طَائِيٌّ فَأَيْنَ رَحِيْقَكَ

ولكن الشاعر لا تطول لهفته ولا يضل سبيله ، فقد اهتدى الى صميم
الحياة التي كان ينشده ، أو على الأصح أحس به أعقق الاحساس على
غير وعي منه ولا تفكير ، وكان هذا الاحساس أقوى من كل وعي وأغنى
من كل تفكير ، وما هو إلا الحرية والانطلاق ، وقد تغنى بهذه الحرية
وذلك الانطلاق حيث قال في قصيدته " أعباني الرعاه " :

أقبل الصُّبحُ يُفَنِّي للحياة الناعسة
والرُّبى تحلَّم في ظلِّ الفُصونِ المائسة
الصبا تُرقِّعُ أوراقَ الزُّهورِ الهائسة
وتهدأى النُّورُ في تلك الفِجاجِ الدائسة
وكان من الطبيعي أن تسكن أشواقه التائهة وتتخاص من
نار اللهفة ، ووقوده التطلع الى سر الحياة المجهول ، فيصبح مع الصباح
الجديد قائلاً :

اسكني يا جراحٌ . . واسكني يا شجون
ملت عهدُ الشُّواحِ . . وزمانُ الجنونِ
وأطلَّ الصُّباحُ . . طينَ وراءَ القُـرُونِ
ان سِحْرَ الحِياةِ . . هالِكٌ لا يَزولُ

ان هذه الروح العالية المتفائلة ، هي التي تجعل من الشابي
أحد شمراء الحياة الذين لا يعرفون اليأس ، ولا تفتت في عضدهم
الأيام والليالي ، وهو لا يصدر عن هذه الروح العالية في حياته الخاصة
فحسب ، بل يتخذ منها نبراساً لحياة قومه ، وكما يطلب الحرية
لأنفاسه وأحلامه نراه يطلبها لوطنه ، ويؤمن بأنه لا بد واصل اليها
وهو القائل في قصيدته " ارادة الحياة " :

اذا الشعبُ يوماً أرادَ الحياةَ
فلا بُدَّ أن يستجيبَ القَدَرُ

ولا يَدُّ لِلَّيْلِ أَنْ يَنْجَلِيَ

وَلَا يَدُّ لِلْقَهْدِ أَنْ يَنْكَسِرَ

بل انه ليحرر كل الحرير على أن يؤمن الشعب برسالته ، ويثبته
ألا يسارع ذلك الشعب الى الاستجابة لندائه ، وقد أنسته حرارة
الايان وحساسية الشمر أنه راشد يشق افاقا جديدة ، ويدعو الى
فجاج غير مطروقة ، فيحز في نفسه الألم ويتردد هذا الألم في
قصيدته "النبي المجهول"

في صباح الحياة ، ضَمَخْتُ أَكْوَابِي

وَأَثَرَتْهَا بِخِمْرَةِ نَفْسِي

ثُمَّ قَدَمْتُهَا إِلَيْكَ ، فَأَهْرَقْتِ

رحيقي ودُسَّتْ يَا شَمْبَ كَأْسِيَا (١)

وما لاشك فيه أن الخوف من شقاء الحياة أصيل في شمر الشابي
فليس في وجوه الحياة غير الأغوار والكهوف ، والظلام والخاب والدموع
فيقول الشابي في هذا :

صَاحِ انِ الْحَيَاةَ أَنْشُودَةَ الْحُزِّ

نِ فَرْتِلْ عَلَى الْحَيَاةِ نَحْيِي

ان كَأْسَ الْحَيَاةِ مِزْعَةٌ بِالدَّمِّ

سِعِ فَأَسْكُبُ عَلَى الصَّاحِ حَبِيبي ؟

ان وادي الظلام يطفح بالهـو

لِذَا أهدأ ابتسام القلبوب

لا يُفَرِّقُكَ ابْتِسَامُ بَنِي الأَر

في فخلف الشماع لَدَعُ اللهب

قَدْ سَأَلْتُ الْحَيَاةَ عَنِ نَفْثَةِ الفَجْرِ

وعنَّ وَجْهَةَ السَّاءِ القَطْبُوبِ

فَسَمَّيْتُ الْحَيَاةَ فِي هَيْكَلِ الأَح

سزان تشدو بلحنها المحبوب

ما سكوت السناء إلا وَجْهٌ

ما نشيد الصباح إلا نحيب

ليس في الدهر طائر يتفنى

في صفاف الحياة غير كئيب

(١) بإشار الشابي وصداه في الشرق - أبو القاسم محمد كروم ٢٠٧ -
٢٠٨ من مقال للدكتور محمد مندور .

ويستمر الشابي في رؤية الشقاء والكآبة في الحياة ولو تبدت الحياة
له بزينتها وضحكت له في كل مظهر من مظاهرها ، ان الشابي
يمتدح بذلك ثم يقول انه وحده بائس ، بينما كل شيء حوله جميل
راه طروب عجيب ان يقول :

ما للمياهِ نقيّةٌ

حولي وينبوعي مشوباً

ما للضباحِ يعودُ للبد

نيسا وصحبي لا يؤوب ؟

سالي يضيّقُ بي الوجوه

دء ، وكل ما حولي رهيب ؟

سالي شقيتُ شكوكي ما

في الكونِ أخنأ عجباً ؟

ان الوجودُ الرعبُ والـ

فباباتُ والأفقُ الخضيبُ

لم تخبُ أشواقُ الحياةِ

بها ففادَ رها القطوب ،

أما أنا ففقدتُها

والليلُ مرّ بدم رهيب

مهما تضاحكت الحياةُ

فانني أبداً كهيبتُ

أصفي لأوجاعِ الكآبةِ

بّة ، والكآبةُ لا تجيبُ

في مهجتي تتأوهُ الـ

بلى ويختلجُ النحيبُ

ويضيغُ جبارُ الأسى

وتجيشُ أمواجُ الكروب

انني أنا الريحُ الذي

سيظلُ في الدنيا غريباً

ويرى الشابي قلة الجدوى من هذه الكآبة وهذا التشاؤم فيريد
نا أن نفتح عيوننا على جمال الحياة ، فيجرد من نفسه شخصاً يخطئه

بقصيدته "يا ابن أمي" ويقرعه على تضافله عن جمال الحياة فهو
يقول :

خَلَقْتَ طَلِيقًا كَطِيفِ النَّسِيمِ
وَحُرًّا كَنُورِ الضُّحَى فِي سَمَاءِ
تَفَرَّدَ كَالطَّيْرِ لَمَّا انْدَفَعَتْ
وَتَشَدُّو بِمَا شَاءَ وَحَيُّ الْإِلَهِ
وَتَمَرُّحُ بَيْنَ وَرُودِ الصَّبَاحِ
وَتَنَمُّمٌ بِالنُّورِ أَنْتَى تَرَاهُ
وَتَمَشِي كَمَا شِئْتَ بَيْنَ الْعُرُوجِ
وَتَقْطِفُ وَرْدَ الرُّبَا فِي رَبَاهُ
كَذَا صَاغَكَ اللَّهُ يَا ابْنَ الْوُجُودِ
وَأَلْقَتَكَ فِي الْكُونِ هَذَى الْحَيَاةِ
فَمَا لَكَ تَرْضَى بِذِلِّ الْقِيُودِ
وَتَحْنِي لِمَنْ كَبُوكَ الْجِبَالُ؟
وَتَطْبِقُ أَجْفَانَكَ النَّيِّرَاتِ
عَنِ الْفَجْرِ، وَالْفَجْرِ عَذْبُ ضِيَاهِ
أَتَخْشَى نَشِيدَ السَّمَاءِ الْجَمِيلِ؟
أَتُرْهَبُ نُورَ الْفَضَا فِي ضَمَاهِ؟
أَلَا انْهَضِي وَسِرِّي فِي سَهْلِ الْحَيَاةِ

فَمَنْ نَامَ لَمْ تَنْتَظِرْهُ الْحَيَاةُ ! (١)

وقبل أن نختم هذا الفصل نعتف أن الشابي كان يحب الحياة انسانا
ويتذوقها شاعرا والآن لما حزن على تسلبها بالمرض، ولكن حبه هذا
للحياة أقرب إلى أن ينورته الأسى عليها وهي تغيث من أن يشيع فيه
"التفائل" لقد كان المسكين زكيا، يرى ويحس الغروب يتعجله، وما
نعم بشعشمة الفجر أو ألق الضحى .

=====

=====

=====

=====

=====

حب الطبيعة

=====

لقد احتلت الطبيعة في شعر الشابي مكانة مهمة بارزة ، إنها الأم الحانية ، والولجاء الأول والأخير ، وقد كان الشابي بحاجة الى أم تحنو عليه ولجاءاً يأويه ، وذلك لأنه كان على خلاف حاد مع الحياة الواقعية وكان يعيش في خصومة عميقة مع المجتمع ، وكان طموحها الى حياة أكثر حرارة ويقظة بين جميع أبناء شعبه ، وكان فوق ذلك كله مريض بمرض القلب ، يزحف الموت اليه لحظة بعد لحظة ، وكان يحس بأن رغبته في الحياة مهددة دائماً بقوة الموت الزاحف اليه ، كل هذه الأسباب جعلته حزينا ، ودفعته الى عالم يذوب فيه بشخصه وأحاسيسه وأفكاره ، فيخفف عنه ، ويرفعه الى شعور جديد بحيث يجد في الألم لذة ، وفي متاعب الحياة اليومية شيئا صغيرا يتخائل أمام الشمور السامي الذي يعيش فيه .

وفي الطبيعة وجد الشابي عالمه الجميل النقي ، وفي قصيدته " النبي المجهول " يمبر الشابي عن أزمته مع شعبه ، حيث لا يفهمه الشعب ، ولا يستجيب لأفكاره وآرائه التي تهدف الى تحريره المعنوي والمادي عندما تصل به الأزمة الى أعلى درجاتها ، لا يجد لرجاء سوى الطبيعة المظلمة ومظاهرها المختلفة كما يقول في قصيدته " النبي المجهول " التي أشرنا اليها من قبل :

انني ناهيتُ الى الفأبِ يا شعبي

لأقضي الحياة وحدي بيأسٍ سي

وعندما تنتهي حياته ويموت ، فهو يفضل الموت في الفأب بما فيه من طيور وأشجار أحنى عليه من الناس ان يقول :

تَمُّ تحت الصنوبر الحُسلو

تَخَطُّ السيلو حُفرة رَمسي

وتظلُّ الطيور تلقوا على قبي

ويشدو النسيم فوقي بهمس

وتظلُّ الفصولُ تمشي حوالي

كما كنَّ في غصارة أُمسي

والشابي يجدت خلاصه في الطبيعة ، ولذلك يعيش بخياله وحواسه
ومشاعره كلها في الطبيعة ، ويستمد صوره الغنيه من الطبيعة قبل أن
يستمدها من أي شيء آخر ، والطبيعة عند الشابي غير مطلق
وجمال مطلق ، وكأنه بهذا الاحساس نمو الطبيعة يجعل منها عالمه
" المشابي " الكامل الذي يعوزه عن العالم الواقعي الناقص المليء
بتالشق والحب والحزن ، فإذا كان قد فقد الأصدقاء فإنه سوف يجد
الصدقة والفهم عند الطيور ويمبر عن ذلك قائلاً :

سوف أتلو على الطيور أناشيدى

وأفني لها بأشواق نفسي

فهي تدرى معنى الحياة وتدرى

أن مجرد النفوس يقظة حسي

فإن الطيور عنده تدرى معنى الحياة الذي لا يدرية أبناء مجتمعه ويقظة
الاحساس التي تفهمها الطيور لا يفهمها بنو البشر الذين يعيشون من
هولته ، إن يقظة الاحساس عند الشابي هي جوهر الحياة .
وهكذا فكل المعاني التي فقدتها مع الناس وجدتها في الطبيعة :
الصدقة والفهم والحب والجمال ، إن الطبيعة هي عالمه المشابي الذي
يرد به على نقى الحياة الاجتماعية وقصورها عن الوصول الى الكمال .
على أن أهم ظاهره في شعر الطبيعة عند الشابي أنه أعطى
للطبيعة " معنى انسانياً " وهذه الظاهرة لا ينفرد بها الشابي فهي
تتكرر عند كبار الشعراء الذين عبروا عن الطبيعة أو صوروها في
شعرهم ، ولقد كان الشابي واحداً منهم ، لم يكن يحب الطبيعة المجردة
ولم يكن يجد فيها جمالا خاصا مستقلا عن الانسان ، بل إن كل
جمال في الطبيعة يستمد وجوده من " معنى الانساني " ، وهذه
الظاهرة تثبت أن الشابي كان يبحث في الطبيعة عن الجمال والكمال
الفقودين في المجتمع والحياة الانسانية التي يعيشها ، فقد اقتنع
بخياله واحساسه أن الطبيعة " مجتمع " آخر متناسق يقوم على أساس
من نفس المشاعر التي تقوم عليها الحياة الانسانية ، والطبيعة هنا
تنطق بلسان الشابي وتقول كل ما آمن به من أفكار ، وكل ما امتلأ
به قلبه من عواطف وأحاسيس ، فالهيبية في قصيدته " طيوات في
هيكل الحب " عذبة كالورد ، كالصياح الجديد ، كالسما الضموك ،

كالليلة القمراء ، وفي نفس القصيدة يخاطب الشابي عبيته بمثل هذه الصور المستمدة من الطبيعة أيضا :

" أنت فجر من السحر " ، " أنت روح الربيع " ، كلها صور مستمدة من الطبيعة ، ولكن : وضوح عاطفة انسانية وجمال انساني لتوضيح عاطفة الحب وجمال المرأة المحبوبة .

وفي قصيدته " قلب الأم " عندما يصوت الطفل تذوب روحه في كل مظاهر الطبيعة ، وتظهر الأم المحزونة هنا وهناك ، فترى صورة ابنها وصوت ابنها ترى هذا كله لأن ابنها لم يدفن في قبر بل انساب في الأزهار والأشجار وأصوات الطيور ، فهو يقول :

ويراك في صور الطبيعة : حلوها وديمها
وهزيناها وبهيجها ، وحقيرها وعظيما
في رقة الفجر الوديح ، وفي الليالي الحاله
في فتحة الشفق البديع وفي النجوم الباسمه
في رقص أمواج البحيرة تحت أضواء النجوم
في سحر أزهار الربيع ، وفي تهاويل الفسوم .

وهكذا ترتبط الطبيعة بعاطفة الأم نحو ابنها ، وبذلك تأخذ الطبيعة معنى انسانيا واضحا ، وفي الوقت نفسه تصبح عاطفة الأم ثابتة خالدة مثل مظاهر الطبيعة نفسها .

وفي قصيدة " ارادة الحياة " ينادى الشابي الشعب ويدعوه الى اليقظة والثورة ، ثم يجعل الطبيعة تنطق بأفكاره فيقول على لسان الريح :

ودمدمة الريح بين الفجاج
وفوق الجبال وتحت الشجر :
" اذا ما طمحت الى غايقة
ركبت المني ، ونسيت الحذر " .
" ولم أتجنب وعمور الشهاب
ولا كبتة اللهب المستعمر " .
" ومن لا يحب صفود الجبال
يمش ، أبدا الدهرين الحفر " .

فالريح تدعو الى الثورة وتحشد للناس طريق الثورة الذي هو طريق الخطر ونسيان الحذر وخوض اللهب ، وفي نفس القصيدة يصور الشابي الأرض في حالة شوق وطمأ الى الحياة ثم يأتي " الربيع "

فتفجر الكائنات ، وينشق الستار ، عن كثير من مظاهر الحياة ، وكأن الربيع الذي ملأ الأرض هو الثورة التي يدعو اليها الشباب مجتمعهم ، ليتحرر هذا المجتمع من جديده ويصبح مجتمعاً خصباً مليئاً بظواهر الحياة ، مثل الأرض في الربيع .

ان يقول : الربيع للحياة في نداء حار جميل يوجهه الى الأرض :

" اليك الفضاء ، اليك الضياء ،

اليك الثرى الحالم ، المزدهراً ! "

اليك الجمال الذي لا يبيد !

اليك الوجود الرحيب ، النضراً ! "

" فيهدى - كما شئت - فوق الحقول ،

بخلو الثمار وغنى الزهراء "

" وناجي النسيم ، وناجي الفيوم ،

و نا جي القمر "

" و نا جي الحياة وأشواقها ،

وفتحة هذا الوجود الأغر "

وتستجيب الأرض لثورة الربيع ، وهي الثورة التي يمتنى الشباب أن يتعلم منها المجتمع ، انه درس تلقيه الطبيعة على الحياة الانسانية ، وعلى الناس أن يتعلموا معنى الثورة من الأرض والربيع من الطبيعة .

هناك قصيدة أخرى للشابي تعتبر من أهم قصائده هي قصيدة " الجنة الضائعة " وتلك هي جنة طفولته التي كانت مليئة بالبراءة والمذوبة والتي أضاعتها الحيطة وسلبتها منه ، وهو يرسم سعادة الطفولة في تلك الملاحظات القوية بين الطفولة والطبيعة ، فالطفولة فطرة نقية والطبيعة فطرة نقية ، وهما مثال خالص للجمال ،

انه يذكر هذه الطفولة بقوله :

أيام كانت للحياة حلاوةُ الروضِ المطيرِ

وطهارةُ الموجِ الجميلِ وسحرَ شاطئه المنيرِ

وودعةُ المصفورِ بينَ جداولِ الماءِ النعيرِ

أيام لم نعرف من الدنيا سوى مَرَحِ السرورِ

وتتبع النحلِ الأنيقِ وقطيفِ تيجانِ الزهورِ

وتسلق الجبلِ المكملِ بالصنوبرِ والمخورِ

وبناءً أكواخِ الطفولةِ تحت أعشاشِ الطيورِ

مَسْقُوفَةٌ بِالرَّوْدِ ، وَالْأَعْيَابِ ، وَالرَّوْقِ النَّصِيرِ
نَبْنِي فَتَهْدِيهِمُ الرِّيَاحُ ، فَلَا نَضِجُ وَلَا نَشُورُ
وَنَعُودُ نَشْهَكَ لِلْمَرْوَجِ ، وَلِلزَّنَابِقِ ، وَالْفَسْدِيرِ

وتضيق منه جنته ويقابل الحياة المملية الشاقة ، فتسحق أحلامه ،
ويكتشف أن طبيعة الانسان ليست هي الخير المطلق ، بل هي مزيج
من الخير والشر ، وتصدمه هذه الحقيقة ، فقد كان يتصور أن صورة الحياة
والانسان التي أحسها في طفولته ، هي الصورة الواقعية التي سيقابلها
بمد ذلك في مراحل الحياة المختلفة ، ولكن صورة الطفولة كانت على
المكس حلما وخيالا بلا رصيد في دنيا الواقع ، وكانت النتيجة هي
الصدمة النفسانية التي أخذ يعاني منها حتى مات ، لقد ضاعت جنته
وهو اليوم يعيش في الجحيم ان يقول :

واليوم أحيَا سرعَى الأعصابِ ، مشوبَ الشمورِ
متأججِ الاحساسِ ، أحفل بالعظيمِ والحقيرِ
تمشي على قلبي الحياةُ ، وهزها الكونُ الكبيرُ
هذا مصيري ، يا بني الدنيا ، فما أشقى المصيرِ !

وللشابي قصيدة أخرى تعتبر من قصائده المهمة أيضا هي " من أغاني
الرعاة " وفي هذه القصيدة يخني للطبيعة بنفس الطريقة ، فهو يضي عليها
طابعا انسانيًا ، فالراعي يعيش مع خرافه في عالم مثالي ، أو
مدينة فاضلة ، انه يعيش في الدنيا الجميلة التي لم يجدها
الشابي في عالم الواقع ، ان الراعي يقول لخرافه :

لئن تُلَيَّي يَسَا خِرَافِي ،
فِي حِمَى الْغَابِ الظَّلِيلِ
فَزَمَانُ الْغَابِ طِفْلٌ ،
لَاعِبٌ ، عَذْبٌ ، جَمِيلٌ
وَزَمَانُ النَّاسِ شَيْخٌ ،
عَابِسٌ الْوَجْهِ ، ثَقِيلٌ
يَتَمَشَّى فِي مَلَالِ
فَوْقَ هَاتِيكَ السُّهُولِ

هذه هي المقارنة الأساسية الداعمة التي يحقدها الشابي بين حياة
واقعية ، وبين حياة الطبيعة ، فعالم الناس أو زمانهم " شيخ عابس
لوجه ثقيل " أما عالم الطبيعة فهو " طفل لاعب ، عذب ، جميل " ،
لذلك ، هو يختار الطبيعة ويمطيها كل حبه وإيمانه ، وينصرف عن عالم

الناس ساخطا عليه ، غير راخي ولا مقتنع به . (١)

ولما كان الشابي معني النفس بالآمه والآم شعبه معا ، شعبه الذي يصرخ فيه فتسمع صرخته في الفضاء ، فهو يريد أن يتناسى هذا الواقع الحالك ، فيرتمي في أحضان الطبيعة الروم على صدرها ، يهدد أساه فتحلوه له حبة أطفالها :

الجدول ، والنهر ، والنجوم ، والباليل ، والغياب ، والفجر ، والضياء ، والصدى ، والطل ، والنسيم ، ان الانسان ابن الطبيعة البكر ، وهو أدنى الى قلبها من هؤلاء جميعا ، لأنه أشد بها علوقا وأكثر لها تمجيدا ، ان يقول :

ليت لي أن أعيشَ في هذه الدُّنيا سعيداً بوحدي وانفرادي
أصرف العمرَ في الجبالِ وفي الضبابِ بين الصنوبر الميسرِ
وأغني معَ البلاليلِ في الضبابِ ، وأصغي الى خريرِ السوادي
وأناجي النجومَ ، والفجرَ ، والأحيطارَ والنهرَ ، والضياءَ الهادي
عيشاً للجمالِ ، والفنِّ ، أُنفيها بعيداً عن أمّتي وبِإلادي
لا أعني نفسي بأهزانِ شعبي فهو هي ، يعيش عيشَ الجباد
وبعيداً عن المدينة والناسِ ، بعيداً عن لغوتِكَ النوادي
وفي الطبيعة وأغص بالذكر هنا الغياب ، تقتضي هسومه ، وتخفف من
أهزانه ، ونسي الناس وحبائلهم وسخافاتهم في كل شيء ، وتطهر
كأنه ولد من جديد ، تفتح للحياة والضوء والنسيم ، تفتح للخيال
والشمران يقول :

في الضبابِ في الغابِ الحبيبِ وانته
حسرم الطبيعة والجمالِ السامي
طهرت في نارِ الجمالِ مشاعري
ولقيت في دنيا الخيالِ سلامي
ونسيت دنيا الناسِ ، فهي سخافة
سكّرت من الأوهامِ والآثامِ
وقبست من عطفِ الوجودِ وحبّيه
وجمّاله تمسأ ، أنشاء ظلامي
فرأيت ألوانَ الحياةِ نضيرة
كنشارة الزهرِ الجميلِ النامي

ووجدت سِخْرَ الكونِ أسىً عنصراً
وأجلّ من حُزّني، ومن الآمي
فأهْبُّ - مسحور المشاعرِ، حالماً

نشوان - بالقلبِ الكئيبِ الدامي
" المهدُّ الحيُّ القدُّسُ ها هنا

يا كاهن الأحرّان، والالام
فاخلعْ مَسْوَحَ الحَزْنِ تحت ظلاله
والبَسْ رداءَ الشِّمْرِ والأهْلا م

فالشاعر كما ترى تكاثرت الهموم حوله حتى انقطع لها وصار لها
كاهنا .

وعبادة الطبيعة ليست مجرد وصفٍ سخّي، تخلفه على الشابي، فإن هذا
اللون من الشعور كان يعرفه الشابي ويتمقه ويؤمن به عن وعيٍّ وبصيرة،
فلا غرابة أن يدين به في حماسٍ وحبٍ عظيمين .

هذا الحماس وهذا الحب نستشفه من رأيه في نظرة الأدب العربي الى
الطبيعة، كما جاء ميثوثا في كتابه الخيال الشعري عند العرب :

" .. ان النظرة العربية الى الطبيعة بسيطة ازاء النظرة الغربية، مهمما

بلفت من العمق والشعور . وشعراء العربية لم يعبروا عن احساسات شعرية
عميقة، لأنهم لم ينظروا الى الطبيعة نظرة الخاشع الى الحيّ الجليل،

وانما كانوا ينظرون اليها نظرتهم الى رداءً منق وطرز جميل، وهي لا

تزيد عن الاعجاب البسيط، ومثل هذه النظرة الفارغة لا ينتظر عنها أن تشرق
تشرق بالخيال الجميل، لأن الخيال الشعري منشأه الاحساس الملتهب،

والشعور العميق، وشعراء العربية لم يشعروا بتيار الحياة المتدفق في

قلب الطبيعة الا شعوراً بسيطاً، غالياً من يقظة الحس ونشوة الخيال" (١)

تلك هي خلاصة نظرة الشابي للطبيعة، وذلك هو سر حبه لها وهروبه
اليها، ففيها الكمال الذي يحلم به، والحنان الذي لم يجده في المجتمع

والثورة التي لم يقم بها الشعب، والبراءة التي مزّتها الواقع وأفسد

معناها الجميل، وفيها أخيراً التناسق والحيوية، وهما من أرقى الصور

التي يحلم بها الشاعر للحياة، ويحملها على الدوام في قلبه الرقيق

النبيل" . (٢)

(١) : شمس وشاعر - الدكتور نيمات أحمد فؤاد - ص ١٢٢ - ١٢٨ .

(٢) : أبو القاسم الشابي - شاعر الحب والثورة - ص ٥٥ .

ونلاحظ أن الطبيعة التي يصورها الشابي ليست متعددة المشاهد ولا متنوعة المناظر، وشعره خال من اللوحات الطبيعية الكاملة، فلا ترى وصفا خاصا بنهر أو روض أو غير ذلك من المعاني الطبيعية الرائعة. ولكننا حين نقرأ شعره، أن الشاعر يعبد الطبيعة عبادة مطلقة تصل به إلى درجة الفناء في جمالها الأخاذ، وتدرك أن شعوره بها لم يكن شعورا بسيطا، ولكن كان شعورا عميقا لأنه لا يتذوقها في سذاجة المتلذذ المتنعم الذي لا يشغله منها إلا ما تهيجه له من راحة وظل وقبر. (١)

=====

=====

=====

=====

=====

(١) : الشابي وجبران - خليفة محمد التليسي - ص ٧٥.

=====

خصائص شعر الشابي وموقف النقاد منه :

=====

الشابي شاعر وجداني خالص، وهو على صغر سنه شاعر مكند مجيد ولقد أجمع النقاد على أن الشابي طبع شعره على غرار المذهب الرومانسي، ولقد عدد مصطفى رجب خصائص هذا المذهب في سلسلة من المقالات نشرها في مجلة الأسبوع التونسية، ثم جمعها في كتاب بعنوانه "شاعران" ، ولقد رأى مصطفى رجب الخصائص الرومانسية تبرز عند الشابي في :

اللفظة، العبارة، الأسلوب، القالب، الدعوة إلى الطبيعة، الاستماع إلى النفس، توسيع دائرة الشعر، ابتكار المواضيع، سيايرة روح الموضوع، وتأثير المعالم الداخلي بالمعالم الخارجي، النزعة الانسانية .

أما عمر فروخ فإنه يرى الخصائص فيما يلي :

أولا :

الأسلوب

=====

جسرى الشابي في شعره على أسلوبين : أسلوب فخيم يتين النسيج جاء به في طوره الأول في الأكثر، وخمير به قصائده في الحكمة والرثاء والفخر ثم أسلوب لين سلس جاء به في القصائد التي طواها على أغراضه الوجدانية والخيالية، وكان من الطبيعي أن تضم قصائده على الأسلوب الأول : الفأظا فخمة والفأظا غريبة، والفأظا جزلة، وأن تكون الكلمات فيها متخيرة تدل على احاطة بالقاموس المرهني الى حد كبير، وعلى أن هذا كله لم يمنع أن ترد الكلمة المؤكدة عنده الى جانب الكلمة الجزلة الصحيحة مثال ذلك قوله :

يقولون صوت المستذللين خافت

وسمع طفلة الأرنبي "أطرش" أصخم (١)

ففي القاموس: الطرش، تعني أهون الصم أو هو مولد وليس هذا ما يريده الشابي، انه يريد أن يقول "شديد الصم".

(١) : من قصيدته الى الطاغية - الديوان ص ١١٨ .

أما أصح: فلا وجود لها في القاموس، فهي ليست متصلة بما أراد الشاعر الشابي لا صيغة ولا معنى، مع العلم أن الشابي قد قصد أن يملأ أساغنا بالألفاظ الفخمة الضخمة، فجاء بها فيها القاف والصاد مرتين، والخاء مرتين، والطاء مرتين والصاد مرة.

وتكلم مصطفى رجب عن الرومانسية عند الشابي فقال:

".. الصد والوصل والركوب والندى ألفاظ كلاسيكية (يقصد : جاهلية شريفة مألوفة)، وبخلافها : الأحلام والأمانى، والغاب، والفراش، بفتح الفاء، والنحل، والأثير، والمعبد، والهيكل، والفن، والمبقرى، ألفاظ رومانسية. يقصد مولدة، محدثة."

وفي رأي رجب: أن الشابي تجنب الألفاظ الأولى، وأكثر من تصريف الألفاظ الثانية في شعره. (١)

ويرى الأستاذ التليسي أن قوة أبطلوك الشابي ليست في الفاظه، وعلى رغم براعته في استخدامها وعلى رغم ثروته من الألفاظ اللونية والصوتية التي يستعملها في براعة الرسام النابغ والموسيقي المبقرى، ولكنها في قوة احساسه وهي التي تخلق ألفاظه ومعانيه المتمردة المتحررة في مواضع السخط والتمرد، وهي التي تتدفق بالألفاظ اللينة الوديمة في مواضع اللين والضراعة، وقد وجهته هذه القوة توجيهها خطابيا، فلم يستطع أن يتخلص من تلك الصفة التي أخذها على الشعر العربي، ولم يقدر على التحرر منها وأمثلة ذلك واضحة في كثير من شعره، الذي يشعر أنه واقف بين قومه يلقنهم تعاليمه، أو يصب عليهم غضبه ونقمة ان يقول في قصيدته الخالدة "النبي المجهول" (٢):

أيها الشعب، ليتني كنت حطا

بأ فأهوى على الجدوع بفأسي

ويقول في قصيدته "ارادة الحياة" (٣):

إذا الشعب يوماً أراد الحياة

فلا بُدَّ أن يستجيبَ القدر.

وفي قصيدته "الى الشعب" يقول: (٣)

أين يا شعب قلبك الخافق الـ

حساس؟ أين الطموح والأحلام؟

(١): الشابي شاعر الحب والحياة - عمر فروخ ص ١١٢ - ١١٨.

(٢): الديوان ص ٢٤٦.

(٣): الديوان ص ٤٢٦.

وفي قصيدته " نشيد الجبار " و هكذا غنى بروميثيوس (١) :
سأعيش رغم الداء والأعداء
كالنسر فوق القمة السماء

ثم يستطرد التليسي قائلاً :

".. ونحب أن نوكد أن الحكم على أسلوبه وإنما أقنناه على أساس من تجاربه الشعرية الناضجة، التي تحددت فيها شخصيته وممالم أسلوبه وطريقته في الأداء، ودلت على الطريق الذي سيسلكه لو قدر لعبقريته أن تمتو وتميش، ولا بد من التذكير أن العصر الشعري لهذا الشاعر لم يتجاوز سنوات قليلة، وذلك هو مظهر القوة والأصالة فيه، فهو رغم عمره القصير، استطاع أن يكون مدرسة وهذه، وأن يدفع كثيراً من الشعراء بطابعه الواضح القوى العميق . (٢)

ثانياً :

التركيب :

=====

يرى فروخ أن تراكيب الشابي كالألفاظه تجرى مجرى مجرى على أساليب العرب، ومجرى آخر كثير التمرر والانفلات من أساليب العرب.
يجب أن يكون التركيب صحيحاً متيناً، ونعني بالتركيب الصحيح أن تجرى الجملة على أساليب العرب في الترتيب ووجود التقديم والتأخير أو جوازهما وفي الاضمار وما الى ذلك، مما يعرف في من كتب النحو، وأما التركيب المتين فيكون في خلو الجملة من الحشو " الزيادة التي لا يزيد معنى الجملة بها وقسوها أو تفصيلاً "، كما يكون بأن تعرى عن الذي يخلل بالمعنى . (٣)

ولقد تعرض الأستاذ التليسي للتركيب عند الشابي أن يقول :

"... أنيقة التعبير ورضانته وأصالته، هي الدعائم الأولى التي يقوم

عليها أسلوب الشابي، الذي امتاز ببعدته عن النثرية السطحية ((الركافة))

التي أخذت على كثير من شعراء المدرسة الحديثة، وخاصة المدرسة

المهجرية، فهو أسلوب ينساب في عفوية وبساطة رصينة، بساطة من أدرك

موضوع اللفظ، ومدى قوته التصويرية والموسيقية، هتي اذا استولت عليه

(١) : الديوان - ص ٤٤٠ .

(٢) : شاعران متشابهان - خليفه محمد التليسي ص ١٠٢ - ١٠٦ .

(٣) : الشابي شاعر الحب والحياة - عمر فروخ ص ١٢١ - ١٢٢ .

شهوة النظم ، تدفقت شاعريته في ساحة ويسمر لايشعران القارئ بأى مجهود إلا بمقدار ما يشمرك النهر المتدفق نحو البحار بقوة النبع الذي يصدر عنه وتلك صفة لاينالها إلا من عاش معنى اللفظ ، وأحس بما فيه من رصيد شعوري لايقوم على الرنين اللفظي الذي يأسر الآذان ، ولكنه يقوم على الماطفة المتقعدة التي تنفذ الى أعماق الوجدان .
والوضوح هو الدعامة الأولى للبساطة ، ولذا أجدني مخالفا لمن يهتمون هذا الشاعر بالفموض ، وتمدد التماييز الرمزية ، وان شعره من الوضوح بحيث لا يحتاج الى شرح أو اعنات القريحة في فك تعابيره . (١)
ويوافق فروخ التليسي بأيسه فني بمعنى شعر الشابي ، ويخالفه في البعض الآخر ان يقول :

" .. ان بعض شعر الشابي كذلك ولكن سائره مخالف لهذه الأحكام التي حمل التليسي عليها حبه للشابي ، فالأبيات التالية وهي من قصيدته " نظرة في الحياة " (٢) :

ان السكينة رُوحٌ . . في الليل ليست تُنامُ
والروحُ شعلنةٌ نورٍ . . من فوقِ كلِّ نظامٍ
لا تنطفي بريحِ الار . . هاق أو بالحسامِ
بل قد يمجُّ لظاها . . سيلاً ويطفئ الضرامِ
كل الهلايا جميعاً . . تفنى ويبقى السلامُ

ويقول في قصيدته " غرفة من يم " (٣) :

ضعفُ العزيمة لحداً في سكينته
تفضي الحياة ، بناء اليأس والوجل
ما كلُّ فمٍ يجلُّ الناسُ فاعلهُ
مجداً ، فإن الورى في رأيهم خطلُ

ويقول في قصيدته " يا رفيقي " : (٤)

ونشيجٍ مضرمٍ من فتاة ،
أبهظتها قوارع الأيسامِ

(١) : شاعران متشابهان - خليفه محمد التليسي ص ١٠١ .

(٢) : الديوان - ص ٧٥ .

(٣) : الديوان - ص ٨٢ .

(٤) : الديوان - ص ١٩٤ .

ونسواح يفيش من قلب أمّ

فجمعت في وليدها البسّام

هذه الأبيات ليست أنيقة التعبير ولا بعيدة عن الركائسة ولا هي تفيض عفو الخاطر، في سهولة ووضوح .

ثم يورد فروخ أبياتا أخرى من قصيدة الشابي " الى عذارى أفروديت " يقول معلقا عليها :

نحن نرى هنا حرف الشرط وفعل الشرط، ولكننا لا نرى جواب الشرط، ثم اننا لانرى في هذه الأبيات أنيقة ولا وضوحا، (١) أما الأبيات كما أوردتها فروخ :

وسبيل الحياة رحب وأنت

من اللواتي تفرشنه بالورود

ان أردت أن يكون بهيجا

رائع السحر ذا جمال فريد

أو بشوك يبدى الفضية والحب

ويقضي على بهاء الوجود

ان أردت أن يكون شبيها

مظلم الأفق ميت الثريد.

ثالثا :

الصناعة اللفظية والمعنوية

=====

إذا كان الكلام على اللفظ والتركيب يتعلق بفقهاء اللغة والصرف والنحو وغايته صحة التعبير، فإن الكلام على الصناعة اللفظية والصناعة المعنوية يتعلق بالبلاغة وغاية تجسيب الأسلوب .

وللنقاد آراء وأقوال حول هذا الموضوع في شعر الشابي، فزين العابدين

السوسي : يرى أن الشابي يستغرق قواميس الأدب العربي باستعاراتها وكنايتها ومجازاتها المتمارفة المحفوظة لدى القوم، ثم يأتي بثبات من المعاني الجديدة السامية يفرغها على بعض الألفاظ الخاملة، فإذا هي أصرح في الدلالة من حقائق القواميس اللغوية، وأروع من المتمارفات من كنايات وتجزّات ((الاتيان بالمجازات)) المتقدمين لما فيها من قوة التعبير ومن الإشارة الى التأثيرات النفسية. (٢)

(١) : الشابي - شاعر الحب والحياة - عمر فروخ - ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٢) : الشابي شاعر الحب والحياة - عمر فروخ ص ١٢٣ - عن الأدب التونسي ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

أما مصطفى رجب فيرى أن الشابي قد هجر تشابيه القدماء واستعاراتهم
وكناياتهم من مثل " فدتك روعي - ثقيل ردف - طيح خد - جميل صبر -
عروس خدر " ليتبدل بها " الكروم العارشة - الصدى الزيتي - لم ترس صابتي
تاقت بمينها " ثم يفسو الشابي عند مصطفى رجب الى مثل هذه العبارات
: " الظل الكئيب - ضباب الأسي - رحلة العمل القصير - عالم الآثار -
أقدام الربيع - رهشة الاله " (١) .
رابعا :

الخصائص اللفظية والرمز

=====

يقول زين الماهدين السنوسي :

" ان الشابي قد تشبع بالمدرسة الرمزية التي أقام عمادها في العربية
جبران خليل جبران " .

أما الصادق ما زرع فيرى أن أصحاب المذهب الرمزي قد جعلوا المكانة
الأولى لفعل رنة الألفاظ وامتزاجها امتزاجا موسيقيا غامضا، هو منبع ما
في الشعر من جمال وتأثير عميق وصور جذابة حتى لتجد الصورة الرئيسة
تندمج مع اللحن المسموع وتتغم اليه انضمام النظير للنظير، وما ذكره نازع
ينطبق كما يقول السنوسي على انسجام الفاظ الشابي مع معانيه . والقصوى
يسود رمزية الشابي ويطغى على مدلولات ألفاظه وعلى تصريف الكلم بصرف
بها معانيه، وعلى النحو الذي يعرب به ألفاظه للدلالة على البهم من
شعوره .

أما أحمد المختار الوكويهي وافق رأي السنوسي حينما يقبل أن يكون
الشابي شاعرا يميل الى الرموز، ثم يعلق أن الرمز لا يفهم بمراجعة
المعاجم .

ولا ريب في أن الرمز، وهو في الأصل مبني على الاستعارة، يحسن في البيت
بمعد البيت وفي القصيدة بمد القصيدة فاذا تراكم وكثر فيه الضموني أصبح عبثا
في الأدب، فاذا أضفنا الى ذلك كله أن الشابي كان يأتي بأشياء لا يعرفها
لم تستغرب أن يمتزج عليه في الأمر بمد الأمر .

على أننا نجد للشابي أحيانا رمزا موقفا في مثل قوله :

ذل قلبي ،

مات حبي !

فانذرفي ، بما مقلبة الليل ، الدراري عبرات
 حول هُبي ، فهو قد ودع آفاق الحياة
 بمسند أن ذاق اللهب

وَأَنْدَبِيهِ

وَأَغْسِلِيهِ

بِدُمُوعِ الْفَجْرِ مِنْ أَكْوَابِ زَهْرِ الزُّنْبُقِ (١) .

خاسبا :

الماطفة والعقل

=====

لقد أسهب النقاد والأدباء في هذا الموضوع عند الشابي ، فلقد أورد خليفة محمد التليسي في كتابه الشابي وجبران جانبا من قصيدته "تونس الجميلة" ثم علق عليها بقوله :

" تقوم الرومانسية على الايمان بالمعاطفة ، وتقديس الشعور ، والاستغفاف بالعقل والتهوين من شأنه بل تحقيره ، لأنه يصيب الحياة بالجفاف ، فيفقد لها أجمل ما فيها ، وأجمل ما فيها بلا خلاف ، ما كان نتاجا للمعاطفة وقد كانت المعاطفة كل شيء في حياة هذا الشاعر الزولييناسي ، وكانت يقظة الاحاسيس رسالته التي عاش من أجلها ، فلا نجد للنفوس من غير هذه اليقظة ، ولا خلود لها إلا اذا اتحدت من الشعور بالذات قوة دافعة الى السموات العالي وما تميزت الأفراد عن بعضها إلا بمقدار نصيبها من هذا الشمور " (٢)

من هنا نلاحظ أن التليسي رجع المعاطفة على العقل ، بل نقول أكثر من ذلك ان التليسي الفنى دور العقل تماما أمام المعاطفة ،

ولعل التليسي في قوله هذا نظر بل تأثر بقول الحلوى :

" أما الشابي فشاعر أدواته المعاطفة والخيال ، وهو نفسه ينكر العقل ويصفر أمره ، ويراه عاجزا عن الوصول الى الحقيقة ، وأنه لا يزال صغيرا رغم مشيئه ووقاره ، يقول الشابي :

عشر ، بالشمور وللشمور فانما

دُنْيَاكَ كَوْنِ عَوَاطِفٍ وَشَمُورِ

(١) : الشابي شاعر الحب والحياة - عمر فروخ - ص ١٢٤ .

(٢) : الشابي وجبران - خليفة محمد التليسي - ص ٤٢ .

شهدت على العطف العميق، وانها

لتجفّ لو شهدت على التفكير (١)

أما مصطفى رجب فان رأيه متصل برأى الحليوي أيضا، ولكنّ الحليوي أدخل شيئا من الوضوح حينما أقام القلب مقام حاسة قوية، وجعله مركزا للشعور أو رمزا عن مجمع الشعور على الأصح.

أما زين العابدين السنوسي فيرى أن الشابي ضرب على أوتار العقل الإدراكية بمواطنه القوية الجياشة في انسجام رائع خلّاب، ويتأول السنوسي رأى الشابي في قصيدته: "عذر المصفور" فيقول:

".. ان أبا القاسم لم يعتقد أن العقل رائد الانسان وقائده، بل كان يؤمن أن التفكير شعبة من شعب الشعور الانساني، وأنّ العقل غدّة رئيسية في الانسان قد استخدمتها مشاعره وطوحه ليبلغ منها بعض ما يتطلبه من الهناء واللذة والحق والجمال والتماطفاً.

ويذهب الدكتور محمد فريد غازي مذهباً بعيداً عندما يردّ كلام الشابي في قلبة الخيالي الى عقابيل مرض قلبه الطبيعي.

أما عمر فروخ فيشك أن تكون القصائد التي ذكرها ملامح صادقة لمرضه، لأن الشابي نفسه يشك في أن قصيدة الأبد الصغير، وقصيدة نشيد الجبار، أو هكذا غنى بروميثيوس مستوحيتان من مرضه. (٢)

نلاحظ من هذا العرض لآراء الكتاب والنقاد أن منهم من اهتم بالعاطفة والفي دور العقل تماما، ومنهم من رزّ حديث الشابي عن قلبه الذي ما أصابه من مرض.

سادسا:

الخيال

=====

يرى عمر فروخ أن الشابي خيالي التعبير يبعث عن مثل أعلى من صنع هذا الخيال فلا يجده في العالم الذي يمشي فيه، فينقلب شاكيا باكيا ثم تصطبغ آراؤه وتمايره بالأسى والحزن والكآبة والوجوم. (٣)

أما زين العابدين السنوسي في الأدب التونسي فيرى أن الشابي قد

(١) : مع الشابي - ص ٨٥ .

(٢) : الشابي - شاعر الحب والحياة - عمر فروخ ص ١٣٣ .

(٣) : الشابي - شاعر الحب والحياة - عمر فروخ ص ١٣٤ .

امتلك ناصية الخيال، ولكنه على رغم سكوته عن الخيال في شعر الشابي في كتابته "أبو القاسم الشابي"، إلا أنه يخبرنا أن التصور (١) عند الشابي قد كان صادقا حقيقيا لمن عاشرهم، وسكنوا فصيلة وانطعموا في روحه. وهي أشباح لأناس حقيقيين لا خياليين، فما كان أبوه رمزا خياليا، ولا كانت عشيرة صباه بجنة شاعر أو حلم كاذب.

أما التليسي فيرى أن حزن الشابي الذي ظهر في قصائده الأولى واجد تعليقه في مرحلة المراهقة التي تعيش في عالم الأحلام وتتجه إلى العكوف على الذات والاستجابة إلى الخيال، والآمال العريضة التي لا سبيل إلى تحقيقها في دنيا الواقع، والرومانسية أقرب إلى أرواح المراهقين بما يحيط بها من غموم محبب، وكتابة لذيذة وخيال وقاد، وقد استجاب الشابي لمشاء هذه المرحلة من حياته، فرأى الحياة معركة طاحنة لا مقام فيها للضعيف ثم يعود التليسي مرة ثانية ليقول في نفس المصدر:

" . . ولا يمسر على المرء أن يستخرج من هذا الشعر الرائع صورا فنية فائتة عمل الخيال في تلوينها، وأبدعتها عبقرية تستقبل الحياة بأكثر من حاسة. (٢)

أما فروخ (٣) فيعود ليرى أن كثيرا من صور الشكوى والكتابة في شعر الشابي يرجع إلى التعبير الفني الذي أغرم الشابي به، وإن جانبها مهما من تلك الكتابة كان بلا ريب شعورا صحيحا في الشابي، ولكن هناك جانبها هو تعبير محض لا صلة له بالشعور الصحيح، والآ فكيف نعلل حكمه على مستقبله بالتشاؤم أيضا مع الافتراض بأن الدنيا يمكن أن تنحك لم، ودليلنا على ذلك ما ختم به الشابي قصيدته "نشيد الأسى" (٤) إذ يقول:

مهما تشاحكت الحياة فأنني أبدا كئيب
أصغي لأوجاع الكتابة، والكتابة لتجيب
في مهجتي تتأوه البلوى ويمتلح النحيب
ويضج جبار الأسى، وتجيشر لواج الكروب
اني أنا الروح الذي سيظل في الدنيا غريب
ويميشر مضطلعا بأحزان الشبيبة والمشيب.

ومع هذا يعترف فروخ أن للشابي خيالا مولداً موهلاً في الترابية يصطنع

-
- (١) : أبو القاسم الشابي - زين العابدين السنوسي - ص ٢٦.
(٢) : الشابي وجبران - خليفه محمد التليسي - ص ١٠٣.
(٣) : الشابي - شاعر الحب والحياة - عمر فروخ - ص ١٣٦.
(٤) : الشابي - شاعر الحب والحياة - عمر فروخ - ص ١٣٤.

من الأمور الصادقة قصصا ومشاهداً، والحكم على الأخيلة يكون بما لها من الصور، وبالقران الذي بيّن تلك الصور، ويستشهد لذلك بقصيدة للشابي بعنوان "قلب الأم" (١) فيقول:

ها أنتِ ذا أطبقتِ جفنيكِ أحلامَ النونِ
وتطابتِ زمرُ الملائكِ حولَ مَضجَعِكِ الأمينِ
نَسيتكِ أمواجُ البحيرةِ، والنجومُ اللامعةُ
والبلبلُ الشادي، وهاتيكِ المروجُ الشاسعةُ
حتى الرفاقُ، فانهم لبثوا مدى يتساءلون
في حيرةٍ مشبوبةٍ: "أين اختفى هذا الأمين؟"
لكنهم علموا بأنك في الليالي الداجيةِ
حملتكِ غيلانُ الظلامِ إلى الجبالِ النائبةِ .
سابعاً:

الجدّ والهزل:

=====

لقد تعرض الأستاذ فروخ لهذه الناحية من شعر الشابي ورأى أن الجدّ يغلب على ديوان الشابي الذي بين أيدينا، ولا ريب أن اتجاه الرجل كان جديداً حزيناً، ولكن يبدو أن الشابي كان أيام تلمذته، قبل أن يعلم مرضه، أو قبل أن يدرك خطورة مرضه، ويميل إلى الهزل والمعبشة ككل قطر آخر، أو ككل انسان في صباه . (٢)

أما بعد أن اطلع الشابي على حقيقة دائه، فقد أراد أن يفارقه حزنه وكآبته، فسلك في ذلك مسلك المقل بالايحاء الذي كوله:

يا قلبي الباكي، الأم البكا؟
ما في فضاء الكونِ شيءٌ يَدومُ
فانثر غبارَ الحزنِ فوقَ الدجى
واسمّعِ إلى صَوْتِ الشَّبَابِ الرَّخيمِ

هذا ونلاحظ في الديوان عدداً من القصائد تسير في هذا الاتجاه مثل " صلوات في هيكل الحب" و " أراك" و " السعادة" و " الأبد الصغير" و " الرواية الفريضة" و " الحانتي السكرى" .
أما المسلك الآخر فهو مسلك فيه شيء من الهزل والمجون، ولمل خيمر ما يشل هذا الاتجاه قصائده، وتمت الغصون، والاعتراف .

(١): الديوان - ص ٣٢٥ - ٣٣٢ .

(٢): الشابي - شاعر الحب والحياه - عمر فروخ .

القارئ، بحيث يضع أمام بصره، في تعبير بسيط، صورة لا نهاية لروعيتها. (١)
أما الشاذلي بو يحيى فيرى عند الحديث عن النفس الشعرى عند
الشابي :

" ان من عناصر شاعرية الشابي انسجام اللفظ في جو خصيب من حيث
المعاني، يولدها بجرد وجوده لذيذ من حيث النبرات، يؤلف بينها نفمة
ونشيدا. (٢)

أما الدكتور نعامات أحمد فؤاد فتري :
" أن الشابي طويل النفس وتستدل على ذلك بمجموعة من قصائده أشارت
إليها في كتابها ((شمع وشاعر)) (٣)، وهذه القصائد هي :
" أيها الليل " (٤) ، " يا شعر " (٥) ، " في فجاج الآلام " (٦) ، " جدول الحبابين
الأمس واليوم " (٧) ، " نشيد الأسى " (٨) ، " النبي المجهول " (٩) ، " صلوات في
هيكل الحب " (١٠) ، " قلب الأم " (١١) ، " حديث المقبرة " (١٢) ، " الجننة
الضائعة " (١٣) ، " ارادة الحياة " (١٤) ، " تحت الفصون " (١٥) ، " الفأب " (١٦)
أما فروخ فيختم هذه الآراء (١٧) بقوله :

" للشابي مقدرة جبارة غريبة على تنسيق الكلام وتأليفه حتى يصير موسيقى
لانهاية تنبوع عن القواعد كما هي نشأت عن غير مفروض السلاغة، هب
أنك لم تهتد الى مفزى قصيدة أو مدلول لفظ أو عبارة، فلا تصدم ما
يسميه الجاحظ الشجي ."

-
- (١) : الشابي وجبران - خليفه محمد التليسي ص - ١٠٥ .
(٢) : الفكر - عدد ديسمبر - سنة ١٩٥٤ م - ص ١٨ .
(٣) : شمع وشاعر - نعامات أحمد فؤاد - ص ١٠٩ .
(٤) : الديوان - ص ١٤٢ : ٧
(٥) : الديوان - ص ١٠٢ .
(٦) : الديوان - ص ١٢٢ .
(٧) : الديوان - ص ١٥٢ .
(٨) : الديوان - ص ٢٠٨ .
(٩) : الديوان - ص ٢٤٦ .
(١٠) : الديوان - ص ٣٠٣ .
(١١) : الديوان - ص ٣٢٥ .
(١٢) : الديوان - ص ٣٣٤ .
(١٣) : الديوان - ص ٣٦١ .
(١٤) : الديوان - ص ٤٠٦ .
(١٥) : الديوان - ص ٤١٤ .
(١٦) : الديوان - ص ٤٦٠ .
(١٧) : الشابي - شاعر الحب والحياة - عمر فروخ ص ١٤٤ .

ولعل هذا الرأي ينقله عمر فروخ عن الشاذلي بو يحيى ان ورد في مجلة الفكر (١) وهكذا أشار اليه فروخ نفسه، أما رأيه هو أي فروخ فيقول:

" أن الذي يميز شاعرا عن شاعر هو النفس الشعرى، فالألفاظ قد تكون عند شاعرين فصحة، ويكون التركيب متينا والتشابه والاستعارات بارعة والمعاني مبتكرة والأغراض واحدة، ومع ذلك يكون أحد الشاعرين أشعر من صاحبه، وهذا شأن الشابي: ان الشابي أبرع من جميع أقرانه الذين يذكرون منه في الفنون التي جرى فيها. ثم يستمر واصفا لشعر الشابي بقوله ان شعر الشابي عذب رقيق فيه سهوله وسلاسة، وأيا كان الغرض الذي يتناوله الشابي فانك تشعر فيه بشاعرية قياضة قديرة على تقلاب الموضوعات ويرى أيضا أن الشابي جرى أحيانا مجرى القدماء فلا يجانب أنفسهم إلا قليلا، ويستشهد لذلك ببيتين من الشعر وردا في الديوان في قصيدته " زعير الماصفة " (٢) وهما:

" سيثأر للمرّ المحطّم تاجه

رجال اذا جاش الردى فهم هم "

" رجال يرون الذلّ عارا وسبّة

ولا يرهبون الموت، والموت مقبدم "

=====

=====

=====

=====

=====

(١) : عدد مايو - سنة ١٩٦٠ م.

(٢) : الديوان - ص - ٤٦٤.

=====

تغلب على الديوان القافية الواحدة ان نظم منها تسع وخمسون قصيدة وعدد القوافي في خمس عشرة قصيدة ، منها قصيدتان عبارة عن مقطوعات ذات روي مستقل هما : نظرة في الحياة " و " شمري " . ومنها قصيدة هي رباعيات مزدوجة ذات رويين متتابعين ، ومن توأشيمه ، " مأتم الحب " و " شكوى اليتيم " و " أغاني التائه " .

ونظم الشابي من الرباعيات " الشائبة " سبع قصائد ، ومن رباعياته المزدوجة غيرها قصيدته " في ظل وادي الموت " (١) وأهمية الاحصاء هنا تنحصر في دلالة الخاصة بالشاعر ونحاه نحو التحرر من قيود القافية العربية أو التمسك بها ، ثم دلالة العامة على نزعة الشعر العربي في أمر هذه القافية ، إما فيما عدا هذا فلتؤد الطاقة الشعرية ، الطاقة الفكرية ، الطاقة المعنوية في أي صورة من الصور ، شعر مقلد أو مرسل ما دام يذكي قدرتنا على التقدم ، ويزيد ثروتنا من الابداع الأصيل .

وبالشابي ميل الى التسكين ، وتسكين القافية عنده غير مقصور على موشحانه ورباعياته ، بل يتناول قصائده أيضا . ويرى التليسي :

أن الشابي كان موفقا كل التوفيق في اختيار الأوزان التي تلائم عواطفه وتسبغ على تعبيره جوا من الموسيقى العميقة فهو نظم هامس حزين في " الصباح الجديد " ، ورائر صارخ متمرد في " النبي المجهول " و " ارادة الحياة " و " أنشودة الجبار " ، وهو نظم وديع هامس في " صلوات في هيكل الحب " (٢) والشابي شاعر ولوع بالنظم كما ترى نعمات أحمد فؤاد - يوفر لقصيد ومن وسائل التثمين عنده :

(التكرار : - ونعني به تكرار مطالب القصائد في الوسط ، أو الختام كالتسليم الموسيقي في عالم الألحان ، ومن قصائد هذا اللون : - " تونس الجميلة " (٣) و " الكتابة المجهولة " (٤) و " جدول الحب " (٥) على أن ظاهرة التكرار هذه

(١) : راجع - شعب وشاعر - الدكتور - نعمات أحمد فؤاد - ص ١١١ - ١١٢ - تجد احصاء بانواع القصائد المختلفة .

(٢) : الشابي وجبران - خليفه محمد التليسي - ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٣) : الديوان - ص ٥٨ .

(٤) : الديوان - ص ٩٠ - ٩٤ .

(٥) : الديوان - ص ١٥٢ - ١٥٧ .

قد تكون محاولة من الشابي لتهدئة نفسه المختلجة، إذ أغلب ما يكون التكرار في قصائده الحزينة.

ومن وسائل التنفيم عنده: التكرار في قصائده الحزينة. ومن وسائل التنفيم عنده: التقسيم كقوله:

فأنت وقد غمرتها الدموع

وقررت، وقد فاض منها الحباب (١)

وقوله:

ولعلمة الحق الفضوب لها صدى

ودمدمة الحرب الضروس لها فم (٢)

وقوله:

فالدهر منتعل بالنار، ملتحق

بالهول، والويل، والأيام تشتعل

والأرض دامية، بالاثم طامية

ومارك الشر في أرجائها ثمل

والموت كالمارد الجبار، منتصب

في الأرض، يخطف من قبة خانه الأجل (٣)

ومن آياته الموسيقية: الاتباع: ويستشهد له بقوله:

ألبسوا روحه قميص اضطره

فاتك شاك يرد جماحه (٤)

ومن طرائفه في التعبير قوله:

أبدا يحمل الوجود بما فيه

كأن ليس للوجود زعيمه (٥)

وترى الدكورة - نيمات أحمد فؤاد في زعيمه كناية لطيفة عن الله

عز وجل .

ومن طرائفه في الصفات: الجيد الثمين، والطرف الساهي، والخطو الموقع.

ومن تشبيهاته الذاتية قوله:

سمعتها صرخة مضمضة . . كجدول في ضائق السيل (٦)

(١) : الديوان - من قصيدة السامة - ص ١٢٢ .

(٢) : الديوان - من قصيدة الى الطاغية - ص ١١٨ .

(٣) : الديوان - من قصيدة غرفة من هم - ص ٨٢ - ٨٥ .

(٤) : الديوان - من قصيدة تونس الجميلة - ص ٥٨، ٦٠ .

(٥) : الديوان - من قصيدة تحت النضون - ص ٤١، ٤٢٥ .

(٦) : الديوان - من قصيدة الكآبة المجهولة ص ٩٠ - ٩٤ .

وترى الدكتور نجمات أحمد فؤاد أنها صورة جميلة فيها "الصوت واللون والحركة
والانفعال" (١).

الخط :

=====

على الرغم أن الاجماع يكاد ينعقد على جمال أسلوب الشابي، إلا أن هذا
الأسلوب المشرق، لا يخلو من هتة هنا أو هناك، ولقد احصت الدكتورة،
نجمات أحمد فؤاد أخطاء وهنات بما يلي :

١ - أجاز الشابي لنفسه أن يقول :

ان للحب على الناس يدا تصف الأعمارا (٢)

وتعلق الدكتورة على ذلك قائلة: لماذا؟ ان الحب يطيل الحياة بالمرضى
ان ينصرها ويخصبها.

وزلة أخرى في القصيدة نفسها ان يقول :

وليه فجر على طول المدى ساطع الأنوار
وهنة ثالثة نجدها في قصيدته قلب الأم ان يقول :

كل نسوك، ولم يمودوا يذكرونك في الحياة

إلا فؤادا، ظل يخفق في الوجود الى لقاءك

ويود لو بذل الحياة الى المنية، وافتتدك

فاذا رأى طفلا بكاك، وان رأى شبحا دعباك

فمع الحزن نجد الشاعر يعبر عن فقدان الوعي بالدهول، بالشروع

لا بالسكر الذي له احياء السرور والخلود.

وقلب الأم هنا أهم الشاعر قصيدة طويلة متدافعة كالسيل، متدفقة التعمير

كالطوفان، وقد طال نفسه فيها حتى أرضى، غير أنه انتهى منها فجأة

كمن يقطع حديثا انجم فيه واندنجت فيه الأذن، فقلب الشكلى لا ينسى

مهما ثوالت المظاهر بظاهر الاغراء التي عددها الشاعر في آخر

القصيدة وأفاض، حتى كدنا ننسى الموصوف الأصيل في الموضوع، وهو قلب

الأم الذي كان السياق يقتضي الشاعر أن يؤكد وفاءه في الختام كما نوه

به أثناء القصيدة. (٣)

٢ - الأخطاء اللفوية :

لقد وقع الشاعر في أخطاء لغوية كثيرة، وردت في أشعاره، ولقد ذكرت

(١) : شعب وشاعر - الدكتورة نجمات أحمد فؤاد - ص ١١٢ - ١١٥

(٢) : الديوان - من قصيدته في الظلام - ص ٦٧.

(٣) : شعب وشاعر - الدكتوة - نجمات أحمد فؤاد - ص ١٠٥ - ١٠٦.

الدكتورة - نعمات أحمد فؤاد من هذه الأخطاء لفظة (عراض) (١) ، وأما الأستاذ عمر فروخ فقد أشار إلى أخطاء الشابي في الصرف والنحو والتركيب والقافية بقوله :
أريد أن آتي بها اختصارا للمكان ، ثم أشير إلى أماكنها . (٢) ومن
هذه الأخطاء التي أشار إليها الأستاذ فروخ ما يلي :

حمانا" بخطف الألف في (نا) ١٣ " (٣) .

يا هيكل الحب الرهيب (بالكسر) مكان الرهيبا ٢٥ .

ان في غيبة الليالي لخطيب (مكان الخطيبا) ٢٦ .

ما أنت ربه فتضميه (يضم الميم) ١٤٤ .

بأن يسلموه ، أن تذوى ، لأقضي ٣٥ - ٥٠ - ١٠٣ .

اهمال النصب في الفعل الناقص عند الشابي كثير .

غده ، ينشده ، قصائده ، موارد ، (في القافية) ١٠٦ .

كل نسوك ١٣١ ، الكل ١٣٧ .

لم يعودوا يذكرونك ١٣١ ، لم يصد لي بقاء ١٦١ .

وكيف يكونن ١٤٠ .

لم يلد (مكان لم يولد) ١٨٠ .

هذه هي الأخطاء التي أشار إليها الأستاذ عمر فروخ ، وقد أثبت بجانبها رقم الصفحة التي وردت فيها في الديوان .

٣ - الألفاظ الغريبة

لقد ذكرت الدكتوراه نعمات أحمد فؤاد مجموعة من الألفاظ الغريبة ، ولكنها لم تشر إلى القصائد التي وقعت فيها هذه الألفاظ واكتفت بالإشارة إلى الصفحات التي وردت فيها وهي كالآتي :

الأسكوب ، الخميس المجر ، صمات الغروب ، معسبات الحياة ، يشجي صماته .

٤ - إيراد صيغة فعيل وفمول بكثرة في شعره ، فهو يقدم إلى رواده هذه

الألفاظ وكأنها بعض صحنه على حد قول الدكتورة نعمات ، ومن الألفاظ

التي وردت على هذه الصيغة هي :

العهد ، السفوح ، الذريف ، خرير ، شطيف ، جفيف ، عبيد ، وهيد ، عسوف ، الفروج .

(١) : شعب وشاعر - الدكتوراه نعمات أحمد فؤاد - ص ١٠٧ .

(٢) : الشابي - شاعر الحب والحياة - الأستاذ عمر فروخ - ص ١٢٠ .

(٣) : الديوان الذي اعتمد عليه الأستاذ عمر فروخ - هي النسخة الموجودة في مكتبة الجامعة

الأمريكية في بيروت وهي تختلف عن النسخة التي اعتمدت عليها إذ اعتمدت على الديوان

طبعة - دار العودة - بيروت - سنة ١٩٧٢ م وهو من القطع الصغير قياس ١٣×١٢ .

(٤) : شعب وشاعر - الدكتوراه نعمات أحمد فؤاد - ص ١٠٧ .

هـ :- ومن المآخذ عليه : تجنب الألفاظ الاسلامية :

يرى الأستاذ عمر فروخ أن الشامي كأمثاله من الناقمين على عمود الشعر العربي ، وعلى الحياة العربية الأصيلة ، أراد أن يتجنب الألفاظ الاسلامية العربية الملامح ، ليتبدل بها ألفاظا وثنية الأصل عامية الاستعمال ، وخصوصا في طوره المتأخر .

أما الألفاظ التي جانب فيها الاستعمال المألوف عمدا أو جهلا فكثيرة ذكر منها الأستاذ فروخ ثلاث صفحات وقال :

أكتفي منها بهذا (١) .

هذه هي أهم المآخذ التي أخذها النقاد على الشامي - ومع ذلك سيبقى الشامي علما شامخا من اعلام الأدب العربي في العصر الحديث .

=====

=====

=====

==

=

(١) : الشامي - شاغر الحب والحياة - الأستاذ عمر فروخ ص ١١٨ ،

=====

لقد أحدث الشابي الشاعر التونسي الفحل نجة واسعة في الأدب العربي كما اختلفت آراء النقاد والأدباء والسورخين له حوله، فبعضهم من تعصب له كالأستاذ الحليوي والدكتورة نعمات أحمد فؤاد في كتابها شعب وشاعر، ومن الكتاب والأدباء تعصب ضدّه وكان شديد التهامل عليه، كالأستاذ عمر فروخ في كتابه "شاعران معاصران الشابي وطوقان" ومنهم من حاول الانصاف أو كاد .

والحقيقة أن الشابي الشاعر التونسي العبقري ترك لنا تراثا شمريا، يعد أكبر بكثير من الفترة الزمنية التي عاشها وخصوصا اذا عرفنا أنه قضى أواخرها بالمرض الذي لم يكن ليرجو منه شفاء، ومع هذا فان الدارس لشعره دراسة عميقة واعية، يلمح فيه نقاطا واضحة تكاد تكون محددة، وهذه النقاط هي :

أولا :

كان الشابي رجلا مؤنسا بالله تعالى، متدينا على الرغم من أنه لم يورد في شعره ما يدل على ذلك صراحة، سوى بعض أبيات يقرع فيها دعاء الدين الساكتين على الضيم بل الذل الذي تعيش به تونس، بل ان من ألفاظه ما جعل بعض الأدباء يحكمون عليه بالاحقاد والتحلل من الدين ، كالأستاذ عمر فروخ في كتابه السابق الذكر " شاعران معاصران - الشابي وطوقان " وما يدعم رأينا هذا أن الشابي حفظ القرآن في السنوات الأولى من عمره بل في السنة التاسعة على وجه التحديد، وتربى في بيت شديد التدين بل ان والده الشيخ محمد بلقاسم، كان كما أجمعت الآراء - رجلا صالحا متدينا قضى وقته في العمل على احقاق الحق بين الناس، اذ عمل قاضيا تقريبا بين أرجاء تونس، وهذا علاوة على الثقافة التي تلقاها الشابي في الجامعة الزيتونية فقد كانت ثقافة دينية خالصة على الأرجح، وفوق هذا كله فان هذا الصراخ وتلك العزة التي يدعو اليها، وما تلك الدعوة الجادة للشورة وطرد المستعمر الا تفسير للعزة التي دعا اليها الاسلام بنس القرآن الكريم حيث قال الله تعالى ((والله العزة ورسوله وللمؤمنين)) صدق الله العظيم .

هذا ولا بد من التنويه من أن الاستعمار حارب الاسلام حربا لا هوادة فيها، لأنه دين العزة والكرامة، والاستعمار كما هو معروف لا يريد شعوبا عزيزة بل خائفة ذليلة يتحكم بها كيفما شاء . .

وفي المغرب العربي كله كانت الثورات على الاستعمار ثورات اسلامية، تنظر

للمستعمرين على انهم كفار احتلوا ديارا اسلامية لا يبد من اخراجهم منها بالقوة اذا اقتضى الأمر، ولهذا وجدناهم يقاتلون الأعداء بضراوة زائدة، وقوة وأصالة، وكان آخر تلك الثورات ثورة الجزائر المظفرة التي ضربت أروع الأمثلة في البطولة والنضال، وما القصائد الكثيرة التي نجدها عند الشابي والتي تدعو للحرية والكرامة إلا تفسير آخر لتدينه وتمسكه بعزته.

ثانياً:

والنقطة الثانية التي ظهرت واضحةً جليةً في شعره، هي الحب، ولكن على الرغم من افراط النقاد في نسبة الحب اليه، وتضارب آرائهم حوله، فاني أرى أن الشاعر كان محباً متيناً، ولكن ليس هذا الحب لبشر ولا لشخص بعينه، وإنما كان حبه لبلده تونس التي عشقها ونذر نفسه لها، وغناها بكل شعره جبالها، هضابها، غاباتها، بل خصها بقصيدة أسماها باسمها، وما هذه الألفاظ التي يترنم بها ل ويحسبها القارئ لشعره حباً لبشر مُمَيَّنٍ إلا حب لتونس وتونس وحدها، ولم يتسع قلبه لحب سواها.

أما ما ذكره النقاد والمؤرخون من حبه لفتاة صباه وأخرى لمصورة انجائيزية، لم يزد ذلك عن كونه اعجاباً بالجمال والجمال فقط، وإذا قال فيه شعراً فأنما يعبر عن اعجاب في وقت معين ثم ينتهي الاعجاب بانتهاء مشيئاته، ذلك أن المحب لا يتنقل في حبه الى أكثر من حبيبة كما علمنا المحبون في أشعارهم كجميل بثينه وغيره. وأما رائحته صلوات في هيكل الحب فما أظنه إلا يتصور السعادة لتونس بعد استقلالها وحريتها وما في ذلك من هناء ورغد عيش، وأن كانت الألفاظ واضحة صريحة. أما حبه لتونس فإنه مملك عليه كل جوارحه، إذ كان ينهش بهذا الحب مع كل خلجة في نفسه، بل في كل نبضات قلبه، وما تلك الصرخات الحارة التي نشتم منها رائحة القوة والانديفاع، وما هذه النقمة والثورة والتمرد التي نشتمها في قصائده: الى الطاغية، ارادة الحياة وغيرها إلا دليل واضح لا لبس فيه على هذا الحب.

أما ما قيل عن حبه لوالده فلم يزد عن كونه عاطفة جياشة، فياضة، متدفقة نحو الوالد، لأن حب الوالد يرتبط بالحنان والترابط الأسرى، ولا يقتصر هذا على الشابي فقط بل يوجد عند غيره من الشعراء خاصة والناس عامة، وإذا وجدناها عند الشابي أكثر من غيره، ذلك لأن الظروف التي عاشها الشابي تختلف عن ظروف غيره ولهذا كان تضمره أكثر من غيره بوفاة والده، خصوصاً وأن هذا الوالد كان يكفيه كل الأمور الحياتية، بل كان يتحمل عنه المسؤولية كاملة، فلما مات هذا الوالد أسقط في يد الشابي وارتبكت أموره، فجاشت عاطفته بالشعر رثاء لهذا الوالد وان لم يتماطاه من قبل.

ثالثاً:

والنقطة الثالثة التي بدت واضحة في شعره، هي تلك الرمزية التي تدعّم حبه لوطنه

(١٧٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة البحث

المقدمة

الحياة العامة في تونس قبل الشابي
ظروف الحياة العامة في تونس في عصر الشابي
الشعر في تونس في حياة الشابي
الكتاب الأول

حياة الشابي ومولده
نشأة الشابي ودراسته
صوت والده
أثر المرض في حياته.
زواجه.

(١٧٤)

آثار الشابي .

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب الثاني

أصوات على شخصية الشابي وعناصرها وأشركها في شعره.
مصادر ثقافته.

أثر الأدب المهجري في الشابي .
تأثر الشابي بجمال بلده تونس وما فيه من تعس وفقر.
أثر مدرسة أهولو في الشابي .

الكتاب الثالث

صداي الشابي في الشرق العربي .

أصدقاء آخرون ،
نسيان موقت .
كتاب واحد .
أثر المرض في حياته .
جهد جديد .

تطور جهد بيد .

آثار الشابي
مهرجانات التذكير .

رائد جديد .

أخطأ وأوهام .

أخطأ جديدة .

النصاب الرابع

=====

الثورة في شعر الشابي - دوافعها واتجاهاتها .

دوافع الثورة عند الشابي .

كفاح الشابي .

رسالة الشابي .

نقطة الاحساس وأثرها في الفرد والجماعة .

الشابي ومأساة وطنه .

الشابي ومأساة مجتمعه .

موقف الشابي من السفور والحجاب .

رأى الشابي في الأدب والشعر العربي القديم .

الشعر والشاعر في رأى الشابي .

اتجاهات الثورة في شعر الشابي .

الثورة الأدبية .

الثورة السياسية والاجتماعية .

اثارة الشعب ضد الظلم والظلمة والجمود .

تهديد الظالمين والطفافة وثورة الشعب وسيله الجارف .

روائع الشابي في هذا الميدان .

النصاب الخامس

=====

الحب وصوره في الشعر عند الشابي .

صور الحب عند الشابي .

حب الأرض والوطن .

حب المرأة .

حب والده .

حب الحياة .

حب الطبيعة .

النصاب السادس

=====

خصائص شعر الشابي وموقف النقاد منه .

الأسلوب.

التركيب.

الصناعة اللفظية والمعنوية.

الخصائص اللفظية والرمز.

المطابقة والعقل.

الخيال.

الجد والهزل.

النفوس الشعرى.

أوزان الشابي وقوافيه.

المسألة

=====

الأخطاء اللغوية

الألفاظ الفريية.

الغائبة.

=====

=====

=====

=====

=====

=====

- ١- الشابي شاعر الحب والحمية - الأستاذ عمر فروخ - دار العلم للملايين
بيروت - سنة ١٩٦٠ م.
- ٢- الشاعران المتشابهان - الشابي والتيجاني - أبو القاسم محمد
البدري - القاهرة - دار المعارف بصر - لم تذكر سنة الطبع.
- ٣- شعب وشاعر - الدكتور نemat أحمد فؤاد - مطبعة السنة المحمدية
القاهرة - سنة ١٩٥٨ م.
- ٤- الشابي وجبران - خليفه محمد التليسي - دار الثقافة بيروت -
الطبعة الأولى - سنة ١٩٥٧ م.
- ٥- ديوان أبو القاسم الشابي " أغاني الحمية " - أبو القاسم الشابي
دراسة وتقديم الدكتور عز الدين اسماعيل - دار العودة بيروت -
سنة ١٩٧٢ م.
- ٦- آثار الشابي وصداه في الشرق - أبو القاسم محمد كرو - المكتب
التجاري للطباعة والتوزيع والنشر - بيروت - سنة ١٩٦١ م.
- ٧- الشابي شاعر الخضراء - حمدي محمد عبد الوهاب -
الدار القومية للنشر - ١٩٦٩ م. - لم تذكر سنة الطبع بالتحديد
وانما ذكرت سنة ما يمد الستين خالية من الأرقام ، وكان الرقم علامة
استفهام .
- ٨- دراسات في الشعر العربي المناصر - الدكتور شوقي خيف -
دار المعارف بصر - طبعة ثانية - سنة ١٩٥٩ م.
- ٩- الشابي حياته وشعره - أبو القاسم محمد كرو - منشورات
دار مكتبة الحياة ببيروت - الطبعة الثالثة - سنة ١٩٦٠ م.
- ١٠- أبو القاسم الشابي - شاعر الحب والثورة - رجاء النقاش
دار العلم - بيروت - سنة ١٩٦١ م.
- ١١- الرومانطيقية ومعالمها في الشعر العربي الحديث -
عيسى يوسف بلاطه - الطبعة الأولى - سنة ١٩٦٠ م. -
بيروت - دار الثقافة .
- ١٢- رائد الشعر الحديث - الدكتور محمد عبد المنعم
خفاجي - الطبعة الأولى - القاهرة - سنة ١٩٥٣ م.
- ١٣- كفاح الشابي - أبو القاسم محمد كرو - دار
الشرق الجديد - الطبعة الأولى - بيروت - تشرين الأول -
سنة ١٩٥٤ م.

- ١٤:- شاعران معاصران - الأستاذان عمر فروخ - الطبعة الأولى
بيروت - دار الثقافة - سنة ١٩٦٠م.
- ١٥:- مذاهب الأدب - الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي
الطبعة الأولى - القاهرة - سنة ١٩٥٣م.
- ١٦:- الفزل - الدكتور سامي السدهان - الجزء الأول -
القاهرة - دار المعارف - لم تذكر سنة الطبع.
- ١٧:- الفزل - الدكتور سامي السدهان - الجزء الثاني -
القاهرة - دار المعارف - سنة ١٩٥٤م.
- ١٨:- قضايا الشعر المعاصر - الدكتور أحمد زكي أبو شادي
القاهرة - الشركة المصرية للطباعة والنشر - سنة ١٩٥٩م.
- ١٩:- قضايا الشعر المعاصر - نازكي السلائكة - بيروت - منشورات
دار الآداب - سنة ١٩٦٢م.
- ٢٠:- الاتجاهات الأدبية الحديثة في الأدب العربي الحديث -
أنيس خوري - بيروت - دار العلم للملايين - سنة
١٩٦٣م.
- ٢١:- الأعلام - خير الدين الزركلي - القاهرة - المطبعة
العربية - الطبعة الثانية - سنة ١٩٥٩م.
- ٢٢:- الشعر المعاصر في ضوء النقد الحديث - مصطفى السعرتي
مصر - مطبعة المقتطف والمقطم - سنة ١٩٤٨م.
- ٢٣:- مصادر الدراسة الأدبية - الدكتور يوسف داعر - صيدا
- مطبعة دير المخلص - سنة ١٩٥٠م.
- ٢٤:- الشابي حياته وشعره - أبو القاسم محمد كرو - منشورات
دار مكتبة الحياة - بيروت - الطبعة الثالثة - سنة ١٩٦٠م.

=====

=====

=====

=====

=====

=====